يونس

من وحي القرآن والسنّة

تأليف

د عقيل حسين عقيل

2017م

القاهرة

المحتويات

المقدّمة 6

يونس من وحي القرآن 30

من صفات النبي يونس 38

1 . رسول: 38

2 . مُليم:.. 40

3 . مغاضِب:... 44

4 . مُبتلى: 50

5 . آبق: 55

6 . مُساهِم: 59

7 . مُسبّح:.. 63

8 . ظِان: 74

9 . منبوذ في العراء:.. 82

10 . صاحب الحوت (ذا النون): 86

11 . سقيم:.. 88

12 . مُلتقم:.. 90

13 . منادٍ ربّه:... 92

14 . ناجٍ من الغمِ: 95

15 . مجتبى: 96

16 ـ صالح: 112

17 ـ مكظوم: 114

18 ـ مُفضَّل: 116

19 ـ المؤمن قومه جميعا: 121

20 ـ مُبشِّر: 124

21 ـ مُنذِر: 134

22 ـ حجّة: 135

23 ـ محمود: 136

24 ـ بصير: 139

25 ـ منصور: 153

26 ـ مُنعم عليه: 170

27 ـ مؤمن: 186

28 ـ مستجاب له: 194

يونس الاسم: 223

الاسم: 223

اللقب: 223

الكنية: 223

يونس: 223

المغاضبة والظنّ: 230

المغاضبة هجر: 236

الغضب والمغاضبة: 241

المساهمة: 251

المساهمة والدحض: 260

قوم يونس: 263

رسالة يونس: 272

الاستفتاء اليونسي: 284

الاستفتاء وتفاصيل الرسالة: 288

يونس نبيا رسولا: 292

ظنّ يونس: 304

النبذ ومراحله: 306

النبذ في العراء: 316

النبذ إعجازي واقعي: 321

شجرة من يقطين: 324

الوجه التكريمي: 326

الوجه الإعجازي: 330

اليقطينة: 332

اليقطين: 335

النبي يونس من السنّة 340

تسبيح يونس: 342
إيمانُ قوم يونس: 396
تصحيح المعلومة الخاطئة بمعلومة صائبة:.............................. 398
تصحيح المعلومة:... 399
قواعد تصحيح المعلومة بالمعلومة:....................................... 400

المقدّمة

بسم الله الذي تتم به الأعمال الصّالحات، وباسمه مفتتح كلّ شيء وإليه المنتهى، والصّلاة والسّلام على من اجتبى واصطفى، وإنّ يونس لمن المجتبين المصطفين.

وبعد:

إنّ مؤلفنا الموسوعي هذا يتناول البحث في قصّة يونس صلّى الله عليه وسلّم، وقد تناولنا فيه مجموعة من القضايا التي لم تكن موضع اتفاق في الرؤى من خلال فهم النصّ القرآني، وقد وقفنا على معظم ما قيل من آراء واجتهادات من اسمه بداية إلى أن آمن قومه أجمعين.

وكان مفتتح مؤلفنا عن يونس صلّى الله عليه وسلّم بجملة من صفاته التي خصَّه الله تعالى بها، من النبوّة والرّسالة والاجتباء وصحبة الحوت، وما لهذه المفردات من الدّلالة التي تحملها كلّ صفة بما يتصف بها حاملها.

فيونس عليه الصّلاة والسّلام نبيا لقوم محدّدين يسكنون مدينة نينوى بالموصل العراقية، وسمي يونس ابن مَتَّى بِذِ النُّونْ (الحوت أو صاحب الحوت، وعدد الشعب الذي أرسل إليهم نبي الله يونس ابن متّى يزيدون عن مائة ألف، وجميعهم كافرون كونهم يعبدون ما يعبد من دون الله.

حاول النبي يونس عليه السّلام ما استطاع إليه سبيلا أن يدعوهم إلى التوحيد وترك ما يعبدون من أصنام شركا بالله تعالى، ولكنّ قد صعب الأمر عليه؛ فلم يؤمن معه أحد منهم؛ وهكذا كانت العصبية على الكفر؛ فهم قوم تعصّبوا جميعا على أن لا يؤمنوا بماء يهدي إليه ذو النون عليه السّلام. وهذا الأمر استغضب النبي المكلّف بالتبشير والدّعوة؛ فغضب

منهم جميعا كونهم جميعا لم يؤمنوا؛ ومع ذلك أعطاهم الفرصة ثلاثة أيّام، وهو كما يراها للضرورة إنذار؛ فكان الإنذار ثلاثة (أيّام الإيمان أو العذاب الشديد) من الشديد الأعظم جلّ جلاله.

تركهم وقرّر الهجرة بدينه لعلّه يجد قوم يؤمنون بالحقّ الذي بأسباب التمسّك به غضب يونس بمن لم يأخذ به؛ فتوجّه إلى البحر مهاجرا لِيُبلغ دين الله عزّ وجلّ أينما وجد في المعمورة من يستمع إليه ويأخذ بما أنبأه الله به.

ومن جملة القضايا وجدنا أنّ هذا النبي الكريم يونس صلّى الله عليه وسلّم ذُكر في القرآن الكريم ست مرات، أربّع منها باسمه (يونس) ومرّة (ذو النون) ومرّة (صاحب الحوت)، وقد عرّفه لنا نبينا محمّد صلي الله عليه وسلَّم أيضا وذكره باسمه واسم أبيه (يونس بن متى) وذلك بقوله صلّى الله عليه وسلّم: لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)، وقد تناولنا هذه القضية من جميع وجوهها.

كان أهل قريته قد ركنوا في عبادتهم إلى عدد من الوثنيات القديمة فعبدوا الأصنام بدلا من أن يكونوا على التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، فبعث الله إليهم نبيه يونس صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم إلي الإسلام، ويردّهم إلى التوحيد من جديد، وبعد أن أقام فيهم ردحا من الزّمن يدعوهم عصوه وكذّبوه، فهدّدهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج مغاضبا من بين ظهرانيهم، وعلى هذا فيونس صلّى الله عليه وسلّم نبي مرسل من الله تعالى إلى قومه ذهب مغاضبا.

إنّ مسألة المغاضبة من أهم القضايا التي ركّز عليها البحث من أجل الوصول إلى حقّيقة الفعل والتمييز بين الغضب والمغاضبة، ووجدنا أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يغاضب ربّه ولم يغضب، ولم يقل الله تعالى أنّه

ذهب مغاضبا ربّه، فمن زاد هذه الزيادة كان قائلا على الله الكذب وزائدا في القرآن ما ليس فيه، وهذا ما لا يجوز، فإنّما هو غاضب قومه، وهذا لم يوافق مراد الله تعالى في مشيئته، وإن كان يونس صلّى الله عليه وسلّم لم يقصد بذلك إلا إرضاء الله عزّ وجلّ، فإن وقع منه ذلك فهو بغير قصد؛ فقد أراد به وجه الله، فلم يوافق ذلك مشيئته تعالى، فكان خلاف مراد الله جلّ وعلا.

وقد بيّنا أنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم، نبي الله المصطفى وعبده الصالح، لما ذهب مغاضبًا {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ}[1]. كان ذلك من القضايا الكبيرة التي توصل البحث فيها إلى نتيجة عقدية عقلية منطقية، بما لا يدع مجالا للشك أن يونس صلّى الله عليه وسلّم كان موقنا أنّ الله تعالى يقدر عليه وعلى جميع خلقه، من القدرة والقوّة والسلطة والتضييق والسّعة.

إنّ ظن يونس صلّى الله عليه وسلّم ذهب إلى أنّ الله تعالى لن يؤاخذه على هجر قومه مغاضبة لله تعالى، فلبث في بطن الحوت.

ومن المغاضبة انتقل البحث إلى قضية عرفية شرعية، هذه القضية هي المساهمة التي تحلّ كثيرا من الا شكّالات والمسائل وقت الاختلاف في بعض الأمور التي يستعصي على النّاس حلّها، فتكون المساهمة والاقتراع حلا مرضيا لا يُظلم فيه أحد.

وقد بيّن البحث أنّ الله تعالى يسبب الأسباب ويهيئوها من أجل الأخذ بها وصولا إلى ما يشاءه تعالى لأنبيائه، ولذا؛ فإنّ حال المغاضبة التي اتصف بها صاحب الحال يونس صلّى الله عليه وسلّم، كانت أحد الأسباب المؤدّية إلى الاجتباء بعد الاصطفاء، وهذه الأسباب من سنة الله

[1] الأنبياء 87.

تعالى في ابتلاء الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين من أجل رفعة المكانة وعلو الدرجة وزيادة الأجر.

وهنا غضب يونس لدينه ولم يغضب لنفسه، ولما غضب واتخذ قراره مهاجرا وراكبا البحر، لا لشيء إلّا لعلّه يجد قوم آخرين يؤمنوا بما أرسله الله به، وهنا أقول: غضب يونس كان بين أمرين اثنين:

الأمر الأوّل: أنّ غضب يونس في مكانه لأنّه لم يكن غضب متعلّق بخصوصيّة يونس، بل من أجل الدين وتوحيد الله تعالى، وهذا من حقّه.

الأمر الثاني: أن يهاجر يونس ليبحث عن قوم آخرين؛ فهنا تكمن العلّة وهي أنّ يونس يعرف أنّه قد أرسل إلى قوم نينوى، فكان لا وجوب للبحث عن قوم لم يبعث لهم.

قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[2].

يفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أنّ يونس عليه السّلام قد أدرك أنّه لا منقذ له من الغرق ومن الخروج من بطن الحوت إلّا الله الذي أرسله ليدعو قومه إلى توحيده وعدم الشّرك به، ولهذا ألهمه الله إلى ما ينقذه وهو: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) أي أدرك يونس أنّ التسبيح بوحدانية الله تعالى هو دعاء الله بكلّ صفاته. ذلك لأنّ اسم الله هو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر على صفة أو خاصية واحدة، بل هو الذي تتعدّد فيه الصّفات التي يتضمّنها ويحتويها في أسمائه الحسنى، والتي إن نعدّها لا نحصيها، {وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تُحصُوها}[3] وهذا لا

[2] الأنبياء 88، 89.

[3] إبراهيم، 34.

يعني أنّ نعمة الله غير محصية، بل تعني أن قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدّها، مع أنّ الله أحصى كلّ شيء وعدّه عدَّ {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}4.

إذن بالنسبة لله كلّ شيء مسجل إحصاءً وتعدادا، أمّا بالنسبة لنا نحن بنو الإنسان فغير قادرين على ذلك، وإلا هل هناك من يستطيع أن يحصوا ما تراه العين أو يُحسُّ به وما لا تراه العين ولا يُحسُّ به مع أنّه موجود من حولنا وعلى مقربّة منا، وكذلك يمتدّ إلى ما يبعد عنّا إلى مالا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالى، (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ومن ثمّ فإنّ في هذا التسبيح ينتفي التماثل مع الله في الفعل والاسم والمضمون والصورة، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}5. لا إله نفي، لاعتقاد ظنّي في إله يفيد ويضر، أو يقربّ من ويبعد عن، مع تأكيد على الوحدانية (هو الله). واستثناء الإله الذي ينسب إلى الذين ألّهوه باختياراتهم أو لرغباتهم وحسب ظنونهم، وهذا ما حدث مع قوم يونس الذين سخروا منه وهو يدعوهم إلى الله تعالى ولا إله غيره.

ولذا فإنّ اسم الإله يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير الله. أمّا اسم الله تعالى الذي سبّحه يونس فلا يرتبط بالإله إلا لسبب تقريب المعنى والدلالة للذين يظنون باعتقاداتهم في الآلهة حتى يتبيّن لهم المعنى المرشد إليه وهو الله (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

إذن لا إله إلا الله، تعني أنَّ الإله ليس هو الله، وبما أنّه ليس هو الله. إذن لا يُمكن أن يكون من اشتقاقاته، (ليس من اشتقاقات اسم الله). الإله

[4] مريم، 93 . 95.

[5] الحشر، 22.

مسمى بشري أطلقه البشر على ما يعبدون، أمّا اسم الجلالة (الله) فمسمى ذاتي مصداقا لقوله تعالى في سورة الشعراء: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصّلاة لِذِكْرِي}6، ولهذا اسمه غير مشتق، ولا يُشتق منه مسمى؛ فلو سلّمنا بأنّه بالإمكان أن يشتق منه مسمى نسلّم أيضا في الوقت ذاته بالتعدد، وهذا أمر مستحيل حيث الله واحد لا يتعدد ولا شريك له (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ولذلك جاء اسم الله اسم علم ليدلّ على ذاته، ومجموع صفاته الحُسنى التي احتواها دعاء يونس المنقذ من الهلاك (أقصد الدّعاء المنقذ). وهذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالى إلى اشتقاق من (ألَه) التي تعني التحيّر في وعدم الاهتداء إلى، ويقال أنّه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل والحبّ الشديد، الذي قد يؤدّي إلى ذهاب العقل من التعقّل. ويقال أنّه مشتق من (لاه) ولهذا جاءت (أله وألوهة) وهذه تدلّ على أنّ الإله هو المعبود بحقّ أو بباطل، كما ورد في كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للسيد مجدي منصور7. ولذلك يتمّ الاتفاق في هذا الأمر مع ابن القيم رحمه الله تعالى قال: "زعم السهيلي وشيخه بوبكر ابن العربيّ أنّ اسم الله غير مشتق؛ لانّ الاشتقاق يستلزم مادّة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادّة له، فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنّه أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنّه مستمدّ من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألَمَّ بقلوبهم،

---

[6] طه 14.

[7] مجدي منصور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة العلم، 1999م، ص 29.

وإنّما أرادوا أنّه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرّحيم والسميع والبصير وبقية صفاته الحسنى"8.

ولنا تعليق، وهو أنّ اسم الله لم يسمه أحد، بل سمى نفسه به (أنا الله) إذا فلا يليق أن يجرّد أو ينسب إلى تجريد يقودنا بحكم أنّ اسم الله قديم؛ فلا قديم للحي القيّوم جلّ جلاله، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}9.

إيمان القوم الجمعي بالواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد لم يتحقّق إلا مع قوم يونس صلّى الله عليه وسلّم: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أحد اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أحد}10.

وقوم يونس لم يؤمنوا بسهولة ولا مباشرة أول ما تم تبليغهم من قِبل يونس بل في البداية كانوا مصرّين على الشرك ممّا دفع الرّسول يونس للذهاب عنهم مغاضبان وهو متوليا عنهم إلى حين مصداقا لقوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}11.

ثم بعد أنّ تولى عنهم وعاد إليهم آمن جميعهم تسليما مطلقا بالله ربّ العالمين لا شريك له فكانت لهم الأسبقية بالإيمان الجمعي، {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى

---

8 المرجع السابق، ص 30.

9 الحشر 22 . 24.

10 الإخلاص 1 . 4.

11 الصافات 174 – 179.

مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا أنهمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأنهمْ لَكَاذِبُونَ اصطفى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}[12].

يُفهم من الآيات الكريمة السابقة أن عدد قوم يونس الذين بُعث لهم رسولا هم مائة ألف أو يزيدون وهؤلاء هم الذين آمنوا دون استثناء لأحد منهم.

وأولئك القوم الذين آمنوا جميعا تحقّقت لهم المتعة إلى حين (فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) وقوله إلى حين جاءت على احتمالات منها:

أ . إلى حين المؤقتة في الحياة الدنيا: وهذه إن كانت على هذا المفهوم تكون متعة قوم يونس طوال حياتهم بعد أن آمنوا جميعا، وهي تشير إلى نيلهم رضا الله تعالى الذي به يغفر لهم ما تقدم من ذنب كما يشاء الله دائما أن يغفر الذنوب لمن يهتدي إليه ويؤمن به بعد ظلال، ولهذا كان نوح صلّى الله عليه وسلّم داعيا لقومه لأن يهتدوا حتى يغفر الله لهم ما تقدم من ذنوب، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أجل مُسَمًّى إِنَّ أجل اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[13].

وخلال هذه الفترة إلى حين المؤقتة استفتهم يا يونس في قولهم هل حقّ أنّ الملائكة إناثا؟ (فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا أنهمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأنهمْ لَكَاذِبُونَ) فقوله (فَاسْتَفْتِهِمْ) أي استوضحهم وأُضح لهم الحقّ حتى يتبينوا

---

[12] الصافات 147 . 153.

[13] نوح 1 . 4.

الحقّ من الباطل ليعرفوا أنه لا برهان لهم ولا حجّة ولا دليل على أن الملائكة قد خُلقت إناثا، وأوضح لهم يا يونس أن الخالق يخلق ما يشاء خلقا ولا يلد كما تلد المخلوقات فهو الذي بيده الأمر والمشيئة كيفما يشاء، ومتى ما يشاء، وأينما يشاء، وما يشاء، ومن يشاء سبحانه أنه القوي القادر بالمطلق، ولذا فهم قبل الإيمان كانوا على الإفك يقولون ممّا يقولون أنّ الله قد فضَّل اصطفاء الإناث على البنين (أَلَا أنهم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأنهمْ لَكَاذِبُونَ اصطفى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ).

ولذا؛ فإنّ إيمان قوم يونس هو إيمان جمعي حيث لا استثناء لأحد منهم، ولهذا فالذي آمن به ومعه قومه جميعا هو الرّسول يونس صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه: لقد كان لقوم يونس رسول ورسالة، الرّسول هو يونس الكريم، والرسالة هي رسالة الهداية والتوحيد والتبيان للحقّ من الباطل.

والقوم هم الجمع من النّاس الذين تربّطهم علاقات تواصل دما وانتماءً وهم المعنيين بالأمر كما كان قوم يونس هم المعنيين بالرّسالة.

ولأنّ يونس شديد الحرص على أن يؤمن القوم، يبدو كما قيل أنّه قد استعجل شيء ما؛ فذهب إلى البحر، وركب الفلك مع الرّاكبين الذين امتلأت السّفينة بهم؛ ثمّ انطلقت السّفينة الممتلئة ركّابا، ولكن لسوء الحظ أظلمت والأمواج تكاد أن تغرقهم والحيثان تحوطهم بين الحين والآخر، فكان الخوف يملأ الأنفس، فاقترح الجميع أن يتمّ التخفيف عن السّفينة لتنجو بمن كتب الله لهم النجاة، وحتى لا تكون المظلمة بينهم؛ فقد اتفقوا على إجراء القرعة؛ ومن جاءت عليه لابدّ أن يقفز من الفلك في البحر. ولكن كما يقولون: كلما أجريت القرعة جاءت على صاحب الحوت

(يونس) عليه السّلام؛ فقز، ولكن رعاية الله وحفظه التقمته حوتة قبل أن يسقط في الماء.

وهناك في بطن الحوت بقي يونس وكأنّه قد ركب قاربًا لوحده؛ فكانت السرعة به منطلقة حتى اليابسة حيث النجاة، وهناك في اليابسة أيضا كانت رعاية الله وحفظه ليونس عليه الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}14.

جاء يونس عليه السّلام منذر، والمنْذِر هو المعلِم الذي يُعْرِّف القومَ بما يكون قد دهَمَهم من عَدُوّ أَو غيره وهو المخوِّف أيضا وأَصل الإِنذار الإِعلام يقال أَنذَرْته أُنْذِرُه إِنْذارا إِذا أَعلمته فأَنا مُنْذِر ونَذير أي مُعْلِم ومُخَوِّف ومُحذِّر ونَذِرْت به إِذا عَلِمْت ومنه الحديث انذَرِ القوم أي احْذَرْ منهم واستعِدّ لهم وكُنْ منهم على عِلم وحَذَرٍ"15.

الإنذار استباق بما يُحقّق المستقبل الأفضل ممّا يستوجب الإتباع لِما أنذر به أو التجنب حتى لا يقع المنذَر في المحظور، ولهذا جاء الاجتناب على مفهوم ما يُبعد عن المنهي عنه لما فيه من أذى أو ضرر أو مهالك، وعليه فإن جميع الرّسُل الكرام هم منذرين لمن بُعثوا إليهم مرسلين مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ}16.

ولأن يونس هو أحد الرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلّم فهو منذر لقومه بما آمره الله عزّ وجلّ أن يُنذرهم به، قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

14 الصافات 139 . 138.

15 لسان العرب، ج 5، ص 200.

16 النعام 48.

كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأيوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرسلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرسلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ}17.

وهكذا؛ فإنّ القاعدة تنص على أن الله تعالى (أرسل المرسلين مبشّرين ومنذرين) قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ وَاتَّخَذُوا آياتي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا}18.

وعليه فالمنذر هو الذي يعلم قبل غيره بما يُنذِّر به الآخرين المكلَّف بإنذارهم، فالرّسُل الكرام يُعلِمهم ويُعلِّمهم الله بعلم من علم غيبه لظهره للناس المعنيين والمستهدفين بأمره فيبلغوا الرّسُل وينذروا بما أمرهم وأنذرهم به جلّ جلاله.

جاء يونس عليه السّلام حجّة، والحجّة هي البيّنة حيث لا مجال للبس والغموض، ولذا فالرّسُل حجّة من الله للعباد، والحجّة الدليل والبرهان الحقّ الذي به يُدمغ الباطل حتى يزهق.

قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأيوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرسلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرسلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}19.

---

[17] النساء 163 . 165.

[18] الكهف 56.

[19] النساء 163 . 165.

ولأنّ يونس حجّة كغيره من الرّسُل الكرام كان جميعهم حُجج على أقوامهم حتى لا يكون للنّاس على الله حجّة، مصداقا لقوله تعالى: (رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسُل) أي بعد أن أرسل الله رُسُله صلى الله عليهم وسلَّم فلم يَعد للنّاس حجّة (معذرة) بأن لا يؤمنوا، فلو لم يُرسل الله الرّسُل لكان للناس ما يقولون، ولكن أن يبعث فيهم ولهم رُسُل كرام وبين أيديهم الحُجج العظيمة الدالة على وحدانية تعالى وصفاته الحسنى ومع ذلك البعض منهم لم يؤمن فهذه لابدّ وأن يترتب عليها العقاب الشديد للذين كفروا وأشركوا، فلو لم يبعث الله رُسُله لكان للناس ما يقولون ولكن بعد أن بعث لهم رُسُله فليس لهم ما يقولون وليس لهم بد إلا اختيار أحد الأمرين:

ـ أمر الإيمان واتباع الرّسُل فيكون لهم الجزاء الأوفى من مغفرة وتوبة والفوز بالجنّة.

ـ أمر العصيان والكفر والشرك ويكون لهم أمر العذاب الشديد الذي به سيكونون في النّار.

وقضية اللبث من القضايا المهمّة التي وقفنا عندها، في البحث والتدقيق والتمحيص وقد بيّنا المدّة الاحتمالية لهذا اللبث من النصّوص القرآنية حيث أن مدّة اللبث كانت على وجه الدقة منذ أن التقمه الحوت إلى أن قال: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[20].

ثم عرجنا على أنواع اللبث وأوقاتها ممّا ورد في محكم التنزيل مرجّحين وجه الاحتمال التقريبي لما لبث يونس صلّى الله عليه وسلّم.

---

[20] الأنبياء 87.

ومن خلال إرسال يونس صلّى الله عليه وسلّم إلى مائة ألف أو يزيدون تناولنا مسألة التكليف الإلهي، ولماذا الإرسال؟ وما الفائدة التي تعود على الخالق من المخلوق؟

إنّ كثيرا من النّاس يتساءل عن الحكمة من التكليف الإلهي في عبادة البشر لله تعالى؛ حتى أنّ البعض يخرج من التساؤل إلى السؤال الذي يطرحه: أي حاجة للخالق سبحانه وتعالى في أن يدين له عباده بالولاء والإيمان والعبادة، وأي ضرر يناله الخالق عزّ وجلّ إن لم يدنْ له عباده بالولاء والإيمان والطاعة والعبادة؟

والجواب على هذا نقف على جزء منه في بحثنا في قصة يونس صلّى الله عليه وسلّم، كما وقفنا على أجزاء أخرى لهذا الجواب في كتبنا عن قصص الأنبياء ومع هذا نقول: إنّ منفعة الإيمان بالله تعالى وعبادته وطاعته والدينونة له، لا تعود على الله عزّ وجلّ، وهو أغنى من الحاجة إليها، وأعز من أن يطلبها من خلقه، وليست عائدة إلى الله عزّ وجلّ، وحتى لا يعجب أحد من ذلك ويتساءل عن نوع هذه المنفعة وما يقابلها من ضرر فقد ذكرنا أن منفعة الإيمان بالله عائدة إلى الإنسان ذاته، كما أن ضرر الكفر به عائد عليه أيضا.

وبيان ذلك أنّ الإنسان مفطور على جملة من الصفات والطبائع التي لابدّ له منها كي يتمكن من إعمار الأرض وإصلاحها وتسخيرها والاستفادة منها، مثل:

ـ الفطرة.

ـ العقل.

ـ التمييز.

وما يتفرع عن ذلك من الإيمان والإدراك والعلم والمعرفة وصولا إلى الحقّائق.

والعقل وما يصدر عنه أيضا من نقائض الموجبات التي ذكرناها مثل الكفر والتقصير والجهل والادعاء، التي تكون سببا في الأنانية والأثرة والسطوة ممّا يجعل كفة ميزان الشيطان دائمة الرجحان عندما يغيب العقل عن حقّيقة وجود الإنسان في هذا الوجود.

إنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم نبي مرسل من أنبياء الله تعالى، ويحمل كل الصفات الموجبة، وهذه الصفات لا يمكن أن تؤدّي عملها الصالح في عمارة الأرض وإصلاح النّاس على نحوٍ تسعد به الإنسانية، إلا إذا كانت هناك رقابة عليا على هذه الصفات، وكان صاحبها مستشعرا وجود هذه الرقابة.

ولهذا، فقد بيّن البحث أن يونس صلّى الله عليه وسلّم يضربّ المثل في استخلاص العبرة للإنسان، والإنسان متى ما تذكّر الله وشعر أنّه مراقبه في كل حركة وهمسة، ومتى ما تذكّر أنّه مكشوف أمام الله تعالى في سره وعلانيته، وأنّ الله تعالى قادر على أن يهلكه متى شاء، وأيقن ذلك في قلبه يكون من الصعب على صاحب الاعتقاد أن يعصي الله تعالى.

ثمّ إن العبرة للإنسان التي يجب أن يستخلصها لم يجرِها الله تعالى على أيّ أحد، بل أجراها الله تعالى على نبي كريم مصطفى، فهذا العبد الذي ابتلعه الحوت لا يشك أحد في هلاكه، ولكن هذا العبد أيضا، اعتاد أن يلجأ إلى الله في كل أموره، فكان أول شيء فكر فيه أن يلجأ إلى ربّه! (فنادى في الظلمات ألاَّ إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

وهذا دعاء:

أوَّله توحيد.

وأوسطه تسبيح.

وآخره إقرار.

والله تعالى لا يخيّب ظن من التجأ إليه، فاستجاب له ونجّاه من الغم كما ينجي المؤمنين، فقد دخل يونس صلّى الله عليه وسلّم في زمرة المؤمنين الذين ينجيهم الله عند البلاء والكربّ والمصيبة، وقد تناولنا ذلك في باب الفضائل ليونس صلّى الله عليه وسلّم عندما تكلمنا عن بعضٍ من صفاته.

ثمّ إنّ القول في ما ذهب إليه البعض من أنّ هفوة يونس في هجر قومه كانت خطيئة، فقد ذكر البحث أنها كانت غضبة لله تعالى وليست هفوة، إذ أنّ ذلك لو صدر عن غير نبي لكان ذلك من تمام فضائله وفي ميزان حسناته، ولكن يونس صلّى الله عليه وسلّم، كان ذلك مأخذا عليه نظرا لرفيع مقامه وعلو رتبته، فكان التقام الحوت له بموجب التربّية الخاصة والعناية المتميزة من الله تعالى لتزكية نفسه الطاهرة والسمو بها عن كل شائبة، ثم إنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم، أنّ الذي صدر منه كان سببا لرحمة العباد في كشف الضر عنهم ونجاتهم من الكربّ إذا دعوا بدعوة يونس صلّى الله عليه وسلّم: (أن لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين).

ولهذا فقد أبق يونس عليه الصّلاة والسّلام والآبق هو الفار من معايشة المظالم والظالمين والكفر والكافرين والشرك والمشركين والنفاق والمنافقين والفساد والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ.

والأبق، هو خروج بلا استئذان من أحد، أي خروج دون انتظار مشورة أو أخذ رأي، ولهذا فالذي معه الحقّ وهو طائع له ومحرِّض عليه لا يقبل أن يستشير الذين ليس لهم مع الحقّ وإحقّاقه علاقة اعتراف وتقدير واحترام واعتبار، وهذا هو حال يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي كان

رسولا لإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ودمغه، ولذا كان أبق يونس عن قومه عن غير طاعة لهم فيما هم عليه من كفر وشرك وفساد ونفاق ومظالم، ففر منهم وما يعبدون من دون الله من أربّاب ليكون على حاله من المسبِّحين باسم الله وحمده تعالى، ولذلك فقد وُصِف يونس صلّى الله عليه وسلّم بالآبق.

إذا أبق يونس صلّى الله عليه وسلّم كان كفرا بكفر قومه الذين هم على الضلال متخذين من دون الله أربّابا؛ فكان أبقه في مشيئة الله درسا في حياته ليكون من بعده رسولا مُجتبى بعد نجاحه وفوزه في كل ما تعرض له من ابتلاءات من ربّه الذي أعدَّه على الطاعة والصبر وحمْل المسؤولية التي بها تمكَّنَ يونس من استيعاب قومه من أجل هدايتهم للحقّ وسُبل الخيرات الحِسان إعمارا في الأرض وإصلاحا فيها.

وعليه: فالأبق فرار بالقوّة والقدرة والاستعداد والإرادة مع تحمَّل كل ما يترتب على الأبق من أفعال وردود أفعال وإن كان من وراء الأبق مخاطر وصعاب وابتلاءات جِسام، كل ذلك يُ‌ُقبل أن يواجه لا بالاعتراض عليه بل مع وافر التصميم على تنفيذه دون تردد وهذا ما فعله يونس رسول الله لقومه الذين يصلون تعدادا لمائة ألف أو يزيدون.

الآبق هو الموصوف بأفعال الأبق التي ذكرناها ولا يقتصر على أبق العبد من ظلم سيده عندما يفر منه عاصيا عن طاعة أوامره التي تُملى عليه بالقوّة وهي في كثير من الأحيان في غير طاعة الله تعالى، كالعبيد الذين يخدمون سادتهم في تناول الخمر وكؤوسه وتهيئة المناخ المناسب لارتكاب الفواحش والمظالم ما ظهر منها وما بطن.

ولذا؛ فالأبق فرار من العيش مع المظالم والظالمين والفساد والمفسدين والكفر والكافرين، أنه الفرار مع سابق الإصرار.

الأبق دائما يسبقه قرار ولا يُنفَّذ إلا بقناعة تامة، والآبق هو الذي يقبل أن يُنفِذ قراره بنفسه ولا يُنفذه له ولا معه آخرين، ولهذا لا يشارك الآبق الآخرين في اتخاذه قرار الأبق ممّا يجعل تنفيذه بالقوّة يؤدّي إلى اختفاء الآبق دون معرفة مكانه من قِبل الذين أبق منهم فرارا.

وعليه: فالآبق هو الفار من أجل النجاة بالنفس أو الرسالة.

أمّا ظن يونس؛ فيحتاج إلى بيان، فهو في اعتقادنا ظن موجب، وهذا أمر لم يقل به أحد فقد أشارت التفاسير إلى غير ذلك من قريب أو بعيد، لذلك فإن الأمر يحتاج إلى تحليل دقيق.

ونبدأ من حيث يجب أن نبدأ وهو قوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) هذه الآية هي المرتكز الذي تقوم عليه فكرة الظن الموجب.

ونريد قبل إقرار الفكرة أن نذكِّر بحقّيقة لازمة هنا مفادها من المحال أن يكون في ظن يونس تحدٍ لله عزّ وجلّ، فهو من المصطفين المجتبين والأنبياء الرّسُل، ولا شك أن الله لا يصطفي ولا يجتبي ولا يكلف بالنبوّة أو الرسالة من يظن أن يمكن له أن يتحدى الله عزّ وجلّ.

إذن جملة (نَقْدِرَ عَلَيْهِ)، ليس المقصود فيها يونس إنسانا جسدا لأنه محال بحقّ الله القادر جلّ جلاله، ومحال بحقّ يونس صلّى الله عليه وسلّم، عليه يجب أن يكون نقدر عليه، لغير الإنسان الجسد، وهو على وجه التحدي فعله (ذهب مغاضبا)، فنقدر عليه تعود على فعل يونس، وهو فعل موجب لانّ يونس غضب على قومه لأنهم تأخروا في إعلان إيمانهم فغضب غضبة حقّ لله، فهو فعل موجب، وبعد الغضب حصل تقدير من يونس هو الظن المتعلق بالذهاب، فقد ظن يونس ضنا يقينا أنّ العذاب واقع لا محالة بقومه إن لم يؤمنوا وهذا ظن يقين بالنسبة ليونس، وقدَّر أنّه بذهابه عنهم سينجو من العذاب، ولكن الله أراد أن يبيِّن ليونس تفهيما

وتعليما لا عقابا بأنّ المنجي هو الله وليس الظن بالذهاب فكان الحوت لتحقّيق هذه الإرادة الإلهية التي تحقّقت بفهم يونس فكانت من المسبِّحين ولو لم يسبّح لبقي الظن بالذهاب وبقي يونس في بطن الحوت ولكن التسبيح هو إقرار بالتسليم أن المنجي هو الله عزّ وجلّ وليس تقدير ظني بالذهاب عن العذاب.

والظِان الذي يود أن يكون ظنه في محله هو من يدور في خاطره ما يدور من أمر مشكوك فيه ممّا يجعله في حاجة لأن يتبيَّن قبل أن يصدر حكما نهائيا فيما يظن من ظنون، ولذا، كان ذا النون صلّى الله عليه وسلّم مغاضبا على قومه الذين لم ينتهوا عما كانوا فيه من ضلال فهم يعبدون من دون الله أربّابا، ممّا جعل ذهابه منهم مغاضبا عليهم دون تردد في مقاطعتهم وهو يفكِّر يقينا أنّهم لن يقدروا عليه بأسباب اتباعه للحقّ وإتباعهم للباطل، ولهذا كان ظن يونس في تحليلنا لمفاهيم خروجه مغاضبا وهو ظان أن لن يقدر عليه على احتمالات منها:

الاحتمال الأوّل:

في قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) تشير هذه الآية الكريمة أن يونس كان مغاضبا على قومه أي؛ أنّه غاضب عليهم فخرج منهم وهو في حالة غضب ثم أنّه كان على غير أمل أن يتركوا ما يعبدون من دون الله من أربّاب، فكان ظنَّه أنهم سيظلون على شركهم إلى النهاية، ولهذا خرج منهم يأس، ممّا جعل المأخذ على ظنه الذي لم يكن في محله مأخوذ عليه؛ فالمؤمن لا ييئس ولا يقنط من رحمة الله فما بالك بالرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، قال تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ ربّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}21، وهذا لا يعني أنّ يونس قد ضل (استغفر الله)

[21] الحجر 56.

ولكنّه يعني إذا كان القنوط لا يُقبل من غير الأنبياء فكيف أنْ يُقبل من يونس الرّسول الكريم الذي سعى لأن يهدي للتي هي أحسن طاعة لأمر الله الذي هيئه أولا لمهمة الرسالة ثم اجتباه رسولا لها؟

وبالعودة إلى مراجعة الآية الكريمة (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يتضح مفهوم غضب يونس على قومه وظنِه أن لن يُقدر عليه على اعتبارات منها:

ـ إن يونس كان يظن أنّ غضبه على قومه لن ينتهي، وذلك لاستمرار مسببات غضبه عليهم.

ـ أنّ يونس قد ظن أن قومه الذين خرج منهم مغاضبا لن يؤمنوا معه أبدا.

وبالرغم من وجود هذين الاعتبارين إلا أن النتيجة كانت على عكس ما كان يظن يونس في غضبه على قومه، حيث كانت النتيجة هي وفقا للآتي:

أ ـ لقد انتهي غضب يونس الذي كان يظن أنّه لن ينتهي أو يزول عنه بمجرد دخوله الظلمات التي بمروره في ظلماتها قد نسي كل شيء إلا ذكر ربّه الذي ناداه مُسبِّحا وهو في الظلمات تسبيحا جليلا وعظيما، (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، ولهذا لو لم يكن يونس صلّى الله عليه وسلّم من المسبِّحين لبقي لابثا في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون مصداقا لقوله تعالى: (فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

ب ـ إنَّ قوم يونس الذين ظن أنهم لن يتركوا ما يعبدون من دون الله من أربّابٍ كان ظنه في غير مكانه فهم جميعا قد أسلموا بقدرة الله تعالى

دون أُستثناء، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}22.

وبمقارنة ظن يونس ويأسه من إيمان قومه معه نجد أنّ إيمان قومه بقدرة القادر المطلق كان ميسرا ودون استثناء لأحد منهم، ولذا؛ فهم أصبحوا على التوحيد والطاعة على يدي يونس الذي كان يظن أنّهم لن يتركوا الشرك والكفر ويؤمنوا بالله العزيز الجبَّار.

وعليه: فقوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) كان ظنا في غير مكانه ولا ينبغي أن يكون من رسول لا يقنط من رحمة الله تعالى، ولكن للغفلة أسباب ولعدم الكمال أسباب وللابتلاءات أسباب وللامتحانات أسباب ولكل ما تعرَّض له يونس من أسبابٍ أسباب، وكلها كانت في مشيئة الله وقدرته المطلقة فهو الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسبحان الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}23.

الاحتمال الثاني:

لأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم كان على يقين أن ما قام به هو لا يخالف ما يشاءه الله فأَقدم على ما قدِم عليه مغاضبا دون أن يحسب لِما حدث معه حساب، ولهذا كان ظنُّه أنّ ربّه تعالى لن يحكم عليه وهو مغاضبا من أجل توحيده وعدم الشرك به تعالى فخرج مغاضبا وفي نفسه

[22] الصافات 39 . 48.

[23] يس 81 . 83.

ظن أنَّ ما قَدِمَ عليه هو الحقّ (عين الصواب) ولم يعتقد (يظن) أنّه سيكون في مخالفة مع ما يشاءه الله، ولكن النتيجة كانت مخالفة لظن يونس الذي كان في اعتقاده أن الله لن يحكم عليه بما حكم به عليه، وهكذا يكون الاتفاق مع ما جاء في تفسير ابن عبد السلام لقوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)"ظن أن لن نحكم عليه بما حكمنا"24.

الاحتمال الثالث:

لأنّ يونس مؤمن بربّه بالمطلق فهو يظن في نفسه يقينا أن ربّه لن يخذُله وهكذا كان ربّه خير حافظ له وإن تعرض إلى ما تعرض إليه من ابتلاءات وامتحانات، فبعد أن ذهب من قومه مغاضبا وتعرَّض لِما تعرض إليه في الظلمات من التقام وضيق، فلم يكن (يظن) أن يتعرض إلى ما تعرض له من ضيق، ولهذا فقد ظنَّ أن لن يُضيِّقَ الله عليه في شيء بعد خروجه من قومه مغاضبا، (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) بمعنى "لن نضيِّق عليه"25.

وعليه: لقد كان يونس بصيرا بحاله وحال قومه قبل إيمانهم وبعد إيمانهم، ولأنّه رسول مُرسل لقد كان طائعا لأمر ربّه الذي أمره بأن يبصرهم لأجل أن يعرف ويتعرَّف على ما يؤثر فيهم سلبيا ليتفاداه وما يؤثر فيهم إيجابيا ليقدم عليه.

وفي اللغة بصر به نظر إليه، أبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، ورجل بصير مبصر خلاف الضرير، وفي التنزيل العزيز: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ

---

[24] تفسير ابن عبد السلام، ج 4، ص 34.

[25] تفسير الرازي، ج 11، ص 65.

وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}26. ولذا؛ فالبصير هو الذي يُدرك الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر، والمبصر هو الذي يُدرك حقّيقة وجودها بالمشاهدة العينية.

وعليه: فالبصير يُدرك العلل والخفايا التي من وراء خلق الأشياء والمخلوقات، والمبصر فقط هو الذي يصف ما يشاهده ولا يدرك ما خلفه، وهذا الأمر المخفي هو الذي يعلمه ويدركه البصير. قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}27.

البصير هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط، ولهذا المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حد مشاهدة الإبل، بل يتعداها إلى معرفة الكيفية التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنا بأن من ورائها خالق عظيم يملك قوّة الخلق كله ويؤمن إدراكا أنه الخالق الذي لا يُخلق جلّ جلاله.

يقول صاحب اللسان: أعلم الله أنه يدرك الأبصار وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الإبصار أي لا يعرفون كيف حقّيقة البصر وما الشيء الذي به صار الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فاعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير28.

والأبصار من جهة أخرى هو الاعتبار والاستبصار كما في قوله تعالى: {وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى العمى وَلَوْ كَانُواْ لاَ

---

[26] الأنعام 103.

[27] الغاشية، 17 . 22.

[28] لسان العرب، ج 4 ص، 66.

يُبْصِرُونَ}29. الضمير يعود للمخاطب وهو سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فالكفرة الفجرة يعرفون حجّة محمّد رسول الله ويجحدون الحقّيقة الآتي بها، ولذا فهم كالأعمى الذي فقد بصره فلا يرى شيء.

ومن ينظر إلى تاريخ الأمم السابقة يجد التاريخ ملئ بالعبر والمواعظ والحِكم والدروس والعواقب، قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}30. وقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}31.

ولأنّ الله قد أنعم على عباده بالبصر والبصيرة فهو يراهم في أحسن صورة وتقويم وهم مبصرون في آياته عزّ وجلّ وفيما يأمر بالبصر إليه والنظر فيه كما أمر سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم، وذلك ليكون نظر الناظرين إلى ما يسرّ النفس ويطمئن القلب، قال تعالى: {صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}32. ومع أنَّ النظر إلى البقرة الصفراء الفاقع هو نظر إلى المشاهد المحسوس إلا أن النظر بالبصيرة يرتقي إلى ما هو مجرد، ولهذا؛ فإنّ ما يسر أعيننا في الأشياء الخفية يرتقي بنا إلى نظرة البصيرة التي بها نتمكَّن من مراقبة الله في أفعالنا وأعمالنا فيكون لزاما علينا أن لا نغتب أحدا ولا نذم أحدا ولا نذكر غيرنا إلا بالخير وإلا فالصمت خير ويجب أن يكون تفكيرنا بالنظر العميق في مظاهر خلقه تعالى وهو الذي يوصلنا إلى ما يسرنا حقّيقة.

ومن القضايا الكبرى التي عالجها البحث ووصل فيها إلى نتائج مرضية على ما نعتقد هي قضية النبذ وإنبات شجرة من يقطين، فكان

---

[29] يونس 43.

[30] الأنعام 11.

[31] النمل 69.

[32] البقرة.

نبذه صلّى الله عليه وسلّم في العراء وإنبات شجرة اليقطين عليه، قدرة إعجازية واقعية فمن الأسباب الإعجازية التي نقف عليها في ثنايا البحث آية إعجازية من خلق الله تعالى لخلو هذه العراء من أي نوع من أنواع النبات أو الأشجار، أي أنّ هذه العراء قاحلة تماما بحيث لا تساعد على نمو أيّ نوع من أنواع النجم أو الشجر، ومع هذا فقد أنبت الله تعالى على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، أوهن النباتات تحملا في أقسى الظروف الطبيعية والبيئية.

وقد أوضح البحث الوجه الإعجازي في شجرة اليقطين (اليونسية) لأنّها خاصة بذلك النبي، وأنّها نبتت في موطن وبيئة أقل ما يقال فيها أنها خالية من النبات حتى تلك التي لها قدرة كبيرة على مقاومة العطش والجفاف، حيث أن هذه العراء لم يكن فيها من النبات غير شجرة من يقطين أنبتها الله تعالى على يونس صلّى الله عليه وسلّم، ولو لم تكن هذه الشجرة آية معجزة لما خصها الله تعالى بإضافة (يقطين إلى شجرة).

ثمّ إنّ البحث في مجمله ركز على قضية مهمة تتلخص في أنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم ما كان له أن يتصرف في شأن من شؤون الرسالة التي كلفه بها الله سبحانه وتعالى، إلا أن يأذن له الله تعالى بذلك.

لقد ترك لنا يونس صلّى الله عليه وسلّم عبر كثيرة ومنافع جمة، وخير ما تركته لنا وسنّه سنّة فينا استجابة الدعاء في النجاة من الغمّ، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}33.

---

33 – الأنبياء 87- 88

فجاز الله يونس صلّى الله عليه وسلّم خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمّد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

يونس
من وحي القرآن

يونس صلّى الله عليه وسلّم رسول مُرسل برسالة لقومه الذين هم يزيدون عن المائة ألف ولا ينقصون عنها شيئا مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}34، أي: أنّ رسالته كانت لقومه الذين يزيدون عن المائة ألف ولا ينقصون؛ فهم على الإضافة والزيادة لا على النقصان عن ذلك العدد المحدد في الآية الكريمة السابقة من سورة الصافات؛ فكانت رسالته لقومه أن يعبدوا الله ولا يشركوا به أحدا ولا يتخذوا من دونه أربّابا.

ولقد آمن قوم يونس جميعهم وهذه سابقة على جميع الأقوام حيث أنّ جميع الأقوام لم تؤمن جميعها إلا قوم يونس صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}35.

[34] الصافات 147.

[35] الصافات 147، 148.

وعليه لقد كان قوم يونس ممتَّعين في حياتهم الدنيا مصداقا لقوله تعالى: (فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) بأسباب إيمانهم الجمعي طاعة ليونس في أمر الله عزّ وجلّ.

ولأنّهم الممتَّعين إلى حين أي إلى وقتٍ معلوم بالحياة الدنيا، فهم ببقائهم على الإيمان إلى الوقت المعلوم سيكونون من الممتَّعين في حياتهم الآخرة أيضا، ولهذا لما آمن قوم يونس كشف الله عنهم عذاب الخزي مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[36].

يونس صلّى الله عليه وسلّم رسول مرسل مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}[37]، برسالة لقومه الذين آمنوا جميعهم فكانوا في مرضاة الله في حياتهم متمتِّعين دون استثناء لأحد منهم من التمتُّع.

ولقد أبَقَ يونس صلّى الله عليه وسلّم إلى الفُلك المشحون لأسباب غير مبيّنة تفصيلا في نصوص القرآن الكريم، وإن كان المفهوم الضمني دالا على وجود أسباب غير محددة دعته لذلك الأبَق؛ فهو مغاضب بدون شك، ولكن أسباب المغاضبة المعلومة في علم الله الواسع هي غير مُفصَّلة في القرآن الحكيم، ممّا جعل عدم تنزيلها مفصَّلة يعود هو الآخر لأسباب يعلمها علّام الغيوب ونحن لا نعلمها، قال تعالى: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}[38].

وبعد أن أبَقَ يونس صلّى الله عليه وسلّم إلى الفُلك المشحون ساهم كغيره من المساهمين في قبول الإلقاء من ذلك الفُلك المشحون، أي أنه شارك الآخرين الذين هم على ظهر الفُلك المشحون مساهمة بما يُظهر

---

[36] يونس 98.

[37] الصافات 139.

[38] الصافات 140.

المحظوظ من غير المحظوظ، ولكّنه كان من المدحضين من ركوبه، قال تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}39، وهنا تولَّدت الأسباب التي جعلته في رعاية الله وحفظه لابثا في بطن الحوت بعد أن التقمه دون أن ينهيه الخطر والضرر.

آيات عظيمة في قصة يونس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وابتلاءات عظيمة تعرَّض لها وأُمتحن بها؛ فكان نِعم الرّسول الكريم مسبِّحا باسم ربّه تعالى الذي اتخذه وليا؛ فكان له خير حافظا وخير وليا وخير مجيبا، فاستجاب له مصداقا لقوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}40.

بعد أن التقم الحوت يونس صلّى الله عليه وسلّم وجد يونس نفسه في ظلمات تتعدد دون أن تُحدد بنصٍ قرآني، ممّا يجعل الاجتهاد جائزا في عدِّها في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، والتي يمكن أن يكون من بينها:

ـ ظلمة الالتقام (فَالتقمهُ الْحُوتُ) أي ظلمة البلع.

ـ ظلمة بطن الحوت: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[41].

ـ ظلمة الاحتباس.

ـ ظلمة ضيق الأنفاس في بطن الحوت (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ).

---

[39] الصافات 141، 142.

[40] الأنبياء 87، 88.

[41] الصافات 143، 144.

. ظلمة ضيق الحركة والامتداد.

. ظلمة انعدام القدرة على الفعل.

. ظلمة الندم على الفعل المتحقّق مسبقا وهو الخروج المغاضب (فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ).

يونس هو صاحب الآيات الرّبانية الملّقب بـ(ذا النون) أي: بصاحب الحوت مصداقا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ ربّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[42]، وصاحب الحوت هو من صاحب الحوت دون أن يضره، وكأنّ الألفة بين يونس والحوت حاصلة وإلا لِماذا كان الحوت منقذا ليونس من الغرق؟ أي: لقد قُذِفَ بيونس في أعماق البحر ولا منقذ له من البشر، بل البشر هم الذين رموه ليكون في الغرق، ولكن فضل الله تعالى على يونس هو الذي سخّر له الحوت العظيم ليلتقمه من أعماق البحار ليخرجه إلى شواطئه الآمنة. بهذه الأسباب وُصِفَ يونس صلّى الله عليه وسلّم بـ (ذا النون) فنعم الوصف ونعم الصُحبة.

وعليه: لقد كان الحوت ليونس ملتقما وليس ملتهما، والفرق كبير بين مفهوم الالتقام ومفهوم الالتهام، فالأوّل لأجل الأخذ بكامل السرعة كي لا يهلك الملتقم، وهذه السرعة الالتقامية هي التي بها أُخذ يونس أخذا من الوقوع في الغرق، والثاني لا يكون إلا بأسباب الشراهة على الأكل لسدّ رمق من أرماق الجوع التي تلحقّ الجائع، ولهذا لم يكن الحوت ملتهما ليونس بأسباب الجوع، بل كان ملتقما له من الوقوع في الغرق.

---

[42] القلم 48 . 50.

وبعد أن التقم الحوت يونس من أعماق البحار أخذه في رحلة مائية مظلمة يونس لا يعلمها ولا يعرفها بل في مشيئة الله كانت الرحلة إلى شط الأمان.

وهكذا كان يونس في بطن الحوت يَعبُر البحر دون أن يدري الطريق التي شاءها الله له ليكون على شاطئ الأمان ناجيا من الغرق وخطر الموت ومواجع الألم في الظلمات المخيفة التي تعرَّض لها يونس صلّى الله عليه وسلّم، ولأنه يونس الرّسول المجتبى كان من المسبِّحين باسم ربّه جلّ جلاله مصداقا لقوله تعالى: {فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[43]، أي: أنّ فضل الله على يونس عظيم ومن هذا الفضل الواسع:

. نجاته من الغرق.

. حفظه من لقم الحوت.

. حفظه في بطن الحوت.

. إنقاذه إلى الشاطئ.

. إنبات شجرة اليقطين عليه مظلة تظله وتحميه من الحرارة والبرودة وتحفظه من المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها لولا أن أنبت الله عليه تلك الشجرة المباركة.

والقرآن الكريم يروي لنا قصة يونس صلى الله عليه رواية مرتبة ترتيبا أولا بأول، قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ

[43] الصافات 143، 144.

سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[44].

يونس صلّى الله عليه وسلّم بشكل عام هو رسول مُرسل، أي؛ أنّ يونس لم يكن رسولا بعد اختبارات وابتلاءات كما يظن البعض، بل في أساسه كان مصطفيا للرسالة اجتباءً (فَاجْتَبَاهُ ربّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)، أي؛ أعده إعدادا تاما على الصلاح والطاعة فجعله من الصالحين، ولهذا فإن يونس صلّى الله عليه وسلّم مجعولا للرسالة جعلا وهو من المرسلين الأبرار (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)، ولهذا كانت مهمة الرسالة باصطفائه رسولا من البداية وليس لاحقّة كما يظن البعض، ومع ذلك كانت الآيات مرتبة حسب الأولوية وفقا الآتي:

. ولأنّ يونس مجتبى رسولا فكانت مهمة الرسالة بداية قبل أن يبق إلى الفُلك المشحون (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ).

. ثم بعد أن أبَقَ إلى الفُلك المشحون ساهم مع المشحونين في الفُلك مساهمة متساوية فكان حظه من المدحضين (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) أي كان من المبعدين من ركوب الفُلك بعد ركوبه، وقوله (مِنَ الْمُدْحَضِينَ) أن آخرين كانوا معه مدحوضين ولم يكن لوحده، ولهذا جاءت (مِنَ) البعضية المستثنية لبعض من العقلاء الذين كان على رأسهم يونس صلّى الله عليه وسلّم.

. بعد أن ساهم يونس ودُحض في البحر التقمه الحوت من الماء التقاما، ومع أنَّ الحوت قد التقم يونس إلا أنّه كان خير منقذٍ له من الغرق المؤدي إلى الموت المحقّق لولا التقامه له التقاما (فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)،

[44] الصافات 139 . 148.

ولهذا لم يكن مَلام يونس على نفسه في مكانه وذلك لأنّ التقام الحوت له لم يُعد خطرا عليه بل كان سببا في نجاته من الغرق.

. بعد الالتقام لبث يونس في بطن الحوت وظلمته العتِمة، ولأنّه رسول مجتبى وهو من الصالحين ليس له بدٌّ إلا أن يذكر ربّه طاعةً وتعبدا ولهذا كان مسبحا مصداقا لقوله تعالى: (فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، وكان تسبيح يونس صلّى الله عليه وسلّم تنزيلا من العزيز الحكيم بقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، ولقد كانت الاستجابة والفعل المترتب على التسبيح والدعاء هو استجابة تامة بعد أن سبَّح ودعا يونس ربّه بما هو سرٌّ ومفتاح لإخراجه من الظلمات إلى النور، ومع أنَّ تسبيح يونس جاء محددا في الظلمات إلا أن الظلمات محل اجتهاد فهي ظلمات غير محددة الأماكن ولم تكن ظلمة واحدة، ولذا فنحن نقول:

أينما كانت الظلمة كان يونس مسبحا فيها تسبيحا بقوله (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

. ولأنّ نفس يونس كانت مطمئنة بربّه تعالى فكان يونس من المسبِّحين وهو في بطن الحوت، ولذا، قد كان التسبيح الذي سلَّم فيه يونس أمره لله عزّ وجلّ دون تردد سببا في نجاته، ولهذا نُبِذَ بالقوّة والمشيئة الإلهية من بطن الحوت (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ) أي؛ أخرجه تعالى منها وهو على حالة من الوهن والضعف والحاجة.

. وبعد أن نُبِذَ يونس من بطن الحوت على الشاطئ في العراء وعين الله ترعاه وتحفظه أنبت الله عليه شجرة من يقطين تظله وتحميه وتحفظه تحت رعايته تعالى وحفظه من المخاطر والشرور والأضرار مصداقا لقوله عزّ وجلّ: (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ) هذه هي الأخرى آية عظيمة

أخص الله بها يونس أن أنبت عليه شجرة من يقطين لتحميه وتحفظه من المهالك.

. وبعد كل ما تقدم كان يونس رسولا ليؤدّي رسالته المكلَّف بها في قومه الذين يبلغون المائة ألف أو يزيدون مصداقا لقوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) فكان يونس خير مُرسل لقومه الذين آمنوا على التمام دون نقص من أحد منهم مصداقا لقوله تعالى: (فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

من

صفات النبي يونس

1. رسول:

الرّسول الكريم هو من يصطفيه أو يجتبيه الله تعالى برسالة من عنده لمن يشاء من النّاس كما اجتبى الله جلّ جلاله يونس رسولا لمائة ألف أو يزيدون فأمن جميعهم بيونس ورسالته الكريمة طاعة لله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}45.

إذا أمر التسليم بأنّ يونس رسول هو أمر طاعة، وأنّ عدم معرفتنا برسالته هو الآخر أمر طاعة، وإلا بماذا آمن قومه الذين يبلغون المائة ألف أو يزيدون؟ وكيف آمنوا حتى بلغوا التمتّع إلى حين الذي وصفه الله في القرآن الكريم: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}46.

ولذلك؛ فقوله تعالى: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) يدل على أن حال يونس هو حال رسول لا يختلف عن حال غيره من المرسلين صلى الله عليهم وسلَّم، ولهذا؛ فلا تفريق بين أحد من رُسُله وقالوا سمعنا واطعنا،

---

[45] الصافات 139.

[46] الصافات 147، 148.

مصداقا لقوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحد مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}47، ولأنّ يونس مُجتبى رسولا فليس لمؤمنٍ إلا أنّ يؤمن به رسولا كريما إن أراد نيل الأجر العظيم، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}48.

ولأنّنا نؤمن بجميع الرّسُل فلا نفرّق بين أحد منهم، ولأنّهم رُسُل كرام فهم على الحظ العظيم مهما ابتلوا من ابتلاءات، فيونس رسول مُفضَّل كغيره من الرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلّم، ولذا فمهما كان متعرّضا لابتلاءات من ربّه ألا أنّه رسول مُرسل، ولهذا بدأت الآيات الكريمة المتعلقة بيونس وأمره بأن يونس رسول مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}49.

إذا كانت بداية الآيات المتعلقة بيونس تؤكد على أنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم رسول من المرسلين (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)، وكذلك جاءت مختتمة بأنه رسول مُرسل إلى مائة ألف أو يزيدون (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) أي كل ما تعرَّض له يونس هو رسول مُرسل بداية ونهاية لقومه الذين حُددوا في الآية الكريمة السابقة، ولأنه رسول بداية ونهاية فليس لنا بدا إلا أن نصلي ونسلم عليه صلاة وتسليما تامين كما نصلى

47 البقرة 285.

48 آل عمران 179.

49 الصافات 139 ـ 147.

ونسلم على جميع أنبيائه ورُسُله مصداقا لقوله تعالى: (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحد مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ).

وعليه فإنّ يونس رسول، وله رسالة خالدة مضامينها لا تخرج عمَّا يحتويه الكتاب الحكيم الذي جاء رسالة خاتمة للناس كافة على يد الرّسول المصطفى محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

2 . مُليم:

المليم هو من تمتلئ نفسه لوما على ما فعل أو على ما فعل الآخرون الذين تربّطه بهم علاقات، ولذا فالمليم هو المكثر من اللوم تجاه من يجب اللوم عليهم إذا ما أخطئوا وانحرفوا عن الجادة.

وفي اللغة: "المليم الذي استوجب اللوم، والملوم الذي يلام، ويقال: وهو ملوم يعني: يلوم نفسه"50

وفي اللغة قرئ أيضا: "مَلِيمٌ بفتح الميم من لاَمَ يَلُومُ"51.

وفي هذا السياق قال الشاعر:

وَكَمْ مِنْ مُليمٍ لَمْ يُصَبْ بملامة... ومُشْبَعٍ بالذَّنْبِ لَيْسَ لَهُ ذنْبُ52.

وعليه فالمليم هو كثير اللوم في أوجُهُهِ، ولهذا، لا يكون الاتفاق مع الذين فسَّروا بأن المليم هو المذنب أو السيئ، أو المذموم، أو بما أتى من كفرٍ وعناد، فهذا الأمر كيف يُقبل لأن يوصف به شخص كريم اجتباه الله رسولا كريما كيونس صلّى الله عليه وسلّم؟

ولذا، نحن نقول:

50 بحر العلوم للسمرقندي، ج 3، ص 500.

51 تفسير اللباب لأبن عادل، ج 13، ص 323.

52 المصدر السابق، ج 13، ص 323.

المليم هو كثير اللوم على نفسه إن قصَّر وعلى الآخرين الذين لهم علاقات صلة به إن عصوا وانحرفوا أو ظلموا أو جحدوا وكفروا، ولذلك كان يونس مليما على نفسه وقومه الذين لم يأخذوا بما نهاهم عنه أو حذَّرهم منه، قال تعالى: {فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}[53]، أي أنَّ لوم يونس كان سائدا في نفسه قبل أن يلتقفه الحوت، ولهذا، التقفه الحوت وهو مليم، ويدل هذا المفهوم على أن لوم يونس لم يُبلِّغه لمن هو لائم عليهم، ممّا جعل الحوت يلتقمه ولومه في نفسه لازال مكتوما (فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ).

وعليه: فالمليم هو الحريص على ألا يصمت قولا للحقّ وبما يفيد الملام عليه أو عليهم تقصيرا أو انحرافا أو عتابا، ولذا فاللوم موجب بين النّاس وخاصة المحبّين منهم للحقّ وإحقّاقه.

إذا اللوم لا يكون إلا حيث يكون الحرص بين النّاس سائدا ومفضَّلا، فالإنسان إذا ما وضع ثقته في الآخرين ولم يكونوا هم في مستوى الثقة أو النظرة تجاههم يُخيِّبون الأمل فيهم عند كل حريص عليهم أو عامل من أجلهم أو رسولٍ مرسلٍ لهم كما هو حال يونس وقومه الذين خيبوا ظنه فيهم بداية فلامهم على ما هم عليه من نقيصة وسوء نية وعدم طاعة، ولهذا كان يونس مُليما لقومه على ما هم عليه من عدم طاعة قبل اهتدائهم جميعا حتى بلوغهم التمتُّع إلى حين.

وتوجيه اللوم من المليم إلى الملام عليه هو لأجل العدول عن الانحرافات السلبية أو الكفر أو الشرك بالله تعالى أو الكذب والفجور والفسق والعصيان، ثم التوجُّه إلى كل ما هو موجب ونافع في مرضاة الله تعالى.

---

[53] الصافات 142.

ولهذا لا ذنب في اللوم، بل الذي يلوم عليك هو الحريص على أن تستمر العلاقات معه ولكن بدون ارتكاب مفاسد، ودون سفك دماء في الأرض بغير حقّ أي أن تكون العلاقة بين الجميع في إعمار الأرض وإصلاحها مرضاة لله وطاعة لأمره.

وعليه: فاللوم يجب أن يوجَّه في أوجهه لمن يقول منكرا أو يفعل فاحشة أو يعمل مكروها أو يسلك ما يشين ويفسد الأخلاق والقيم الحميدة والفضائل الكريمة الخيِّرة.

ولذا؛ فمن لا يلوم من يرتكب هذه الانحرافات والمعاصي يُلام عليه من المتَّقين والمفلحين والصدِّيقين والأنبياء والمرسلين وجميع المصلحين في الأرض والصَّالحين فيها، ولهذا كان يونس صلّى الله عليه وسلّم مليما لقومه الذين لم يؤمنوا.

إذا الذي يُلام ليس هو المليم، فالذي يلام هو من يوجَّه اللوم إليه احتجاجا لأجل أن يَعدُلَ عن أقواله أو أعماله أو أفعاله أو سلوكياته غير المحمودة لتنافيها مع القيم الحميدة والفضائل الخيِّرة.

اللوم لا يكون إلا من باب الحرص والمحبَّة والإخلاص مع من يُقدَّم له اللوم حرصا ومحبَّة من أجله، ولهذا فالملام هو من يأتي بما يُلام عليه أمَّا المليم فهو الذي يُقدِّم اللوم لمن يكون عليه حريصا بعد أن تبيَّن له أنه أصبح في مكانة لا تليق به وهو على علاقة قربّى أو صحبة أو دين أو حتى مصلحة ومنافع معه.

وقد يتساءل البعض:

ـ لماذا اللوم؟

نقول:

اللوم لتفطين الآخرين من الغفلة أو الطمع أو الانحراف أو الكفر أو الشرك، ولهذا فاللوم بين النّاس قيمة تؤكد الإخلاص بينهم والحرص كل الحرص.

ومن أجل من يكون اللوم؟

نقول:

اللوم الذي يُنبئ بالمحبَّة والإخلاص في تمتين العلاقات واستمرارها، هو من أجل الآخر الملام عليه وهو الذي تربّطه علاقات بالانا المليمة.

ومن أجل ماذا؟

نقول:

يكون اللوم من أجل التدبُّر والاعتذار والاستغفار والإنهاء والتوبة ليكون القول السليم والفعل الحقّ والعمل الصالح والسلوك القويم.

إذا من هو المليم؟

هو المتحسِّر على ما يبدر منه أو يبدُرَ من الآخرين من أقوال وأعمال لا تليق بمن خُلق في أحسن تقويم ويراد له أن يكون خليفة في الأرض ليُصلح ولا يفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حقّ.

وعليه: لو كان يونس ملاما ما كان اللوم صفة من صفاته الحميدة التي وصفه الله بها (فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) ولأن يونس رسولا مرسلا من الله تعالى فهل يُرسله الله ليكون محلا للوم أللائمين، أم يرسله ليكون قدوة حسنة لمن أُرسل إليهم رسولا؟

3 . مغاضِب:

المغاضبة أفعال مشتركة بين طرفين أو أكثر، لا تؤدّي إلى تحقّيق الانسجام والتوافق ولا حتى التكيُّف، بل تؤدّي في بعض الأحيان إلى النزاع والمقاطعة والخصام والتصادم.

والمغاضبة لا تكون إلا بأسباب، ولأنها مترتِّبة أو ناتجة عن عللٍ وأسبابٍ تتعدد فهي قابلة للمساواة والتصحيح والإصلاح إذا ما توفَّرت النوايا الحسنة وتحقّقت الصحوة من الغفلة وتفهَّم الأنا الآخر واستوعبه عن حُسن نية مع وافر الحرص وصفاء النفس والهداية عن طاعة للحقّ والتزاما باتباعه.

والمغاضِب: هو الغاضِب على الآخرين من أجلهم، فيونس صلّى الله عليه وسلّم كان مغاضبا على قومه لأنهم على أهمية عالية بالنسبة إليه، ولكنهم باستجاباتهم لم يعقلوا مغاضبته ممّا دعاه إلى الذهاب عنهم مغاضبةً لهم لعلَّهم يصحون من الغفلة التي هم فيها ويُرشَدون.

ولذلك نقول:

الغضب نقيض الرضا، ومن الغضب ما هو محبوب ومنه ما هو مذموم فالغضب (من) لم يكن هو الغضب (على) ولهذا، قد يكون الغضب مصحوبا بحرصٍ وقد يكون مصحوبا بكره، وفي كلتا الحالتين يجب أن نميز بين ما يجب تأييده وبين ما يجب الابتعاد عنه.

أ ـ الغضب من:

هو الغضب المترتب على تحديد المواقف من القضايا أو الأشخاص وفقا للقول أو الفعل أو العمل أو السلوك، كالغضب من الظلم، والاستعباد، والاستغلال، وممّارسة أفعال وأعمال الرّبا ونقص الكيل والميزان، وهكذا عندما يختلف طرفان فقد يغضب أحدهما من الآخر،

وعندما يتصالحان قد تنتهي هذه المشاعر ويتصافحان ويستغفران عن كل ما بدر منهما، فعندما يغضب الأب من أحد أبنائه بسبب تقصيرٍ أو إسرافٍ أو تبذيرٍ، فهذا الغضب شخصي ويجب أن يكون.

أمَّا إذا كان غضبه منه على ما يقوم به من أعمال وأفعال خيِّرة فيكون غضب الأب من ابنه سالبا (في غير محله)، ولهذا؛ فالغضب (من) قد يكون سالبا وقد يكون موجبا. وهنا ينبغي أن يميز الأبناء بين طاعة الله وطاعة الوالدين؛ فطاعتهم في مرضاة الله طاعة مُفضَّلة وواجبة، وطاعتهم في معصيته ذنب كبير لا ينبغي أن يُفعل مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا معروفا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}54.

إذا ينبغي أن يكون الغضب (من) من أجل أن تتحقّق الأفعال الحِسان، وهذا الغضب هو الذي يُحقّق لصاحبه الرضا في مرضاة الله تعالى، ولذا لا عيب أن يغضب الأخ من إخوته إذا لم يُقدِّروه على ما يقوم به من أفعال وخيرات حسان، ومن حقّ المواطنين أن يغضبوا إذا حكومتهم لم تعمل من أجلهم وتحقّق لهم مصالحهم ونهضة البلاد والعباد.

وموضوع الغضب (من) يفكرني في قصة لطيفة بعنوان:

(غضب من احولال عينيه فكسر المرآة)

عندما اقتربّ موعد الانتخابات انطلقت مجموعة شهب من الشمس لتمثلها، وبدأت تدور في المجرى الذي اندفعت إليه بقوّة غضب الشمس، حتى أنها تناثرت أمام الطعون التي وجهتها لها الحكومة، وسقطت من

---

54 لقمان 14، 15.

الجولة الأولى، وتحوَّل معظمها إلى هيولات، ولم يبق إلا واحد منها على قيد الحياة المشاهدة متحركا في مجراه، إنه ممثل الحزب الحاكم الذي لازال متوهجا، حتى أنه ظن نفسه بأنه الشمس، وادَّعى ذلك بعد أن تهيأ له ظرف الفوز في الانتخابات بدون منافس، ادَّعى ذلك أمام البعض الذين يخافون حرارته، وطلب منهم أن يقولوا له الحقّيقة دون تزييف أو تلميع لأنه يخاف الله، ففرح الجميع، وسألوه من أنت فقال لهم أنا الشمس التي لا تغيب عن الحياة، حينها نظر البعض إلى البعض الآخر وملأتهم إشارات التعجب بعد أن كان يملؤهم الإعجاب، وحينها عرفوا الحقّيقة. وذات يوم اقتربّت الشمس منه تلهب المشاعر وتُبهر الأبصار، فكان خائفا من نورها الذي تلألأت به عيون الخائفين، فسأله البعض، لماذا أنت خائف أيها الشمس؟ لماذا أنت ترتعد؟ فقال لهم في تلعثم حيث الشمس تسمعه وبصوت خافت، أنا لم أكن الشمس، فقال له الجميع نعم إنك لم تكن الشمس.

من أخبركم؟

أنت.

متى؟

يوم ادعيت بأنك الشمس، وأنت لم تكن كذلك.

ولماذا عندما قلت لكم بأنني الشمس صدقتموني؟

لكي نثبت لك بأنك كاذب. حينها غضب منهم وقال انظروا إلى وجوهكم في المرآة لتظهروا على حقّيقتكم وأنا معكم أقدم نفسي، فوقف الجميع أمام المرآة وهو يتقدمهم ليشاهدوا وجوههم على حقّيقتها، ولأول مرة ينظر إلى وجهه في المرآة، وعندما أمعن النظر شاهد جميع المحيطين به

عيونا حُورا، وشاهد نفسه أحول العينين، فغضب وسألهم عن العلاج، فأجابوه:

العلاج، ألا تغضب من الحقّيقة، فقال لهم إنني أريد العلاج ولا أريد الحقّيقة.

أجابوه جميعهم:

إذا كنت لا تُريد أن ترى الحقّيقة ثانية فعليك بكسر المرآة.

وعليه هذه نتيجة الغضب (من) بغير حقّ، ومن أراد أن يكون بين النّاس ومعهم يجب أن يكون عاملا في مرضاة الله، ومن لا يريد فعليه بكسر المرآة.

ب ـ الغضب على:

الغضب على الشيء أو الآخر هو غضب موجب بالتمام، كما هو غضب يونس صلّى الله عليه وسلّم على قومه من أجل مرضاة الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا}[55]، أي أنّه ذهب من قومه وتركهم مغاضبين ومحرجين ممّا دعاهم إليه وهو الحقّ، ومع أنَّهم يعرفون ما قاله يونس هو الحقّ إلا أنهم لم يستجيبوا لدعائه فذهب عنهم، وذهابه عنهم أغضبهم بما ترك فيهم من حجّة ومع ذلك رفضوا ولم يستجيبوا لدعائه، ولهذا فهم بين أنفسهم كانوا مُحرَجين جدا، وهذا الإحراج كان مغاضبا لهم، وكأنهم يقولون في أنفسهم وفيما بينهم لقد قال يونس الحقّ، ولكننا غير متبعين لما قاله من حقّ، ولهذا شعور الندم لولا المكابرة كان يملأهم تجاه يونس الذي أحرجهم بالحقّائق والآيات العظام التي دعاهم بها

[55] الأنبياء 87.

ودعاهم إليها، فقد خرج منهم دون أن يسفه فيهم أو يقول لهم ما يُغضِبهم بغير حقّ، ممّا جعل ذهابه هو المغاضب لهم، (ذَهَبَ مغاضبا).

إذا (ذَهَبَ مغاضبا)، في مفهومها دلالة على أن ذهابه كان سببا في مغاضبتهم تجاه يونس، أي أن يونس صلّى الله عليه وسلّم لم يكن مغاضبا بل مغاضبا، فلو كان مغاضبا من قبل قومه لكان الحقّ عليه، حيث في مغاضَبتهم إحراج له، ولكونه مغاضبا لهم فهو الذي جعل الإحراج في نفوسهم تجاه ما قاله لهم ودعاهم إليه من حقّ.

ولهذا، قلنا الغضب على الشيء أو الآخرين موجبا، أمَّا الغضب (من) فقد يكون سالبا، فيونس صلّى الله عليه وسلّم لم يكن غاضبا من قومه، بل كان غاضبا عليهم، وهذا الأمر هو الذي أغضبهم (أحرجهم) وجعل الندامة في أنفسهم إلى أن أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين مع يونس دون أن يَكفُر أو يشرك أحدا منهم، مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[56].

وعليه: فالغضب على الأمة عندما تغفل عن مهامها الأخلاقية والإنسانية لا يعد عيبا ولا محظورا لأنه من أجلها، وكذلك الغضب على الأبناء عندما يفشلوا في المهام المكلفين بها أو المناطة بهم لا يعد عيبا، وهكذا غضب المسؤول على الموظفين الذين يشرف على إدارة أعمالهم عندما يُقصِّرون في حُسن أدائها، وغضب الصديق على صديقه عندما يغفل عن تأدية الواجبات والتمسُّك بالقيم والفضائل الحسنة، وقد يغضب جيل بكامله على أمته التي لم ترتقِ به إلى مراتب التقدم العلمي والحضاري والإنساني في مرضاة الله عزّ وجلّ.

---

[56] يونس 98.

والغضب على، قد يكون على أفراد وقد يكون على مواقف أو تصرفات، فإذا توقع الشعب من أمته البناء والإعمار ونماء البلاد وتنمية البشر بما يُفيد وينفع، وسلكت الأمة مسالك لا تؤدّي إلى تحقّيق ذلك يكون غضبه عليها موجبا لأجل أن تصحو من غفلتها وتتخذ المواقف العظيمة وتتحمَّل المسؤوليات الجسام.

ولهذا، دائما يغضب المواطن على بلده وأمته إذا وضعت نفسها في آماكن لا تليق بكبريائها وكرامتها وتاريخها ورسالتها التي بها تُخلَّد.

إذا الغضب على، هو من أجل المغاضِب عليهم، وذلك لأن المغاضِبة عليهم لا تكون إلا من أجلهم ومن أجل مستقبلهم الأفيد والأنفع والأرفع والأكثر تفضيلا.

وعليه: فالغضب من، قد يؤدّي إلى الصراع والفراق والفتنة، أمَّا الغضب على، فلا يؤدّي إلى ذلك بل يؤدّي إلى تصحيح المواقف، والتفطين من الغفلة والانجرار وراء الفتن والمفاسد، ولهذا فمن حقّ الأبناء أن يغضبوا على أسرتهم إذا لم تحافظ على سمعتها وكيانها الديني والأخلاقي وروابطها الاجتماعية الحميدة، وفي مقابل ذلك من حقّهم أن يغضبوا من الذين كانوا سببا في تمييع أخلاقها وانسلاخها من الفضائل الدينية والقيم الحميدة.

ولنا في ذلك قصة بعنوان:

(لعبة الجولف والاختيار المناسب)

حضر جمع من ممّارسي وهواة لعبة الجولف إلى الميدان الذي يمارس فيه الرئيس هذه اللعبة مع أحد المرؤوسين، وعندما أصاب المرؤوس الهدف بتفوق صفق له المتفرجون بحرارة، وصفقوا بحرارة أكثر عندما لعب الرئيس ولم يصب الهدف، ففرح الرئيس برضا المتفرجين عليه مع أنه غاضب على

سوء أدائه، وعندما اقتربّ الرئيس من المتفرجين في أثناء خروجه قال لهم: أشكركم على التشجيع، ولكن لماذا المبالغة في التشجيع وأنا لم أصب الهدف بنجاح؟ فقالوا له: إنّنا أقسمنا لو حقّقت الهدف لن نلعب هذه اللعبة ثانية، وتعد محرمة علينا من تاريخه، ولهذا فرحنا بعدم إصابتك الهدف، فغضب الرئيس منهم، والتفت إلى وزير إعلامه وسأله: وأنت لماذا تصفق يا هذا؟

لقد رأيتك يا سيدي وقد أصبت الهدف بإحدى الكرتين.

أيّة كرتين تعني؟

منذ البداية وأنا أشاهدك تلعب بكرتين، فصاح الجمهور انظر إلى عينيه، أنّه أحول العينين، أحول العينين، فغضب الرئيس من الجمهور وقال: لا وربّي لم يكن أحول العينين، ولكن بعد أن عُين وزيرا للإعلام غضبت عينه اليسرى من عينه اليمنى فحدث بينهما أبغض الحلال عند الله.

وفي صباح الغد الباكر كتبت الصحف تصريحا لوزير الإعلام يقول فيه: فاز الرئيس في مباراة لعبة الجولف بإجمالي عدد نقاط لم يسبق للاعب أن حقّقها، وعندما قرأ الرئيس هذه الصحف فرح وقال: هكذا ينبغي ديمقراطيا أن يُوضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

4 . مُبتلى:

الابتلاء قبول بدفع الثمن في سبيل استمرار الطاعة ومقاطعة المعصية وتحمُّل ما يترتب من أعباء في سبيل استمرار الطاعة والكفر بالكفر والشرك والنفاق.

وابْتَلَيْته تعني: "اخْتَبَرْته وبَلاهُ يَبْلُوه بَلْوا إذا جَرَبّه واخْتَبَره، وابْتَلاه الله امْتَحَنَه"57.

ونحن نقول:

مفهوم الابتلاء غير مفهوم البلاء وإن كان المصدر اللغوي وأحدا، فالابتلاء تمسُّك بالحقّ عن وعي وإرادة ممّا يجعل نتائجه في دائرة الموجب والمفضل والمحمود، إمَّا البلاء عندما يكون في دائرة النسبية السلبية فهو من مجموع المصائب التي ينغمس البعض فيها كفرا أو فسقا أو شركا أو شرا ممّا يجعل نتائجها في دائرة السالب المرفوض والمذموم قيميا وأخلاقيا، قال تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا}58، يُفهم من هذه الآية الكريمة أن الابتلاء غير الإبلاء؛ فالابتلاء هو أعمال وأفعال نتائجها مكللة بالفوز عن إرادة ورغبة ورضا، والإبلاء هو بذل الجُهد وتسخير الإمكانات أحسن التسخيرٍ ممّا يجعل العمل والفعل نِتاج مثابرة واجتهاد، وهذه المثابرة محمودة في الرزق وكسبه والجهاد حتى تحقّيق النصّر والنجاح في تجاوز العقبات إذا ما اعترضت السُبل المؤدية إلى تحقّيق النصّر أو النجاح، وهنا يعود البلاء الحسن إلى ما يبذل من جهد إبلاء، ولا يعود إلى ما يُرتكب من بلاء من أيدي النّاس أو على أيديهم.

والمبتلي: هو الذي يتعرض للامتحانات في دينه أو جسمه أو نفسه أو عقله أو ممتلكاته أو أسرته أو عمله ومع ذلك ينجح في جميع الامتحانات التي يتعرض لها بتفوق وفوز مع فائق الطمأنينة القلبية، وهذا حال جميع الأنبياء الكرام الذين منهم يونس صلى الله عليهم وسلَّم الذي تعرَّض إلى ابتلاءات من صعبة إلى أصعب.

[57] لسان العرب، ج 14، ص 83.

[58] الأنفال 17.

وعليه: فالابتلاء يكون في الخير دون الشر، والبلاء قد يكون في الخير وقد يكون في الشر حفظنا الله من كل شر وألا يُحمّلنا بما لا طاقة لنا به ويعفو عنَّا ويغفر لنا ويرحمنا أنه الرّحمن الرّحيم.

إذا الله جلّ جلاله يبتلي عباده الصالحين ليزدادوا صلاحا وليستمروا عليه وهم به متمسكون دون تردد، إمَّا البلاء في دائرة السلبية فلا يكون إلا من أيدي النّاس، مصداقا لقوله تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}[59]، أي إذا أصابك ما أصابك من الله فهو ابتلاء (خير)، إمَّا ما يصيبك من يداك أو أيدي النّاس فهو البلاء (الشر) ولأنّ البلاء من أيدي النّاس قال تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}[60].

يُفهم من هذه الآية الكريمة أن ما كان يقوم به فرعون من ظلم للناس هو بلاء عليهم (شر) فهو الذي سأمهم سوء العذاب بلاءً، وهو الذي ذبَّح أبناءهم بلاء.

وعليه: فلابتلاء اختبار لمن هم على درجات الرفعة إيمانا خالصا وطاعة لأمر لله تعالى، ولهذا جاء في لغتنا العربيّة معنى ابتليته ابتلاء بمعنى اختبرته اختبارا.

والمبتلى هو المجربّ الذي أثبت صبره على الطاعة والعمل الصالح مع القبول بكل ما يترتب على ذلك من أعباء ومصاعب وامتحانات أو تجريب.

---

[59] النساء 79.

[60] البقرة 49.

ولهذا؛ فالابتلاء لا يكون إلا في الخير، فمن صبر على ابتلاءه فاز وكسب ومن لم يصبر على ابتلاءه انهزم وخسر، قال تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}61.

ولأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم رسول مُجتبى من الله اجتباءً فقد ابتلاه الله بما كانت نتائجه خير كثير فجعله حاصدا لِما زرع من خيرات حِسان، ومن هذه الابتلاءات:

. ابتلاه الله عزّ وجلّ بمعصية قومه الأمر الذي أجتبي له رسولا.

. ابتلي بدحضه من الفلك المشحون مصداقا لقوله تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}62.

. ابتلاه بالتقام الحوت له مصداقا لقوله تعالى: {فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنّه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}63.

. ابتلاه بالنبذ في العراء وهو سقيم مصداقا لقوله تعالى: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ}64.

. كان مُبتليا بضيق أنفاسه في بطن الحوت ممّا جعله مكظوم أي؛ في ظلمة، قال تعالى: {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}65.

---

61 الفجر 15، 16.

62 الصافات 141.

63 الصافات 142 . 144.

64 الصافات 145.

65 القلم 48.

ولقد كُللت ابتلاءات يونس بالسداد والنجاح والفوز العظيم الذي منه:

. اصطفاءه للرسالة، قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}[66].

. التقام الحوت إليه من الغرق كان سببا لنجاته من الغرق، إذ التقمه الحوت التقاما قبل أن يقع في الماء ويغرق، قال تعالى: {فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}[67].

. عدم لبثه في بطن الحوت، قال تعالى: {فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ}[68].

. نعمة الرعاية والعناية بعد أن تم نبذه بالعراء، قال تعالى: {لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ}[69].

. إنبات شجرة اليقطين عليه لتكون له مظلة تُظله، قال تعالى: {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}[70].

. اجتباءه وجعله من الصالحين، قال تعالى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[71].

. إيمان قومه جميعا دون استثناء لواحد منهم مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[72].

---

[66] الصافات 139.

[67] الصافات 142.

[68] الصافات 143 . 145.

[69] القلم 49.

[70] الصافات 146.

[71] القلم 50.

[72] الصافات 147، 148.

5 . آبق:

الآبق هو الفار من معايشة المظالم والظالمين والكفر والكافرين والشرك والمشركين والنفاق والمنافقين والفساد والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ.

والأبق، هو خروج بلا استئذان من أحد، أي خروج دون انتظار مشورة أو أخذ رأي، ولهذا فالذي معه الحقّ وهو طائع له ومحرِّض عليه لا يقبل أن يستشير الذين ليس لهم مع الحقّ وإحقّاقه علاقة اعتراف وتقدير واحترام واعتبار، وهذا هو حال يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي كان رسولا لإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ودمغه، ولذا كان أبق يونس عن قومه عن غير طاعة لهم فيما هم عليه من كفر وشرك وفساد ونفاق ومظالم، ففر منهم وما يعبدون من دون الله من أربّاب ليكون على حاله من المسبِّحين باسم الله وحمده تعالى، ولذلك فقد وُصِف يونس صلّى الله عليه وسلّم بالآبق.

إذا أبق يونس صلّى الله عليه وسلّم كان كفرا بكفر قومه الذين هم على الضلال متخذين من دون الله أربّابا؛ فكان أبقه في مشيئة الله درسا في حياته ليكون من بعده رسولا مُجتبى بعد نجاحه وفوزه في كل ما تعرض له من ابتلاءات من ربّه الذي أعدَّه على الطاعة والصبر وحمْل المسؤولية التي بها تمكَّنَ يونس من استيعاب قومه من أجل هدايتهم للحقّ وسُبل الخيرات الحِسان إعمارا في الأرض وإصلاحا فيها.

وعليه: فالأبق فرار بالقوّة والقدرة والاستعداد والإرادة مع تحمَّل كل ما يترتب على الأبق من أفعال وردود أفعال وإن كان من وراء الأبق مخاطر وصعاب وابتلاءات جِسام، كل ذلك يُقبل أن يواجه لا بالاعتراض

عليه بل مع وافر التصميم على تنفيذه دون تردد وهذا ما فعله يونس رسول الله لقومه الذين يصلون تعدادا لمائة ألف أو يزيدون.

الآبق هو الموصوف بأفعال الأبق التي ذكرناها ولا يقتصر على أبق العبد من ظلم سيده عندما يفر منه عاصيا عن طاعة أوامره التي تُملى عليه بالقوّة وهي في كثير من الأحيان في غير طاعة الله تعالى، كالعبيد الذين يخدمون سادتهم في تناول الخمر وكؤوسه وتهيئة المناخ المناسب لارتكاب الفواحش والمظالم ما ظهر منها وما بطن.

ولذا؛ فالأبق فرار من العيش مع المظالم والظالمين والفساد والمفسدين والكفر والكافرين، أنه الفرار مع سابق الإصرار.

الأبق دائما يسبقه قرار ولا يُنفَّذ إلا بقناعة تامة، والآبق هو الذي يقبل أن يُنفِذ قراره بنفسه ولا يُنفذه له ولا معه آخرين، ولهذا لا يشارك الآبق الآخرين في اتخاذه قرار الأبق ممّا يجعل تنفيذه بالقوّة يؤدّي إلى اختفاء الآبق دون معرفة مكانه من قِبل الذين أبق منهم فرارا.

وعليه: فالآبق هو الفار من أجل النجاة بالنفس أو الرسالة بأسباب متعددة منها:

ـ الكفر.

ـ الشرك.

ـ الظلم.

ـ الفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ.

ـ اتباع المكروه.

ـ معرفة الحقّ وارتكاب الباطل.

. الخوف من التهديد والأفعال المترتبة عليه.

. العبودية بيعا وشراء.

ولذا؛ فالآبق هو الفار من مسببات المعصية، سواء أكانت معصية الله كما هو حال يونس صلّى الله عليه وسلّم أم معصية الأربّاب من دونه عزّ وجلّ كما هو حال العبيد الآبقين من أسيادهم.

والآبق هو مُحرر نفسه من القيود والأطواق التي كانت تُكبِّله وتُقيِّده وتطوِّقه أو تكبِّل وتطوِّق الآخرين الذين تربّطه بهم علاقات فيحُسَّ بِضيق حاله وأحوالهم وهم في غير مرضاة لله تعالى، فعندما ييئس المصلح منهم ليس له بدٌّ إلا أنْ يُكسِّرَ القيود ويحطِّم ما يُطوِّقه ليُفرَّ ناجيا بنفسه أو رسالته ودينه حتى حين كما فعل يونس الذي فرَّ في مشيئة الله تعالى إلى أن اجتباه الله تعالى رسولا كريما لقومه الذين أسلموا جميعهم لله ربّ العالمين، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}73.

الآبق هو الفار من المظالم والمفاسد والكفر والشرك لأجل أن يستمد القوّة الأعظم من القوّة التي هو عليها في زمن الأبق ليعود حرا مصلحا بها مع فائق المقدرة والإرادة، ولهذا أبق يونس صلّى الله عليه وسلّم من قومه وعاد لهم بالقوّة والقدرة رسولا مُجتبى فآمنوا بكاملهم به وبما جاءهم به مرسلا دون استثناء لأحد منهم.

وعليه: بطبيعة الحال من لم يستطع كسر القيد المهدد به تقييدا ليس له بدٌّ إلا يفر قبل أن يقتاد به ظلما، ومن لا يستطيع فك القيود من أيدي النّاس فعليه هو الآخر أن لا يَقدم على ما يُهلكه، وعليه أن يسعى من أجل استمداد القوّة التي تُمكِّنه من فك القيود وإزاحة الظلم والمظالم؛

73 الصافات 147، 148.

وهكذا فعل يونس الذي فرَّ بالقوّة والقدرة والإرادة مع فائق الإدراك والوعي في دائرة النسبية المحدودة في وجهته إلى أن عاد بالقوّة لا بالإرادة، أي عاد يونس صلّى الله عليه وسلّم بالقوّة ملتقما في بطن الحوت ولم يعد بإرادته محمولا فيها، ولو كان اعتماده على الإرادة فإرادته جعلته أن يقبل بأن يكون مساهما مع المساهمين حتى دُحض لولا قدرة الله الذي أمر الحوت ليكون المنقذ له من الغرق ويكون له وكأنه السفينة التي تلقيه إلى اليابسة فكان منتبذا في العراء وهو سقيم مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ}74.

الآبق هو المختفي عن الساحة المتعرَّف عليه فيها دون أن يُعرف يقينا من قبل المحيطين به في تلك الساحة هو إلى أين، ولذا لقد تعرَّض يونس صلّى الله عليه وسلّم إلى الاختفاء مرتين كما جاء في الكتاب الحكيم، هما:

. المرّة الأولى: عندما أبق يونس من قومه، فمع أن قومه يعلمون أن يونس قد ابق واختفى فهم لم يعرفوا اتجاه يونس إلى أين، ولكنهم يعرفوا أنه الفار علانية دون خوفٍ من أحد منهم، ولهذا أبق يونس إلى الفلك المشحون دون تردد، وكان من بعد أبقه إليه منه من المدحضين.

. المرة الثانية: عندما التقم الحوت يونس صلّى الله عليه وسلّم أمام أنظار المشحونين الناجين في الفلك المشحون بدون شك في دائرة النسبية والممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد يظن المشحونين في الفُلك أن يونس انتهى إلى أبد الابدّين وسيكون لا بثا في بطن الحوت إلى يوم يبعثون دون أدنى شك، ولكن مشيئة الله علّام الغيوب جاءت بغير ذلك مصداقا لقوله

74 الصافات 140 . 145.

تعالى: {فَلَوْلَا أنّه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}75، هذه هي مشيئة الخالق جلّ جلاله الذي جعل من التقام الحوت ليونس نجاة له من الغرق مع الغارقين المدحضين، ممّا جعل الالتقام سبب في نجاته من الغرق الذي كان نهاية لمن كان مع يونس من المدحضين، أي أن يونس لم يكن لوحده مدحوضا، بل كان معه آخرين مدحوضين مصداقا لقوله تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}76، ولكن الفارق هو أنّ يونس كان إلى النجاة ملتقَم في بطن الحوت، وغيره إلى الغرق كانوا من المساهمين المدحوضدين.

6 . مُساهِم:

المساهم هو من يشترك فيما يُسَاهَم فيه، ليكون قابلا لكل مترتب على إسهامه سواء أكان المترتب ربْحا أم خسارة، ولهذا المساهم وأن توقَّع أو استهدف وأمل ربْحا أثناء مساهمته في الشيء القابل للمساهمة فيه ألا أنه لا يُغيِّب عن عقله التعرض للخسارة.

وعليه: فالقبول بالمساهمة يستوجب القبول بالأمرين (الرّبح والخسارة) حتى إن كان أحدهما لا يؤمل في دائرة الممكن المتوقّع، ولهذا في مُعظم الأحيان تظهر الخسارة من دائرة الممكن غير المتوقّع ممّا يجعل المحللين والمشخِّصين والمفسِّرين للأحوال والقضايا والمشاكل والمواضيع والمواقف غير مستغربّين وذلك لمعرفتهم بأن كل شيء في دائرة النسبية ممكنا، ولهذا، لم يكن يونس مستغربّا في مساهمته ممّا جعله يقبل المساهمة دون تردد وهو راضيا بما سينتج أو يترتب على مساهمته، قال تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}77، أي كما قَبِلَ يونس بالمساهمة من قَبل كذلك هو كان

---

75 الأنفال 143، 144.

76 الصافات 141.

77 الصافات 141.

قابلا أن يكون من المدحضين، فدُحِضَ إلى مياه البحر وأعماقه لولا أن التقمه الحوت قبل أن يسقط في أعماق البحار مع المدحوضين المغرقين، قال تعالى: {فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[78]، ولأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم كان قابلا وراضيا بما وصلت إليه نتيجة المساهمة التي كان فيها من المساهمين فلا داعي لأن يُسقط من قِبل الآخرين بل عليه أن يقفز بنفسه من الفلك المشحون إلى المياه المتلاطمة الثائرة بالأمواج، ولهذا عندما همَّ يونس ليقفز كان الحوت على السرعة المتزامنة للقمه قبل أن يقع في المياه في أعماق البحر.

إذا المساهمة لا تكون إلا عن إرادة حرة ممّا يجعل المترتب عليها لا يُرفض من قبل المساهمين أي كل المترتب على المساهمة يستوجب القبول مع فائق التقدير والاعتراف.

والمساهمة قد تكون بالنفس والمال وقد تكون بأحدهما وقد تكون بما يُمتلك عينيا، وفي كل الحالات هناك مترتب منتظر في دائرة الممكن الموجب والسالب، فإن تحقّق الموجب كان الرضا، وإن تحقّق السالب كان الندم واللوم على النفس التي قبلت بالمساهمة، ومع ذلك لابدّ وان يكون القبول هو السائد بين المساهمين وعليهم بالعمل الذي من شأنه أن يُصلح ما أفسدته المساهمة إن استطاعوا، وإن لم يستطيعوا لا عليهم إلا بالقبول والامتثال للأمر الواقع وهم مستغفرين الله ربّ العالمين حتى يتوب عليهم ويخرجهم ممّا تضيق به أنفسهم إلى الآمال العظيمة طاعة في مرضاته تعالى.

والمساهِم إن ساهم مع الآخرين فيما يشاءون ويشاء يكون له نصيب معهم بمقدار المساهمة، وهذا النصّيب يجعل له حقّوق معهم، وله واجبات

---

[78] الصافات 142 . 144.

يجب ألا يتأخر عن تأديتها كلما طُلبت منه، ولذلك يترتب على المساهمة أمرين:

. حقّ يؤخذ، ويطالب به.

. واجب يؤدّى، ويلتزم به أو يُلزم عليه.

وهناك من يرى أن المساهمة هي اقتراع فمن قَبِل بها قَبِل بإجراء القرعة أو الاقتراع، ومع أنَّ الفرق كبير بين المفاهيم الثلاثة إلا أنها ذات علاقة من حيث المعنى الذي يؤكد على ما تدل عليه الكلمة وهذا في كثير من الأحيان لا يتطابق مع المفهوم الذي هو وراء كل منها ممّا جعل لكل مفهوم دلالة وخصوصية، ولذلك من حيث المفهوم نقول:

المساهمة: أن يشترك المشترك بجهده أو ماله أو جزء منه أو جزء ممّا يمتلك لتكون له حصة مع المتحاصّين بالمساهمة المتفق عليها مسبقا، ولهذا فالمساهمة لا تكون إلا على الاستطاعة وحسب الرغبة وبكل إرادة دون أي إجبار، وتكون نتيجة المساهمة مؤدية إلى التسليم وقبول الأمر الواقع؛ وبذلك تكون المساهمة مادية (النفس المال الملك) وفي هذا الأمر يكون حالها كحال الجهاد في سبيل الله بما تستطيع أن تجاهد ساهم جهادا تنال خيرا كثير، وحالها كحال يونس صلّى الله عليه وسلّم إما الفوز وإما الغرق، ولكن حسابات الله حسابات علَّام الغيوب تختلف فيونس الذي قَبِلَ أن يكون من المدحضين في البحر وكان حقّيقة ماثلة أمام أبصار المشحونين في الفُلك أن يونس مُلتقم في فم الحوت وظنوا أنه قد لبث في بطنه إلى يوم يبعثون، ولكن علَّام الغيوب أنقذه من الغرق بما سخَّر له من حوت لينقذه ويلقيه إلى الشاطئ آية كبرى من آيات الله العظيمة.

المقارعة: في المفهوم الدلالي للمقارعة ما يشير إلى وجود تحدٍ بين المتقارعين، ممّا يجعل للحجّة أهميّةِ في الإثبات أو الدحض والنفي، ولذا

يكون في مفهوم المقارعة ما يؤدّي إلى المغالبة، ولا يكون الحظ مرتبطا بها ارتباطا، ونتيجتها لا تؤدّي إلى التسليم بقدر ما تؤدّي إلى المواجهة، وقد تكون المقارعة كلامية (حجّة بحجّة) وقد تكون (قوّة بقوّة) مع تعدد الأساليب والوسائل الممكِنة والممكّنة من المغالبة.

القرعة: القبول بالمشاركة دون أن تكون هناك ضرورة لِما يُمكن أن يُدفع مُسبقا أو يمكن أن يساهم به، كما هو حال الذين أجروا القرعة على من يكفل مريم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أيهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}79، وكذلك كأن تُجرى القرعة بين البعض لأجل فرز من تُعطى له الفرصة لقضاء فريضة الحج، وهذه القرعة لا تستوجب جهدا يُبذل في سبيلها فقط تتطلب أن يتقدم المتقدِم كغيره من المتقدمين رغبة منهم لأداء فريضة الحج. وفي مُعظم الأحيان يرتبط الحظ مع الذين تكون القرعة من صالحهم أو أنّهم فازا بها فوزا محظوظا، ومع ذلك وإن ارتبط الحظ مع القرعة إلا أنّه لا يقتصر عليها فكثير من الأعمال تكون نتائجها للصابرين ولأصحاب الحظ العظيم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}80، ونتيجة لأن الأعمال بالنيات فإن الفوز بما هو عظيم لا يتحقّق إلا مع الذين لهم صفاء النية وطاعة النفس مخافة من الله لا مخافة من غيره، ولهذا بشّر الله الصابرين أصحاب النوايا الخيّرة والأعمال الصادقة بان لهم من ربّهم رحمة، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}81.

---

[79] آل عمران 44.

[80] فصلت 35.

[81] البقرة 155 . 157.

ومع أنَّ للمساهمة تداعيات الوقوع في الخسارة مثل تداعيات الفوز والكسب وكل ما من شأنه أن يحقّق أربّاحا للمساهمين، إلا أنّ البعض إنْ تعرض إلى الخسارة أصبحت وجوههم ساهمة عبوسة، وكأنهم لم يعرفوا حسابات المساهمة (ربّح وخسارة).

وفي مثل هذه الأحوال قال عنترة:

والخَيْلُ ساهِمةُ الوُجوهِ كأنّما... تُسْقَى فوارسُها نَقيعَ الحنظلِ"82.

والسُّهُوم في اللغة هو: "عبوسُ الوجْهِ من الهمّ، ويُقالُ للفَرس إذا حُمِل على كريهةِ الجَرْيِ: ساهِم الوَجْه. وكذلك الرّجل في الحربّ ساهم الوجه"83.

7 . مُسبّح:

التسبيح ذكر اعترافي ويقيني مع فائق الطاعة التامة لله تعالى، والتسبيح قد يكون لفظي مع وافر النية كما هو حال المسلمين الذين اسلموا وجوههم طائعين لله ربّ العالمين، وقد يكون التسبيح ذاتيا كما هو حال الجبال التي لم نسمع لها صوتا وهذا لا يعني أننا متيقنين أنه لا أصوات لها، ولكننا نقول بما أنها المسبِّحة فهي الذاكرة ذاتا أي أنها المخلوقة على التسبيح له وحده جلّ جلاله، قال تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}84، أي؛ أنّ الجبال المسَّخرة مع داوود صلّى الله عليه وسلّم مسبِّحة لله تعالى بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وكذلك الطير يؤوبن (يسبِّحن) لله مثلما الجبال تسبِّحهُ له عزّ وجلّ.

---

[82] العين، ج 1، ص 261.

[83] العين، ج 1، ص 261.

[84] ص 18، 19.

ولذلك؛ فالجبال التي تُسبّح الله جلّ جلاله هي المسبِّحة ذاتيا له وباسمه العظيم فهي لا تغفل عن ذكره أبدا كما يغفل الغافلون من الذين خلقهم في أحسن تقويم إلا الطائعين بالمطلق فهم الذين يذكرونه كثيرا قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيات لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ربّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سبحانكَ فَقِنَا عَذَابَ النّار ربّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ربّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمان أَنْ آمِنُوا بِربّكُمْ فَآَمَنَّا ربّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ربّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامة إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ ربّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}[85].

يُفهم من هذه الآيات الكريمة أن التسبيح هو ذكر لله تعالى، وتأمل في خلقه، وتسليم له بالمطلق، وإعلان مستمر لطاعته، وتضرع له بالدعاء، وطلب مغفرة وتكفير سيئات وتوبة، ولهذا فالمسبِّح هو المتصل بالله عبادة قولية وفعلية وذاتية مع وافر النية المخلصة.

والمسبّح لله لا يكون مُسبحا إلا به أو بحمده وشكره وتعظيمه وأسماء صفاته الحسنى، ولذلك فالتسبيح تنزيه لله عن الحاجة والتعدد والصاحبة والولد، والشبيه، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أحد اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أحد}[86]، ولأنّه كذلك فالمسبّح يلتجئ أوابا إلى الله الواحد الأحد وهو على يقين أن الأمر كل الأمر بيده فلا شريك له،

---

[85] آل عمران 190 . 195.

[86] الإخلاص 1 . 4.

فهو إن أراد شيئا يقول له كن فيكون مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}87.

وعليه: لا تسبيح إلا للسميع العليم المجيب القوي القدير العزيز الجبَّار القهَّار مالك الملك جلّ جلاله وكل أسمائه الحسنى تعالى.

إذا المسبِّح هو كثير الذكر لله بصفاته وأفعاله وهو الحامد الشاكر له على خَلقه ورزقه وعطائه وواسع فضله ورحمته المخرج من كل ضيق كما أخرج يونس صلّى الله عليه وسلّم من الضيق وهو في الظلمات التي منها ظلمة اللقم وظلمة بطن الحوت، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}88.

وعليه: فالتسبيح قد يكون ذاتيا كتسبيح الجبال، وقد يكون نية صافية مع الله تعالى، وقد يكون نداء بصوت يُسمع من قبل المخلوق فما بالك بالخالق جلّ جلاله (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ).

وكانت المناداة التسبيحية ليونس صلّى الله عليه وسلّم بقوله كما جاء في القرآن الكريم: (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) أي برغم الضيق والظلمات التي مر بها يونس بالقوّة لا بالإرادة كان مسبحا أي عابدا ومتضرعا لله وحده، فكانت الاستجابة لمناداته من المجيب المطلق جلّ جلاله (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) ممّا جعل نجاة يونس مترتبة على استجابة من التجأ إليه يونس بالمناداة وهو الله

---

[87] النحل 40.

[88] الأنبياء 87، 88.

عزّ وجلّ. فكانت نجاة يونس من الغم الذي كان فيه ملتقما في بطن الحوت.

وعليه: كلما كان المخلوق متصلا بالخالق سرا وعلانية كان المخلوق من المحظوظين الذين يستجاب لهم كلما نادوا ربّهم جلّ جلاله، فإذا مرض الإنسان ليس له بدٌّ إلا الشافي الذي بيد الشفاء، كما جاء في سورة إبراهيم الذي قال: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[89]، ولذا؛ فإنّ كل تضرُّع ومناداة لله عن إيمان تام وطاعة تامة هو تسبيح يستجيب له الله تعالى الذي خلق فيهدي والذي يُطعم ويسقي مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ربّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[90].

إذا التسبيح استجابة تترتب عليه استجابة، استجابة من العبد بطاعة المعبود والإخلاص إليه، تترتب عليها استجابة المعبود للعبد إذا ما سبَّحه وناداه متضرعا له بطاعته وتعبده ومطالبه وإن تعددت وكثرت فهو وحده السميع العليم المجيب الذي بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير، ولأنّه على كل شيء قدير فلا استغراب، بل الاستغراب من الذين يستغربّون.

التسبيح علامة من علامات الطاعة لأمر الله الذي أمر بالتسبيح وهو عبادة لله عزّ وجلّ، فهو الذي قال: {سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى}[91]، أي هو الذي أمر بذلك، ولأنّه أمر بذلك فليس للمؤمن إلا أن يطيع أمره تعالى، وإلا سيكون من العاصين، ولهذا فقوله (سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى)

---

[89] الشعراء 80.

[90] الشعراء 78 ـ 83.

[91] الأعلى 1.

تتطلب مسبح باسمه تعالى، ولهذا فعندما يقال للخليفة سبح اسم ربّك الأعلى، ليس له بدٌّ إلا يقول: (سبحان الله)، فالله هو الرّب الأعلى، ولا ربّ سواه، ولذا فسبّح اسم ربّك الأعلى، حدده يقينا وأذكره وأحدا أحدا.

وعليه: كان الأمر بتسبيحه تعالى، ممّا يستوجب على المسبِّح به أن يقول: (سبحان الله) وذلك لأنّه لا ربّ أعلى غيره، وهكذا يكون التتابع واليقين في التسبيح باسمه تعالى.

وعودا على سورة الأعلى، نلاحظ أمر التوكيد على اسمه الأعلى، (الله جلّ جلاله وهو الاسم الأعظم) فسبحان الله دائما أبدا.

إذن، استجابة للأمر المطلق، (سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى) يتطلب التسبيح باسمه جلّ جلاله.

وهكذا قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) يستوجب التسبيح باسمه، فالذي خلق فسوى تستوجب اعتراف المؤمن بقدرته على الخلق والتسوية وهي المعجزة الكبرى، وهذه المعجزة الكبرى تستوقف الخليفة المؤمن ممّا يجعله في حالة تأمل ويقين بقوله سبحان الله، ولهذا قوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى) يستوجب التسبيح باسمه (الله) وهكذا قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) يستوجب التسبيح باسمه تعالى (الله).

وكذلك قوله تعالى: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) فالذي قدّر وهدى هو الله، وهو الرّب الأعلى للخليفة، الذي يستوجب ذكره والتسبيح باسمه جلّ جلاله، ولأن الذي قدَّر فهدى هو (الله) فسبحانه كيف قدَّر وكيف هدى، أي من تأمل في خلقه وهدايته لِما خلق ليس له بدٌّ إلا أن يقول سبحان الله على ما قدّر وهدى.

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى)، هو الله لا إله غيره، ولهذا سبحان الله الذي أخرج المرعى، أي؛ سبحانه الذي خلق النبات نعمة واسعة منه ليكون

للحياة معنى وللطبيعة كسوة من البهاء والجمال، فسبحانه على ما خلق وسبحانه على ما أخرج ممّا خلق، ولذا؛ فالذي أخرج المرعى هو الله الذي يستوجب التسبيح باسمه جلّ جلاله، ولهذا كيف أخرج المرعى معجزة تستوقف المؤمن لأن يذكره بقوله: (سبحان الله).

ومع ذلك ليس الغاية من قوله (سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى)، هو أن يذكر المسبِّح الله تعالى ويمجده فقط، ولكن الغاية هي التمكُّن من إدراك المعجزات العظام والصفات الحسنى والوقوف عندها والتأمل في جلالها وعظمتها من أجل توصيل دلائل كل معجزة من المعجزات إلى الآخر المستهدف بالتبشير والهداية.

وقوله تعالى: (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) أي من الذي غيَّر حال الاخضرار في المرعى وجعله يبسا جافا؟ وكيف غيره؟ هذه معجزة أخرى تستوجب من المؤمن التوقف ليدرك أنه الله جل جلاه القادر على كل شيء، ممّا يجعل حال لسانه وقلبه معا على القول: (سبحان الله) وهو التسبيح باسمه عزّ وجلّ وأحدا أحدا، ولا ربّ أعلى منه.

وقوله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)، الآية موجهة لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، الذي اقرأه الله فلم ينس شيئا ممّا أقرأه جلّ جلاله، ونظرا للكثرة الكثيرة لما تم استقراء محمّد صلّى الله عليه وسلّم به، فلم ينس شيئا منه، إلا الذي لا يريده الله له، فسبحان الله على ما أراده الله، وسبحان الله على مقدرة محمّد صلّى الله عليه وسلّم على عدم النسيان، ولذلك فالمتأمل والمستقرئ لما أقرأ الله تعالى به محمّدا صلّى الله عليه وسلّم، يجد نفسه أمام معجزة تغالبه بالحقّ ممّا يجعله على ذكر ربّه (الله) بقوله: (سبحان الله).

قال تعالى: (أنّه يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) أي أنّ ربّك الأعلى الذي تسبِّحه يا محمّد باسمه الأعلى هو (الله) الذي تدركه يقينا، وهو الذي خلق فسوى، ولذا فكان التسبيح تكرارا لاسمه الأعلى (الله)، وهكذا الخليفة عندما يقرأ قوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى) يقول: (سبحان الله) وعندما يقرأ قوله: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) يقول أيضا: (سبحان الله) وهكذا يستمر التسبيح باسمه كلما قرأ آية من آياته العظام في سورة الأعلى، ولهذا، يكون التسبيح وفقا للآتي:

(سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى).

سبحان الله. أي؛ سبحان الله الذي لا إله إلا هو ولا أعلى غيره.

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى).

سبحان الله. أي؛ سبحان الله على ما خلق وسوى.

(والذي قدَّر فهدى).

سبحان الله. أي؛ سبحان الله على ما قدَّر وهدى.

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى).

سبحان الله. أي؛ سبحان الله على إخراجه للمرعى.

(فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى).

سبحان الله. الذي جعل الأخضر يابسا.

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ).

سبحان الله.

(أنّه يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى).

سبحان الله.

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى).

سبحان الله.

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى).

سبحان الله.

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى).

سبحان الله.

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى).

سبحان الله.

(الَّذِي يَصْلَى النّار الْكُبْرَى).

سبحان الله.

(ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى).

سبحان الله.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تزَكَّى).

سبحان الله.

(وَذَكَرَ اسم ربّهِ فَصَلَّى).

سبحان الله.

(بلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).

سبحان الله.

(وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

سبحان الله.

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى).

سبحان الله.

(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى).

سبحان الله.

وعليه: فسبحان الله، تسبيح باسمه الأعلى، واعتراف بمعجزاته الكبرى التي عُدِّدت في سورة (الأعلى) وهي تستوجب التسبيح طاعة لأمر الله تعالى.

ومع ذلك فمن يسبحه كما يسبح أثناء السجود بالقول: (سبحان ربّي الأعلى) فهذا لا يخرج عن كونه أن الرّب الأعلى هو الله جلّ جلاله، فسبحان الله ربّي الأعلى.

وفي مقابل ذلك نزل قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسم ربّكَ الْعَظِيمِ}[92]، ثلاث مرات، مرتين في سورة الواقعة، ومرة في سورة الحاقة، ولذا؛ فسبِّح اسم ربّك الأعلى، تعني: اذكره كثيرا، أي اذكر اسمه كما سمى نفسه، {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصّلاة لِذِكْرِي}[93]، أمَّا قوله: (فَسَبِّحْ بِاسم ربّكَ الْعَظِيمِ) تستوجب التسبيح بالقول: (سبحان الله العظيم). ولهذا سبَّح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم به في كل ركوع، ومتى ما أدرك

[92] الواقعة 74.

[93] طه، 14.

التسبيح به عزّ وجلّ كان مسبِّحا، وهكذا يُسبِّح به المستخلفون فيها في كل ركعة يركعونها ومتى ما يشاءون اتصالا به دون وسطاء، ولهذا فالتسبيح باسم الرّب العظيم هو تسبيح بالله العظيم جلّ جلاله.

وعليه نقول:

التسبيح طاعة وعبادة لله تعالى، وهو لم يكن بالتمام كالصّلاة، فالتسبيح يتمركز على:

. النية الصافية والنفس العاشقة الطائعة لربّها الذي خلقها فسوَّها فعدلها وكيفما شاء ركَّبها مصداقا لقوله تعالى: {يَا أيها الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِربّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أي صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}94.

. مناداة المؤمن ربّه تعالى يقينا راسخا أنه السميع المجيب، يُعد تسبيحا مرتبطا باستجابته جلّ جلاله دون تأخير، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ أنهمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}95.

. التسبيح سرا في الصدور مع أنّه غير قابل للمشاهدة من المشاهدين إلا أنّه المسموع لدى السميع المجيب عزّ وجلّ، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

94 الانفطار 6 . 8.

95 الأنبياء 87 . 90.

الصُّدُورِ}96، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ أنه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}97.

أمَّا الصّلاة فهي تعتمد على:

. النية التي تكمُن في القلوب:

{فَأَنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}98.

. التهيؤ وعيا وانتباها:

قال تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}99

. الاستعداد طهارة ووضوء:

قال تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأيدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أحد مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأيدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}100

---

[96] التغابن 4.

[97] الملك 12 . 14.

[98] الحج 46.

[99] البقرة 144.

[100] المائدة 6.

. السلوك (ركوعا وسجودا):

قال تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}[101].

قال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}[102]، هذه الآية تعود على يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي يؤكد بأنه مُسبّح لله تعالى: وقوله (نحن) على احتمال تعظيمه لله يستوجب قوله (نحن) التي تدل على اللسان الجمعي أي أنه أحد المسبِّحين والذاكرين، ولأنه لم يكن لوحده مسبِّحا وهو يعلم بأن غيره الكثير الذي لا يُحصى ولا يعد يسبح لله تعالى فلهذا قال (نحن) المسبحون ممّا جعل التسبيح يعود على يونس ولا يعود على غيره من غير نوعه.

8 . ظِان:

الظن تخمين عقلي وفقا لافتراضات أو تساؤلات غير موضوعية في كثيرٍ من الأحوال، ولذا، قد يكون الظن في محله حقّيقة وقد لا يكون، بل قد يكون الظن في كثير من الأحوال نوع من أنواع الظلم، ولهذا لا ينبغي إصدار الأحكام بالظنون فهي في معظمها لا يقينية، ممّا يجعل الإثم مترتبا رئيسا على مترتباتها، ولهذا كل الصادقين والصدِّيقين والصالحين والمصلحين هم مجتنبون للظن خوفا وتجنبا للوقوع في أفعال الإثم التي لا تُرضي الخالق جلّ جلاله.

إذا الظن على احتمالات منها:

---

[101] الفتح 29.

[102] الصافات 166.

ـ أن يكون الظن في محله معنى ودلالة، فيكون على اليقين إثباتا سواء أكان بالحجّة أم بالبرهان أم بالفعل أم بالسلوك، فعندما يكون المترتب حقّيقة على ما كان ظنا يصبح ذلك الظن يقينا ثابتا أمام الملاحظة والمشاهدة والتفكُّر والتذكُّر والتدبُّر.

ـ أن لا يكون في محله دلالة يقينية، وفي هذا الظن إثمُ كبير، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}103، وفي الظن الذي لا يقين فيه قال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يقينا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}104.

وعليه: فإن ظن يونس يحتاج إلى بيان، فهو في اعتقادنا ظن موجب، وهذا أمر لم يقل به أحد فقد أشارت التفاسير إلى غير ذلك من قريب أو بعيد، لذلك فإن الأمر يحتاج إلى تحليل دقيق.

ونبدأ من حيث يجب أن نبدأ وهو قوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) هذه الآية هي المرتكز الذي تقوم عليه فكرة الظن الموجب.

ونريد قبل إقرار الفكرة أن نذكّر بحقّيقة لازمة هنا مفادها من المحال أن يكون في ظن يونس تحدٍ لله عزّ وجلّ، فهو من المصطفين المجتبين والأنبياء الرّسُل، ولا شك أن الله لا يصطفي ولا يجتبي ولا يكلف بالنبوّة أو الرسالة من يظن أن يمكن له أن يتحدى الله عزّ وجلّ.

إذا جملة (نَقْدِرَ عَلَيْهِ)، ليس المقصود فيها يونس إنسانا جسدا لأنه محال بحقّ الله القادر جلّ جلاله، ومحال بحقّ يونس صلّى الله عليه وسلّم،

---

103 الحجرات 12.

104 النساء 157، 158.

عليه يجب أن يكون نقدر عليه، لغير الإنسان الجسد، وهو على وجه التحدي فعله (ذهب مغاضبا)، فنقدر عليه تعود على فعل يونس، وهو فعل موجب لانّ يونس غضب على قومه لأنهم تأخروا في إعلان إيمانهم فغضب غضبة حقّ لله، فهو فعل موجب، وبعد الغضب حصل تقدير من يونس هو الظن المتعلق بالذهاب، فقد ظن يونس ضنا يقينا أنّ العذاب واقع لا محالة بقومه إن لم يؤمنوا وهذا ظن يقين بالنسبة ليونس، وقدَّر أنّه بذهابه عنهم سينجو من العذاب، ولكن الله أراد أن يبيِّن ليونس تفهيما وتعليما لا عقابا بأن المنجي هو الله وليس الظن بالذهاب فكان الحوت لتحقّيق هذه الإرادة الإلهية التي تحقّقت بفهم يونس فكانت من المسبِّحين ولو لم يسبِّح لبقي الظن بالذهاب وبقي يونس في بطن الحوت ولكن التسبيح هو إقرار بالتسليم أن المنجي هو الله عزّ وجلّ وليس تقدير ظني بالذهاب عن العذاب.

والظِان الذي يود أن يكون ظنه في محله هو من يدور في خاطره ما يدور من أمر مشكوك فيه ممّا يجعله في حاجة لأن يتبيَّن قبل أن يصدر حكما نهائيا فيما يظن من ظنون، ولذا، كان ذا النون صلّى الله عليه وسلّم مغاضبا على قومه الذين لم ينتهوا عما كانوا فيه من ضلال فهم يعبدون من دون الله أربّابا، ممّا جعل ذهابه منهم مغاضبا عليهم دون تردد في مقاطعتهم وهو يفكِّر يقينا أنّهم لن يقدروا عليه بأسباب اتباعه للحقّ وإتباعهم للباطل، ولهذا كان ظن يونس في تحليلنا لمفاهيم خروجه مغاضبا وهو ظان أن لن يقدر عليه على احتمالات منها:

الاحتمال الأوّل:

في قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) تشير هذه الآية الكريمة أن يونس كان مغاضبا على قومه أي؛ أنّه غاضب عليهم فخرج منهم وهو في حالة غضب ثم أنّه كان على غير أمل أن يتركوا

ما يعبدون من دون الله من أربّاب، فكان ظنَّه أنهم سيظلون على شركهم إلى النهاية، ولهذا خرج منهم يأس، ممّا جعل المأخذ على ظنه الذي لم يكن في محله مأخوذ عليه؛ فالمؤمن لا ييئس ولا يقنط من رحمة الله فما بالك بالرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، قال تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}105، وهذا لا يعني أنّ يونس قد ضل (استغفر الله) ولكنه يعني إذا كان القنوط لا يُقبل من غير الأنبياء فكيف أنْ يُقبل من يونس الرّسول الكريم الذي سعى لأن يهدي للتي هي أحسن طاعة لأمر الله الذي هيئه أولا لمهمة الرسالة ثم اجتباه رسولا لها؟

وبالعودة إلى مراجعة الآية الكريمة (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يتضح مفهوم غضب يونس على قومه وظنِه أن لن يُقدر عليه على اعتبارات منها:

ـ إن يونس كان يظن أنّ غضبه على قومه لن ينتهي، وذلك لاستمرار مسببات غضبه عليهم.

ـ أنّ يونس قد ظن أن قومه الذين خرج منهم مغاضبا لن يؤمنوا معه أبدا.

وبالرغم من وجود هذين الاعتبارين إلا أن النتيجة كانت على عكس ما كان يظن يونس في غضبه على قومه، حيث كانت النتيجة هي وفقا للآتي:

أ ـ لقد انتهي غضب يونس الذي كان يظن أنه لن ينتهي أو يزول عنه بمجرد دخوله الظلمات التي بمروره في ظلماتها قد نسي كل شيء إلا ذكر ربّه الذي ناداه مُسبِّحا وهو في الظلمات تسبيحا جليلا وعظيما، (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ

---

[105] الحجر 56.

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، ولهذا لو لم يكن يونس صلّى الله عليه وسلّم من المسبّحين لبقي لابثا في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون مصداقا لقوله تعالى: (فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

ب . إنَّ قوم يونس الذين ظن أنهم لن يتركوا ما يعبدون من دون الله من أربّابٍ كان ظنه في غير مكانه فهم جميعا قد أسلموا بقدرة الله تعالى دون أُستثناء، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[106].

وبمقارنة ظن يونس ويأسه من إيمان قومه معه نجد أنّ إيمان قومه بقدرة القادر المطلق كان ميسرا ودون استثناء لأحد منهم، ولذا؛ فهم أصبحوا على التوحيد والطاعة على يدي يونس الذي كان يظن أنّهم لن يتركوا الشرك والكفر ويؤمنوا بالله العزيز الجبّار.

وعليه: فقوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) كان ظنا في غير مكانه ولا ينبغي أن يكون من رسول لا يقنط من رحمة الله تعالى، ولكن للغفلة أسباب ولعدم الكمال أسباب وللابتلاءات أسباب وللامتحانات أسباب ولكل ما تعرَّض له يونس من أسبابٍ أسباب، وكلها كانت في مشيئة الله وقدرته المطلقة فهو الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون مصداقا لقوله

[106] الصافات 39 . 48.

تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسبحان الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}107.

الاحتمال الثاني:

لأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم كان على يقين أن ما قام به هو لا يخالف ما يشاءه الله فأَقدم على ما قدِم عليه مغاضبا دون أن يحسب لِما حدث معه حساب، ولهذا كان ظنُّه أنّ ربّه تعالى لن يحكم عليه وهو مغاضبا من أجل توحيده وعدم الشرك به تعالى فخرج مغاضبا وفي نفسه ظن أنَّ ما قَدِمَ عليه هو الحقّ (عين الصواب) ولم يعتقد (يظن) أنّه سيكون في مخالفة مع ما يشاءه الله، ولكن النتيجة كانت مخالفة لظن يونس الذي كان في اعتقاده أن الله لن يحكم عليه بما حكم به عليه، وهكذا يكون الاتفاق مع ما جاء في تفسير ابن عبد السلام لقوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)"ظن أن لن نحكم عليه بما حكمنا"108.

الاحتمال الثالث:

لأنّ يونس مؤمن بربّه بالمطلق فهو يظن في نفسه يقينا أن ربّه لن يخذُله وهكذا كان ربّه خير حافظ له وإن تعرض إلى ما تعرض إليه من ابتلاءات وامتحانات، فبعد أن ذهب من قومه مغاضبا وتعرَّض لِما تعرض إليه في الظلمات من التقام وضيق، فلم يكن (يظن) أن يتعرض إلى ما تعرض له من ضيق، ولهذا فقد ظنَّ أن لن يُضيِّقَ الله عليه في شيء بعد خروجه من قومه مغاضبا، (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) بمعنى "لن نضيِّق عليه"109.

107 يس 81 . 83.

108 تفسير ابن عبد السلام، ج 4، ص 34.

109 تفسير الرازي، ج 11، ص 65.

أي؛ أنّه لم يظن أنّه سيكون في ضيق في بطن الحوت، وعندما وجد نفسه في ذلك الضيق المظلم في بطن الحوت نسي كل شيء إلا ذكر ربّه الذي حفظه من كل ضيق ومن كل ظلمة وغمة فكان من المسبِّحين مصداقا لقوله تعالى: (فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) وكان تسبيحه في الضيق في بطن الحوت بتوحيد الله كما كان يوحده بقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، وبهذا التسبيح العظيم كانت الاستجابة لنداء يونس ونجاته من الغم الذي غُمَّ عليه وهو في الظلمات والضيق الشديد، (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ). ولأن يونس لا ملجئ له إلا إلى القادر وحده فالتجأ إليه دون انقطاع من التسبيح في كل الظلمات وهكذا القادر وحده هو الذي يُنجي المؤمنين الذين أسلموا وجوههم إليه وحده وأحدا أحدا سبحانه فله الحمد.

الاحتمال الرابع:

هو احتمال استفهامي يقيني فمع أن يونس قد ذهب مغاضبا إلا أنّه يعلم أنّ الله على كل شيء قدير ولهذا لقد ذهب وفي نفسه علامة استفهام (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) بمعنى (ألا يقدر ربّي عليَّ وهو على كل شيء قدير!) أي سأترك هذا الأمر لله وهو القادر على إزاحة الغضب عن نفسي وهو الذي يعلم بما يواجهني من صعاب مع قومي الذين يتخذون من دونه تعالى أربّابا، وفي هذا المعنى قال ابن زيد كما جاء في تفسير البغوي: "هو استفهام معناه: أفظنَّ أنّه يعجز ربّه، فلا يقدر عليه. أي؛ ألا يقدر ربّي عليَّ!"[110].

الاحتمال الخامس:

[110] تفسير البغوي، ج 5، ص 351.

لأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم كان مُهيأ للرسالة وهو يَعلَمُ بالعذاب الذي سيواجِهه قومه فذهب منهم مغاضبا وفي تقديره أن لا ينجو قومه من ذلك العذاب الذي يرتقبهم إن لم يؤمنوا بالله ويوحدوه ولا يشركوا به شيئا، ولذا كان ذهاب يونس من قومه لمعرفته بأن العذاب سيَحِلَّ بهم دون شك فقرَّر أن يذهب منهم قبل أن يَحلّ بهم العذاب، وهكذا كان ظن يونس في خروجه من قومه، ولكن ظن يونس (تقديره) لم يكن في محله من حيث أنَّ قومَهُ لم يُعذبوا ولقد كان التعرَّض للابتلاء ملما بيونس صلّى الله عليه وسلّم في الوقت الذي كان فيه في حالة من الظنِّ أنَّ قومه هم الذين سيواجههم العذاب، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[111].

الاحتمال السادس:

لقد كان اعتراف يونس بأنه من الظالمين هو اعتراف حقّ، فهو بحقّ كان يعيش مع ذلك القوم الظالمين قبل أن يذهب منهم مغاضبا، ولذا فهو ينتسب إليهم أي أنه منهم مع أنه لم يكن متخذا معهم أربّابا من دون الله كما هم متخذون.

وعليه: لقد كان الظن صفة ليونس صلّى الله عليه وسلّم، بين يقين وغير يقين، وهذه من طبيعة المخلوق الذي لم يُخلق على الكمال وإن كان نبيا أو رسولا أو صدِّيقا فالكمال لله وحده، ولهذا في انعدام الكمال لغير الله عزّ وجلّ تتشابه الظروف والمواقف كما تشابهت عند الرّسول الكريم محمّد مع الرّسول الكريم يونس صلى الله عليهما وسلَّم في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا

[111] الأنبياء 87، 88.

أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ ربّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لما سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ أنه لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}112. أي؛ فأصبر يا محمّد حتى يأتيك اليقين كي لا تكون في ضيق من أمرك كما تعرَّض يونس لضيق في أمره.

وعلى التشابه كذلك في غير الاكتمال للرُسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، قال تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شيئا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْممّاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نصيرا}113.

9. منبوذ في العراء:

النبذ فعل يُتخذ ضد من يخالف الدين أو العرف اللذين تُستمد منهما (الفضائل والقيم) ويترتب على النبذ تخلٍ عن المنبوذ فيكون وشأنه.

النّبذ "هو عدم الاعتناء بالشيء"114.

والنبذ في العراء هو الترك على الأرض الجرداء التي لم يكن بها أشجار ولا ثمار إنْ لم يكن المرمي في مشيئة الله عناية ورعاية، ولذا؛ فالنبذ في العراء هو رمي المنبوذ على البعد المكاني، وتركه مُرميا، وعندما يكون المنبوذ في مشيئة الله يستظل برعاية الله وعنايته فلا يُهمل كما هو حال يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي نُبذ مُتَدَارَكا في العراء بنعمة من ربّه، قال تعالى: {لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ}115، فهو لو لم يتداركه الله بواسع نعمه ورحمته وفضله لكان يونس مرميا في العراء والمخاطر تحوطه

[112] القلم 48 . 52.

[113] الإسراء 73 . 75.

[114] تفسير ابن عرفة، ج 1، ص 138.

[115] القلم 49.

من كل جانب، بردا أو حرا أو افتراسا أو جوعا أو حاجة من الحاجات التي لا يستغنى المخلوق عنها.

ومع أنَّه قد رُمي ملقيا في العراء إلا أن عناية الله ورعايته كانت الحافظ له من كل الشرور والمخاطر التي لولاها لما تعرَّض يونس صلّى الله عليه وسلّم للمهالك والظروف القاسية، ولهذا فبرعاية الله لم ينقصه شيء هو في حاجة إليه.

ومع أنَّ المنبوذ مُبعد إبعادٍ ليكون متروكا هكذا أو مرميا دون اهتمام إلا أنّ نبذ يونس كان مع فائق الرعاية والعناية الرّبانية، قال تعالى: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}[116] ولأن يونس لقد كان سقيم وهو منبوذ في العراء وغير قادر على الحركة الممكِّنة له من أخذ الحيطة والحذر والعمل على إشباع حاجاته الأساسية فكان الله خير حفيظ له بإنبات شجرة اليقطين عليه لتحميه من البرد والحر وتحقّق له الأمن والطمأنينة من الشرور والمخاوف وتشبع حاجته بما يغذيه ويغنيه عن الجوع، ولهذا تداركه ربّه بنعمة كريمة (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ).

النبذ في أساسه إبعاد للمنبوذ دون أخذ رأيه في موضوع النبذ أو قضيته، وهو لا يكون إلا من سعةٍ وأمنٍ إلى ضيقٍ وعسرٍ إلا نبذ يونس كان على غير ذلك، بل كان نبذه صلّى الله عليه وسلّم على ما يخالف ذلك بالتمام، فقد نُبِذ يونس من الضيق والخوف في بطن الحوت إلى السعة والطمأنينة على شاطئ البحر.

وعليه فللنبذ أساليب تتعدد منها:

---

[116] الصافات 145، 146.

ـ النبذ بالقوّة المطلقة: حيث لا رأي ولا إرادة لمن يُنبذ في نبذه كما هو حال يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي نُبِذَ من بطن الحوت في العراء لولا أن تداركه نعمة من ربّه جلّ جلاله.

ـ النبذ الإرادي: هو الذي يكون فيه حال صاحبه منبوذا عن الأعين بأسباب قد يراها المنبوذ لنفسه أنها كافية ومقنعة له لأن ينتبذ عن أعين النّاس كما هو حال مريم الكريمة عليها السلام قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آية لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أمرا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}117.

ـ النبذ العُرفي: الأعراف هي ما تعارف النّاس عليها واتخذوها نواميسا اجتماعية يحتكمون بها فيما يتعلق بهم من أمر ليس فيه نصا دينيا، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}118.

ولأنّ العرف موحد للروابط الاجتماعية ومقوٍ لها، احتواه الدين وأكد عليه ووصف المتّبعين للعرف الإصلاحي هم من الصالحين مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أمة قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيات اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ

---

117 مريم 16 ـ 25.

118 آل عمران 110.

وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيراتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}119.

. النبذ السياسي: في بعض دول العالم إذا ما تخاصم البعض مع البعض سياسيا يُقرروا النبذ لمن لا يُسهم في استقرار النظام أو الحكم السائد إن شكَّل خطرا على أحد الأطراف، وفي هذا الأمر نقول: لا ينبغي ذلك فالبلد والوطن للجميع والدساتير والتشريعات المستمدة من الدين أو العرف كافية لأن تضبط النظام بكل شفافية دون أن ينبذ أحد من أبناء الوطن أو يُحرم من ممّارسة حقّوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته.

النبذ قد يكون للبشر وقد يكون للمواثيق كما هو حال أهل الكتاب الذين نبذوا ما واثقوا عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وراء ظهورهم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}120، ويُفسِّر الطبري هذه الآية الكريمة بقوله: "إذ أخذ الله ميثاق أهل الكتاب يا محمّد، ليبيننّ للناس أمرك الذي أخذ ميثاقهم على بيانه للناس في التوراة والإنجيل، وأنك لله رسول مرسل بالحقّ، (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)، أي تركوا أمر الله وضيعوه، ونقضوا ميثاقه الذي أخذ عليهم بذلك، فكتموا أمرك، وكذبوا بك121.

إذا النبذ قد يكون على الحقّ كما نُبذ يونس من بطن الحوت بالحقّ في رعاية الله وحفظه، وقد يكون على الباطل كما حدث من أهل الكتاب بنقض ما واثقوا به الرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولذا فقوله تعالى: (فَنَبَذُوهُ) أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق (وَرَاء ظُهُورِهِمْ) ولم

---

[119] آل عمران 113، 114.

[120] آل عمران 187.

[121] تفسير الطبري، ج 7، ص 458.

يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلا ولهذا جاء النبذ وراء الظهر تمثيل واستعارة لترك الاعتداد وعدم الالتفات"122.

وعليةّ فالنبذ ترك ورمي على البُعد المكاني والتخلُّص أحيانا دون وجه حقّ من الموثَّق الذي يُعد دَينَا على من واثقوا عليه وواثقوا به وهو ما يجب الالتزام به، إلا أنَّ ناقضوا العهود والمواثيق يرمون ما واثقوا به وواثقوا عليه وراء الظهور ظلما، وهكذا يجري الإهمال للمواثيق عندما تُرمى وراء الظهور فلا يلتفت إليها وكذلك لمن يتم نبَذه إلا يونس نُبذ في العراء مع فائق الحفظ والرعاية الإلهية.

10. صاحب الحوت (ذا النون):

الصاحب الذي لا يفارق على غير عِلة، وهو الذي يألف صاحبه ويألفه، وصاحب الحوت هو ذا النون يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي صاحب الحوت من الماء إلى أن أخرجه الحوت إلى اليابسة، والصاحب هو المنقذ عند الحاجة، أي هو الذي لا يترك صاحبه عند الشدَّة أو الحاجة مع وافر التقدير والعناية.

والصحبة لا تكون إلا على الاستئناس والتقبُّل الذي تحتويه الطمأنينة مع الاستيعاب التام للظروف والأحوال التي تلمُّ بالمتصاحَبين.

وصاحب الحوت هو المعرَّف بالإضافة دون أيّ لبس أو غموض، أنّه يونس ولم يكن أحد غيره صلّى الله عليه وسلّم، وهذه صفة من الله لرسوله الكريم يونس الذي صاحب الحوت في مشيئة الله فكان الحوت خير مُنقذٍ له من الغرق في أعماق البحار.

وفي قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ

[122] تفسير الألوسي، ج 3، ص 352.

مَذْمُومٌ}123 مقارنة تؤكد على أنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم هو صاحب الحوت ولا شك في صحبته له من أعماق البحار وأمواجه العاتية إلى شواطئه الدافئة والهادئة، وكذلك تؤكد على صبر محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لحكم ربّه الذي لم يكن حاله كحال يونس مكظوم النفس والأنفاس لا ينطق بما في صدره من غم وضيق وهو محاصر في الظلمات التي منها ضيقه ومحاصرته في ظلمةٍ في بطن الحوت.

وتؤكد الآية أيضا على النعمة التي تدارك بها الله يونس بعد أن نُبِذَ بالعراء دون أن يتركه مذموما، أي دون أن يتركه منقوصا على الحاجة بل جعله في حفظه ورعايته العظيمة غير مذمومٍ.

ولقد كان يونس مكظوم أي ممتلئ غضب وهو في الظلمات التي فيها ضاق صدره كما ضاقت أنفاسه فيه وهو حزين ولتقريب ما يدل عليه الكظم المؤدي للحزن قال الشاعر ذو الرّمة:

"وأنت من حبّ ميّ مضمر حزنا... عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم"124.

ولأنّ صاحب الحوت هو يونس (ذا النون) مصداقا لقوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}125. أي أنْ صاحب الحوت صلّى الله عليه وسلّم الذي ظن ألا يُقدَرَ عليه لمبررات كان يظن أنها كافية لذهابه مغاضبا دون أي مخافة، وجد نفسه في الظلمات وهو مكظوم في بطن الحوت حيث لا مُنقذ له إلا القادر المطلق جلّ جلاله الذي سبَّحه يونس كثيرا وفي كل الظلمات التي مرَّ بها وفي كل ضيق

123 القلم 48، 49.

124 فتح القدير، ج 7، ص 286.

125 الأنبياء 87.

وهو ينادي ربّه مُسبِّحا بقوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

11. سقيم:

السقيم هو الموهن بأسباب ضعف القوّة والقدرة إلى ما يقاربّ من درجات الانتهاء.

والسقم وهنُ شديد يلاحقّ من يتعرَّض إلى مرضٍ أو عذابٍ مؤلم، أو حبسٍ في ضيق حيث لا حركة ولا امتداد، وكذلك يلاحقّ من يتعرض لاختناقات وضيف نفس وأنفاس، وبعد ملاحقّته لهؤلاء ومن على الشبه بهم يأسِّرهم أسرا شديدا ولا يفارق أحد منهم إلا بعد أن يبلغ درجات الضعف والوهن، وقد لا يفارق إلا بالقضاء على السقيم عندما يتجاوز السقيم حالات السقم بانعدام العودة إلى المعافاة والسلامة فيكون الانحدار حتى النهاية التي لا يخشاها الإنسان عندما يكون غير مسببٍ فيها بما عملته يداه، وهكذا دائما عندما يكون الإنسان على الطاعة والوحدانية لله تعالى لا يخشى نهايته أبدا، وذلك ليقينه أن لكل بداية نهاية وكل حياة لا تكون إلا والموت من ورائها يلاحقّها إلا الحياة الدائمة (السرمدية) التي لا وجود للموت من بعدها.

وعليه: فالسقم ضعف جدا مع وهنٍ عن الحركة المؤدية إلى العمل أو حتى أخذ الحيطة ممّا يُهلِك أو يضر كما هو حال يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي وهُنَ حاله وضعفت صحته ومع ذلك لم يضعف تخمينه تجاه ربّه فبقي المسبّح باسم ربّه تعالى (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) أي؛ أنّ سقم يونس سقم بدني ولم يكن سقم عقدي ولهذا كان إنبات شجرة اليقطين عليه ضرورة تحفظه من كل سوء.

ولذا؛ فقد كان سقم يونس بأسباب التقامه في بطن الحوت؛ فكان في ضائقة مأسورا حيث لا حركة ولا امتداد ولا راحة في اتخاذ الأنفاس، ولا إحساس بالطمأنينة مع خوف شديد وكان لومه على نفسه وما فعلت أكثر شدة، قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ}126. فمع أن الله قد أمر الحوت لأن يلتقم يونس وينبذه أمرا في العراء بعد سُقمٍ قد تعرَّض له إلا أن عناية الله وحفظه ليونس قد أنقذته من السقم الذي ألمَّ به فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}127.

ولأنّ السقمَ بدني وفكري وعقلي ونفسي وعاطفي فهو إن أصاب واحد من هذه الأنواع تداعت له بقية الأنواع بالألم والوهن. ولأنّ الوهن لا يقتصر على الابدّان وحدها، قال الشاعر:

وَكَمْ مِنْ عَائبٍ قولا صَحِيحًا... وآفَتُهُ مِن الْفَهم السَّقِيمِ128

وعلى معنى آخر قال شاعر:

ورَفَعْتُ رِجْلا لا أخافُ عِثارَها... وَنَبَذْتُ بالبَلدِ العَرَاءِ ثِيابِي129

ومع أنَّ السقم في أي من مكونات الإنسان (الشخصية) هو مؤثر على بقية المكوِّنات الأخرى، إلا أن يونس في كل الظلمات التي تعرَّض لها

---

126 الصافات 139 ـ 145.

127 الصافات 146، 147.

128 تفسير ابن كثير، ج 3، ص 140.

129 تفسير الطبري، ج 21، ص 111.

وبما فيها السقم لم يكن على وهنٍ في تعلُّقه الروحي بربّه وتوحيده له مصداقا لقوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}130.

12. مُلتقم:

الالتقام يتطلب شيئين:

. ملتَقَم (يونس).

. ملتقِم (الحوت)

. أسباب الالتقام (نجاته من الغرق).

ولذلك، كان في قصة يونس أنّه هو الملتقم، والحوت هو الملتقم له، وفي كلتا الحالتين كان التقام الحوت ليونس تنفيذا لأمر الله بغاية نجاته من الغرق واجتبائه رسولا كريما، وهكذا كانت النتيجة والغاية هي سلامه يونس من الغرق وسلامته في بطن الحوت وشفائه من السقم الذي تعرَّض إليه في بطن الحوت (صاحبه المنقذ له).

وعليه: لقد تحقّقت أمور عجيبة في قصة يونس صلّى الله عليه وسلّم والحوت الذي صاحبه، ومن هذه الأمور العجيبة:

. أنّ الحوت قد التقم يونس التقاما لينقذه من الوقوع في مياه البحر المغرقة لا أن يلتهمه التهاما.

. أنّ الحوت قد التقم يونس واللوم يملأ نفسه أي لم يكن لوم يونس على التقام الحوت له بل لأسباب سابقة على التقامه من قَبل أن يلتقمه الحوت (فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ).

---

130 الأنبياء 87، 88.

. مع أنّ الحوت قد التقم يونس في بطنه إلا أنّ يونس لم يلبث فيها (فَلَوْلَا أنّه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

. مع أنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم كان مكظوما في بطن الحوت إلا أنّه لم يكن يأسا من استجابة ربّه لندائه؛ فناداه في الظلمات؛ فكان تعالى هو المجيب الذي حقّق له النجاة من المهالك والمخاطر (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

ولأنّ يونس كان صاحبا للحوتِ، الحوتُ التقم يونس وهو في حالة لومٍ على ما فعل بنفسه حتى كان معرَّضا لِما تعرَّض إليه وهو على الفُلك المشحون يقبل بان يكون مدحوضا مع المدحضين، ثم يجد نفسه ملتقما في بطن الحوت لا حول له ولا قدرة ولا قوّة، قال تعالى: {فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنّه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}131.

يتضح من هذه الآيات الكريمة فضل الله العظيم على يونس صلّى الله عليه وسلّم من حيث:

. التقام الحوت ليونس التقاما يعد آية من آيات الله العظيمة وذلك لأنّ الالتقام يعني أخذ الشيء (هو كما هو عليه) دون إيذاء يلحقّه، ولهذا فالالتقام لا التهام فيه، أي لا يأتي منه الضرر.

ولأنّ الالتقام لا يأتي منه الضرر، التقم يونس التقاما، فأُخذ قبل أن يسقط في مياه البحر أي أخذ وهو على حالة القفز إلى المياه، ثم أُبتلع

131 الصافات 142 . 144.

ابتلاعا بحيث لا تدميه الأنياب، ولا يُمضغ بالأسنان، ولا يُدمج ويُطحن بالأضراس، ولا يَغمره اللعاب فيختنق.

وقوله تعالى: (فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) تدل هذه الآية الكريمة على أنَّ التقام الحوت ليونس واللوم يملأ نفسه على أن فضل الله كان عظيما على يونس بأن استجاب له فنبذه بعد التقام في بطن الحوت، ولو لبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون لكان يوم يبعثون مبعوثا يونس واللوم معه حاضرا، وهنا يكون الحساب الذي يتطلب ثوابا أو عقابا. ولهذا كان النداء في الزمن (الآن) متطابقا مع زمن الاستجابة كن في الزمن الآن فكانت الاستجابة (فنادى، فاستجبنا).

13. منادٍ ربّه:

المنادي هو من يتوجه بصوته المنادي مرتفعا إلى من يناديه ليكون حضوره على أوجه منها:

ـ حاضر بذاته أو شخصه.

ـ مجيب بفعله أمرا أو بصوته سمعا.

ـ مستجيب بمتطلبات النداء.

ولكن هل كل نداء يستوجب الاستجابة؟

نقول:

القاعدة تنص على الآتي:

(النداء دائما يُسمع من السميع المطلق، ولكن ليس دائما يُسمع من السميع في دائرة الممكن والنسبية).

وقد يتساءل البعض:

أين الاستثناء والنسبية والممكن إذا من هذه القاعدة؟

نقول:

الاستثناء على مستويين (مُطلق ونسبيا):

المستوى الأول المطلق:

أن يُستمع النداء ولا يُستجاب له عندما لا تكون الاستجابة المأمولة حقّ يُحقّ حقّا.

وعليه لقد يتساءل البعض الآخر:

إذا كان هذا هو حال أمر الاستثناء فكيف يكون حال الاستجابة وفقا للقاعدة؟

نقول:

. أن يُستمع النداء ولا يستجاب إليه في الحال لعلم يراه المجيب المطلق فيؤجله لما يناسب الزمان والمكان والظرف الموضوعي للحالة والداعي الذي كُتبت له الاستجابة لندائه مؤجلا.

. أن يُستمع النداء وتكون الاستجابة في الزمن الآن (فنادى، فاستجبنا).

المستوى الثاني النسبي والممكن: على أوجه منها:

. أن ينادي المنادي ولا يُسمع ندائه من حيث البعد المكاني والزماني ووجود المستمع المستهدف بالنداء في دائرة النسبية أو العدم، ولهذا عندما يكون بين المنادي والمنادى مسافات تبعدهما عن مجالات الاستماع الصوتي فلا يكون الاستماع ولا تؤمل الاستجابة ممّا يجعل الأمر في هذه الحالة كمن ينادي من في القبور الذين لا زمان يصل بهم وفي مثل هذا الأمر لا حياة لمن ينادى، قال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[132].

. أن ينادي المنادي ويُسمع نداءه ولا مغيث ولا مجيب ولا منقذ ومخلِّص له ممّا هو فيه.

. يُسمع النداء ويستجاب له بمد يد العون دون ضمان لتحقّيق النجاة.

وعليه لو لم يكن نداء يونس صلّى الله عليه وسلّم لربّه في محله ما استجاب الله لندائه، ولهذا تزامن النداء مع الاستجابة (فنادى، فاستجبنا) أي أن الاستجابة كانت أمر بنجاته فعلا محقّقا في العراء مع فائق الرعية والحفظ العظيم. (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

المناداة هي تضرُّع لله وطلب دُعائي لتكون الاستجابة المنقذة من الهلاك، ولهذا فالمناداة صوتيه (تُسمع بأسباب ارتفاع صوت المنادي) ومع أنَّ يونس عندما كان في قومه كان حنيفا ومهيأ لتلقي الرسالة وهو يعلم أن الله هو السميع (فائق القدرة السمعية بالمطلق) سواء ارتفع صوت المنادي أم لم يرتفع، إلا أن بأسباب الخوف وما تعرضّ له يونس من التقام في بطن

---

[132] فاطر 22.

الحوت جعله يرفع صوته مناديا بالمطلق أنه لا مطلق إلا من يُرفع النداء إليه بالمطلق.

إذا مناداة يونس كانت بالمطلق للمطلق جلّ جلاله الذي بيده الاستجابة وهو السميع العليم، ولو لم يكن نداء يونس نداءً يقينيا بالمطلق للمطلق تعالى ما كانت الاستجابة متزامنة مع النداء بالأمر (كن) الذي به قُذِفَ بالعراء وهو مذموم لولا أن تداركه نعمة من ربّه مصداقا لقوله تعالى: (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ).

ولهذا، كان نداء يونس لربّه تعالى بصوتٍ عالٍ لإدراكه يقينا أنّه لا منقذ له إلا هو وحده، {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[133].

14. ناجٍ من الغمِ:

الناجي من الغم هو من الَمَّ الغمَّ به وكاد أن يقضي عليه الغم لولا أن جاءه المنقذ الذي أخرجه من دائرة الغم التي ألمت به وكادت أن تقضي عليه لولا التدخل المفرِج للكَربّ منه.

وعندما يكون الغمُّ صفة لصاحبة الموصوف به يكون الغمُّ على ارتباط مع من اتصف به لدرجة قد يُدعى به من قبل الآخرين دون أن يُذكر أسمه مثل ما يُدع (ذا النون) دون لبس أو غموض فهو يونس صلّى الله عليه وسلّم، وهكذا كانت النجاة من الغمِّ الشديد صفة التصقت بيونس مثلما يقال عنه صفة بأنه (صاحب الحوت) أو يقال عنه صفة أنه (ذا النون).

[133] الأنبياء 87، 88.

ولأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم هو صاحب الحوت الذي أنقذه من أن يُلقى به في البحر ويغرق، كذلك كان الحوت الذي هو المنقذ ليونس هو الذي في بطنه عاش يونس ظلمة من الظلمات التي تعرَّض لها بعد أن ذهب مغاضبا من قومه، وهي أحد الظلمات التي أنجاه الله من غُمَّتها وكدرها، قال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}134.

يُفهم من هذه الآية الكريمة أن نجاة يونس من الغمِّ كانت مترتبة على أمرين رئيسين:

الأمر الأول: مناداة يونس لربّه وهو في الظلمات (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

الأمر الثاني: الاستجابة لنداء يونس (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ).

ثمَّ جاءت النتيجة المترتبة على الأمرين الرئيسين السابقين نجاة يونس بإخراجه من بطن الحوت، (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ).

15 . مجتبى:

الاجتباء لا يكون إلا من الله لرسولٍ من رُسُله الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، ولا يكون الاجتباء إلا لرسالة يُكلَّف الرّسول المجتبى بها في قومه أو شعبه أو قريته أو أمته أو النّاس كافة.

والمجتبى هو الذي أخصَّهُ الله بما أخصَّه به من رسالة خالدة تهدي للتي هي أحسن وأقوم طاعة لله واحد أحدا لا شريك له، ولهذا فالاجتباء فعل من أفعال الله الحِسان تجاه عبدٍ من عبيده الكرام الذين يرتقي بهم الاجتباء

134 الأنبياء 88.

إلى مستوى حمْل الرسالة هداية وتبشيرا وإنذارا ودعوة وتحريضا على الحقّ واتباعه.

والاجتباء في اللغة يُقال: "الاجتباء من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك وفسره بالاختيار لأنه إنما يجتبى ما يختار، وذكر بعضهم أن اجتباء الله تعالى العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل منه أنواع من المكرمات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء عليهم السلام"135.

وبتحليل بعض متغيرات التعريف السابق نلاحظ أن التعريف كغيره من التعريفات والتفسيرات اللغوية الأخرى قد عرَّفَ الاجتباء بأنه اختيار، كما غيره عرَّفه بأنه اصطفاء، ونحن نقول:

الاجتباء ليس هو الاختيار ولا الاصطفاء ولا الجعل والإيتاء فالفرق كبير بين هذه المصطلحات من حيث المفهوم:

أ. الاصطفاء:

فعل من أفعال الله الحِسان يختص به ويخُصَّ به من يشاء من رسولٍ كريم، وكل الرّسُل هم مصطفون أخيار مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ}136.

إذا الاصطفاء فعل تفضيلي لمن يشاء الله من رسولٍ، وليس اصطفاء نوع على نوع فالخلق أمام الله سواسية لا فرق بين ذكر وأنثى إلا بالأعمال الصالحات وهذه الأعمال بيد النّاس فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء

---

135 تفسير الآلوسي، ج 8، ص 437.

136 ص، 48.

فعليها، {مَنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}137.

ولأنّه لا تفضيل بين النوع بعث الله رسوله يونس لقومه ليبلّغهم أن الله واحد أحد يصطفي الرّسُل ويُفضِّلهم ولا يصطفي جنس من داخل النوع الواحد ويُفضِّله على الجنس الآخر من نوعه قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا أنهم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأنهمْ لَكَاذِبُونَ اصطفى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}138.

يُفهم من هذه الآيات الكريمة أن رسالة يونس صلّى الله عليه وسلّم كانت لتوحيد الله وعدم التفريق بين أبناء النوع الواحد، وعدم وصف الملائكة بالإناث وهم لا يعلمون، ولهذا كان الخطاب موجّه ليونس كما هو موجّه من بعده لسيدنا محمّد بالتمام فكما أرسل الله تعالى يونس لقومه لِيُبيّن لهم رسالته التوحيدية وأن لا يفرّقوا بين أبناء النوع الواحد إلا بالأعمال الصالحات ولأن الله واحد أحدا فقوله تعالى فيما يتعلق باستفتاء يونس لقومه بقي (هو كما هو) غير منسوخ كما جاء خطابا لسيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم صاحب الرسالة الخاتمة التي احتوت كل الرسالات السابقة نصا ومضمونا دون أن تترك شيئا شاءه الله أن يكون منصوصا عليه في القرآن الكريم لأجل الهداية والطاعة والاتباع لِما يجب والانتهاء عمّا نهى فكانت رسالة محمّد رسالة الكافة وكان رسول خاتما.

---

137 فُصلت 46.

138 الصافات 139 . 153.

وعليه فالاصطفاء كان وفقا أمور ثلاثة:

الأمر الأوّل:

كان الاصطفاء وهو التفضيل بين الأنواع الثلاثة (الملائكة، الجن، آدم) فاصطفاء الله منهم (آدم) صلّى الله عليه وسلّم وأهبط به على الأرض خليفة، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سبحانكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلما أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}139.

الأمر الثاني:

اصطفاء الرّسُل كان من داخل النوع الواحد اصطفاءً، أي أنه اصطفاء من داخل مجموع النوع الواحد، من جميع البشر يصطفي الله رسولا وأحدا أو مجموعة من الرّسُل وفقا لمشيئة هو يشاؤها، ولهذا كان اصطفاء رُسُل الملائكة من مجموع الملائكة المكرَّمين، ورُسُل البشر كانوا من مجموع البشر الذين خلقهم الله في أحسن تقويم وأرادهم أن يكونوا خلائف في الأرض، قال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رسلا وَمِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}140.

---

[139] البقرة 30 . 34.

[140] الحج 75، 76.

ولأنّ الله علّام الغيوب فهو يعلم بما سيكون عليه مَن سيُخلق قبل أن يَخلُقه، ولأنّه الخالق فهو الذي خلق الرّسُل خلقا كما خلق آدم رسولا واصطفاه على الملائكة والجن، أي أنه كما خلق آدم خلقا بدون أب ولا أم فهو كذلك الخالق لعيسى من أمٍ ومن غير أب، وهو القادر الذي في خَلقِهِ لخَلقه يَخلُق ما يشاء ومن يشاء أن يكون من بعد خَلقِهِ له أن يكون رسولا، ولهذا جاء قوله (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أي؛ أنّه السميع البصير الذي يعلم ما بين أيدي مَن خَلَقَ مِن رُسُل (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيدِيهِمْ) وما سيؤلون إليه (وَمَا خَلْفَهُمْ) وإلى أن تقوم الساعة ومن بعد قيام الساعة التي لا يعلم أمرها إلا علّام الغيوب (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

الأمر الثالث:

ولأنّ الاصطفاء من الله تعالى؛ فالله تعالى هو خير من اصطفى الدين هداية للعالمين من إنسٍ وملائكةٍ وجنٍ، فهو كما اصطفى الرّسُل الكرام مِن الملائكة والإنس، فهو مَن اصطفى الدين الواحد الذي يُدع له من قِبل رُسُل الملائكة والإنس، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ربّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أمة مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ربّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رسولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وأنه فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصطفى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا

وأحدا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أمة قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}141.

ب. الاختيار:

الاختيار فعل ترجيحي قد يتماثل أو يتطابق مع من يتم اختياره وفقا للمعطيات التي تم اختياره عليها، وقد لا يتماثل ولا يتوافق مع من تم اختياره، ولذلك فالاختيار يترتب عليه فعل الاستبدال، فالإنسان يختار من يشاء لأمر ما، ثم قد يُغيِّر من اختار بإرادة لأسباب عدم تطابق صفات من أختاره مع المهمة التي أختاره لها.

والاختيار لا يكون من المجموع العام للخلق كما هو حال الاصطفاء، بل هو اختيار محدود من قبل الذين يُعرضون للاختيار ليتم اختيار وأحدا أو بعض منهم من بين المعروضين أو العارضين أو المستعرضين، ولأن الله هو الذي يصطفي من يشاء من رسولٍ فلا اختيار للرُّسُل من قِبل البشر، ولكن الله وحده يختار الذي فيه الخير الكثير لمن اختار لهم من الرّسُل، قال تعالى: {وربّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سبحان اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وربّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}142.

وعليه: لا اختيار فيما اصطفى واجتبى الله تعالى إلا الطاعة والاتباع والإيمان والتسليم التام مع فائق الاتعاظ والاعتبار والتقدير والاعتراف، قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أمرا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}143.

[141] البقرة 127 . 134.

[142] الأحزاب 68 . 70.

[143] الأحزاب 36.

ج . الجعل:

الجعل تكوين على الهيئة مثلها مثل الخلق فالأرض خلقت أولا ثم جُعلت على الحركة والحياة، وهكذا الملائكة خلقت ثم جُعلت رُسُل أولي أجنَّة، ولهذا فالجعل لا يكون إلا على الهيئة التي بها تتميز الأنواع والأجناس والمخلوقات المجعولة، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رسلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَربَّاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[144].

والجاعل، هو القادر على جعل الأشياء على ما هي عليه خلقا وطبعا ونوعا وجنسا وخاصية وصفة وفعلا فالذي خلق الأرض هو الذي جعلها على ما هي عليه شكلا وحركة وامتدادا وبسطة وهو الذي جعل لها مجراها مداريا، وجعلها مع غيرها من الكواكب في فلك يسبحون قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ}[145].

ولذا؛ فمجموعة من الأسئلة قد تترتب على هذه الآية لأجل توضيح الجعل وإظهار المعنى الدلالي للآيات الكريمة له، ومن هذه الأسئلة:

1 . كيف كانتا السماوات والأرض وكيف أصبحتا؟

. كانتا على الخلق والجعل.

---

[144] فاطر 1.

[145] الأنبياء 30 . 34.

.كانتا على الخلق رتقا، أي كانتا المجعولتين على الوحدة والاتصال ثم أصبحتا المجعولتين على الانفصال وليس المخلوقتان عليه، ولذا فصفة الخالق هي الخلق وصفة الجاعل هي الجعل وكلا الصفتين هي لله تعالى، فسبحان الخالق المبدع وسبحان الجاعل القدير.

ولأنّه الجاعل الذي خلق الأرض رتقا مع السماوات فهو الجاعل الذي فتقهما فتقا وهو الجاعل الذي جعل الأرض فراشا والسماء بناء فأنزل منها ماء فأخرج به من التمرات رزقا، قال تعالى: {يَا أيهَا النّاس اعْبُدُوا ربّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}146.

2 ـ بصفة من كانت السماوات والأرض رتقا؟

ـ بصفة الخالق عزّ وجلّ.

3 ـ بصفة من أصبحت السماوات والأرض مفتوقتان؟

ـ بصفة الجاعل جلّ جلاله.

4 ـ وبأي صفة يصبح من الماء كل شيء حي؟

بصفة الجاعل تعالى، (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

5 ـ على من يعود ضمير الجعل؟

ـ يعود على الجاعل (الله تعالى).

ولأنّه الجاعل عزّ وجلّ فهو الذي جعل الأنبياء في أقوامهم وأممهم أنبياء وملوكا كما هو حال بني إسرائيل، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى

---

146 البقرة 21، 22.

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أحدا مِنَ الْعَالَمِينَ}[147].

ولأنّه الجاعِلُ خلق ما خلق مجعولا على وظيفة ومنافع فالنجوم خُلقت خلقا وجُعلت في علاقة وظيفية مع غيرها من الكواكب لتُظهِرَ تلألؤا يهتدي به النّاس مقاصدهم ليلا في ظلمات البر والبحر.

ولأنّه الجاعل فهو كما جعل النجوم ليهتدي النّاس بها ليلا كذلك جعل الشمس ضياء والقمر نورا وهو الذي جعل التقدير الإحصائي من خلال دوران الأرض والشمس والقمر والنجوم في أفلاكها التي جُعلت عليها امتدادا ودورانا.

ولأنّه الجاعل فَجعْلَهُ نِعَم لا تُحصى ولا تُعد، ولذا فما لدينا من نِعَم وما خلق من نِعم هي المجعولة لما خلق ولمن خلق، فهو الذي جعل لنا البيوت سكنا وجعل لنا من جلود الأنعام بيوتا ومتاعا وهو الذي جعل ممّا خلق ظلالا وثمارا وجعل لنا من الجبال أكنانا وجعل لنا مالا يُحصى عددا.

ولأنّه الجاعل فجعله متى شاءه كان مجعولا، ولذا فالعلاقة لا تنفصل بين الجعل والأمر (كن) فإذا شاء الجاعل لشيء أن يكون جعله كائنا كما جعل عيسى صلّى الله عليه وسلّم مناديا لأمه من تحتها كما جاء في الكتاب الحكيم: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}[148].

---

[147] المائدة 20.

[148] مريم 24.

ولأنّه الجاعل لكل شيء شاءه ولكل شيء يشاءه فقد جعل لكل ما شاء مشيئة تجعله على الخاصية التي بها يتميز عن غيره بداية ونهاية وشكلا ومضمونا، قال تعالى: {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}149.

د ـ الإيتاء:

الإيتاء عطاء دون منِة ولا يكون إلا وفق المشيئة الإلهية التي بها كان إيتائه تعالى لرُسله الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آية قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}150.

ولأنّ المؤتي يؤتي الملك من يشاء إذا فهو يؤتي ما يشاء لمن يشاء متى ما شاء، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خيرا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}151.

ولأنّ الله هو المؤتي فهو الذي آتى الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ما آتاهم من أنباء ورسالات، ولهذا نحن لا نفرق بين أحد من رسله، مصداقا لقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحد مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}152.

---

[149] الطلاق 3.

[150] النعام 124.

[151] البقرة 269.

[152] البقرة 136.

تثُبت هذه الآية الكريمة أنّ المؤتي لإبراهيم هو المؤتي ليعقوب والمؤتي للأسباط والمؤتي لعيسى وكل الأنبياء، ولهذا لا وجود لمعطيات أو مبررات التفريق بين رُسُله صلى الله عليهم وسلَّم، ولذا وإن تعدد الرّسُل فالمؤتي واحد سبحانه لا إله إلا هو صفاته تتعدد وأفعاله تتعدد وهو الواحد الذي لا يتعدد.

وفي مقابل أنَّ المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله تعالى لا يفرِّقون بين أحد من رُسُله طاعة واتباعا فكذلك الكافرون لا يفرقون بين أحد من رُسله كفرا وعصيانا، قال تعالى: {فَلما جَاءَهُمُ الحقّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ}153.

ولأنّه لا إيتاء إلا من المؤتي عزّ وجلّ فالله تعالى قال: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}154 ولهذا فقد آتى قارون مطلبه في الحياة الدنيا وفي الآخرة ليس له من نصيب، قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ أنه لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صالحا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مكانه بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأنه لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}155.

---

[153] القصص 48.

[154] آل عمران 145.

[155] القصص 79 . 82.

ولذلك، فمن يؤتى مطلبه في الدنيا ليس له في الآخرة من نصيب ومن يريد نصيبه في الآخرة فله فيها النصّيب الأوفى مصداقا لقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}156.

وعليه: فالإيتاء عطاء بلا مِنَّة ودون انتظار مقابل، وهو لا يكون إلا في الخيرات التي منها:

1 . الملك: قال تعالى: {وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}157.

2 . الحكمة: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خيرا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}158.

3 . الرزق: قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسرا}159.

4 . الكتاب: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}160.

5 . نصيبا من الكتاب: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ}161.

---

[156] الشورى 20.

[157] البقرة 247.

[158] البقرة 269.

[159] الطلاق 7.

[160] آل عمران 20.

6 ـ الفضل: قال تعالى: {فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}162، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}163.

7 ـ النصّر: قال تعالى: {حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ}164.

8 ـ الإنذار: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}165.

9 ـ السلطان: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيات اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}166.

10 ـ فصل الخطاب: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}167.

11 ـ الصحف: قال تعالى: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}168.

12 ـ المال: قال تعالى: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}169.

---

[161] آل عمران 23.

[162] آل عمران 170.

[163] آل عمران 73.

[164] الأنعام 34.

[165] القصص 46.

[166] غافر 35.

[167] ص 20.

[168] المدثر 52.

[169] الليل 18.

13 ـ النبوّة: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنبوّة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا ربّانِيّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}170.

14 ـ المغفرة والجنّة: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}171.

15 ـ الأجر: قال تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالحا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا}172.

16 ـ الإتيان بلا حدود ممّا يشاء كيفما يشاء لمن يشاء، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ ربّهُمْ أنهم كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حقّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَفِي الْأَرْضِ آيات لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}173.

ممّا تقدم يتضح أن المؤتي عزّ وجلّ يؤتي كل شيء من فضله لمن يشاء ولا يأخذ شيء في مقابل ما يؤتيه، ولأنه مالك الملك وهو الملك المتعال فهو المؤتي وملكه لا ينقص بل هو في ازدياد بخلقه لما يؤتي ولمن يؤتى خلقا.

وعليه: فإنّ إيتاء المؤتي باقٍ في الدارين من حيث كونه:

1 ـ نعمة في الدار الدنيا.

---

170 آل عمران 79.

171 الحديد 21.

172 الأحزاب 31.

173 الذاريات 15 ـ 22.

2 ـ نعيم في الدار الآخرة مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[174].

ومع أنَّ المؤتي بالمطلق هو الله تعالى إلا أن مترتبات من الأفعال تترتب على الإيتاء منها:

1 ـ المترتب الموجب: من طاعة وهداية وعدل وزكاة وصدقة وإحقّاق حقّ وإزهاق باطل.

2 ـ المترتب السالب: من حسد وكيد ومكر وفساد في الأرض وسفك دماء فيها بغير حقّ، وكذلك من المترتب السالب تكذيب الرّسُل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}[175]، وقوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[176].

---

[174] آل عمران 170، 171.

[175] الأنعام 34.

[176] التوبة 58 ـ 61.

هـ ـ الاجتباء:

الاجتباء فعل مُترتب على فعل الاصطفاء، فبعد أن يصطفي الله رُسُلِه يجتبي منهم من يشاء لمهمةٍ من المهام التي يشاءها الله أن تكون رسالة لمن يشاء من عباده، ومع أنَّ الاجتباء فعل مترتب على الاصطفاء ألا أنّه فعل لا استبدالي كما هو حال فعل الاختيار، أي أنّ الاصطفاء والاجتباء فعلين باقيين لا يستبدلان ولا يُغيران، وأمَّا الاختيار في دائرة الممكن والنسبية فهو كما سبق تبيانه فعل استبدالي لا ثوابت له.

ولأنّ الاجتباء فعل مترتب على فعل الاصطفاء جاء اجتباء يونس صلّى الله عليه وسلّم برسالة لقومه بعد أن اصطُفي رسولا لله ربّ العالمين، قال تعالى: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) أي أن يونس مصطفى من الله تعالى لأن يكون رسولا مرسلا من بعد اصطفائه، وبعد أن تم اجتباءه أُرسِلَ يونس برسالة أخصه الله بها إلى قومه الذين كان عددهم مئة ألف أو يزيدون مصداقا لقوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

وعليه: فالاصطفاء تفضيل، وأمَّا الاجتباء فتخصيص، اصطفى الله يونس رسولا ثم اجتباه برسالة ومهمة لقومه، ولهذا كان التخصيص ليونس بالرسالة التي جاءت مترتبة على اصطفائه رسولا ليكون من بعد الاجتباء رسول مرسلا. ولذا نقول:

الاصطفاء تفضيل لرسولٍ يُصطفى من المجموع الكلي سواء أكان المجموع الكلي ملائكةٍ أم أكان أنسٍ، ولذا فالاجتباء هو تفضيل بالرسالة سواء أكانت خاصة أم أكانت عامة أم كافة.

وكما يترتب الاجتباء على الاصطفاء؛ فكذلك يترتب التكليف بالرسالة على الاجتباء إليها ليُبلّغ الرّسول المجتبى الآخرين المعنيين بها.

16. صالح:

الصلاح ما ليس بفساد وهو لا يكون إلا على الهداية والطاعة التامة لله ربّ العالمين.

والصالح هو الصالح في ذاته من ذات الله تعالى، فهو الذي خُلق في أحسن تقويم وكان من المستخلفين في الأرض ليعمل صالحا يرضاه الخالق جلّ جلاله، فالصالح هو من يَصلُح للحياتين ويرث فيهما خيرا كثير، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}177.

وفي اللغة، الصالح: "من بني آدم: هو المؤدي حقّوق الله عليه"178.

وقال الزجاج: "الصالح الذي يؤدّي لله ما افترض عليه، وإلى النّاس حقّوقهم"179.

ولأنّ يونس من الأنبياء والمرسلين الكرام صلى الله عليهم وسلّم فهو بدون شك من الصالحين الذين هُم رفيعي الدرجات في مرضاة الله وطاعته وحُسن خَلقه وخُلقه، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأيوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى

177 البقرة 25.

178 تفسير الطبري، ج 3، ص 91.

179 تفسير القرطبي، ج 4، ص 79.

وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}180.

ولأنّ كل الأنبياء من الصالحين (كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) فنحن لا نميّز بين أحد من رُسُله وقالوا سمعنا وأطعنا، أنهم الأنبياء والرّسُل الصابرين الطائعين الصالحين الذين أدخلهم الله في واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا أَنهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}181.

وعليه: الصالح غير المصلح، فالصالح من صلحت أحواله خلقا فكان على الصلاح صفة تامة وعلى الأخلاق قدوة حسنة، والمصلِح هو من يُسهم في إصلاح المفاسد أو الآخرين وهو الذي يأمل أن يكون على الصلاح ليكون صالحا في ذاته ويبلغ درجة الصالحين الذين منهم يونس وجميع الأنبياء والمرسلين الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، ومع ذلك فالصَّالح هو من لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله وهو الذي لا يؤمن أن يكون على غير ذلك قولا وعملا، ولهذا يتوجَّه بالعمل الصالح للآخرين ليُسهِمَ في إصلاح أحوالهم لأنه في ذاته مصلحا والله تعالى جعله على الصلاح، ولهذا لم يكن هدفه من إصلاح الآخرين أو الإصلاح من أجلهم ليكون صالحا، فالصلاح بالنسبة له لا يعد مطلبا يرجوه بل الصلاح هو صفة له ويتصف به قولا وعملا وفعلا وسلوكا، ولذا فهو لا يعمل إلا صالحا، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

180 الأنعام 83 . 86.

181 الأنبياء 85 . 88.

مُصْلِحُونَ}182، وعندما يكون أهل الأرض (سكانها) يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء بغير حقّ يتصفون بصفة الإصلاح الذي هو من الإعمار والبناء وسيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين أهلها وسكانها.

17 . مكظوم:

الكظم عبء ثقيل يكاد أن يظهر لولا تقدير المسؤولية المستوجبة الكظم لِما هو مكظوم، والكظم إخفاء وعدم إظهار ما في الصدر من ضيق على ما يلاحظ من قِبل الآخرين من علامات حزن على الوجه أو علامات ضيق أثناء إخراج الكلمات أثناء الحديث.

والمكظوم هو من يعاني ممّا يعاني منه من ضيق يخفيه دون أن يُظهره قولا أو سلوكا.

والمكظوم غير الكظيم، فالمكظوم هو ما يقع على النفس من الخارج فتحمله النفس عبء ثقيلا، ولهذا فالمكظوم هو الذي يتعلق أمره مع الله تعالى، عندما يحمْل الصعاب المترتبة على تحمُّله للرسالة التي هي من عند الله (التي بها بُعث رسولا) ولهذا كان يونس مكظوم بحمل الرسالة الثقيل.

أمّا الكظيم فهو الذي يكظم في نفسه هموما وصعاب وأعباء هي بأسباب النّاس أو من قِبلهم.

وعليه يكون المكظوم مع الله ويكون الكظيم مع النّاس.

---

[182] هود 117.

وفي تفسير القرطبي المكظوم هو "المملوء من الحزن والممسك عليه لا يبثه، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه"183.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

وأنت من حبّ ميّ مضمر حزنا... عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم184

الكظم صفة حميدة تدل على قدرة الكاظم على التحكُّم في نفسه وعقله دون أن يسلك سلوكا قد لا يليق بمقام من خُلق في أحسن تقويم، ولهذا كان المسارعون في أفعال الخيرات هم الذين منهم المتّقون لله والذين ينفقون ممّا أتاهم الله في السراء والضَّرَّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس مصداقا لقوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السراءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}185.

يُفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أن المغفرة رحمة وفضل من الله تعالى وأن الجنّة قد أعدت لمن هم على الحقّ اتباعا، ومنهم:

. المتقون الذين ينفقون في سبيل الله في السراء والضَّرَّاء (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السراءِ وَالضَّرَّاءِ).

. الكاظمون الغيظ (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ).

---

183 تفسير القرطبي، ج 9، ص 249.

184 فتح القدير، ج 7، ص 286.

185 آل عمران 133، 134.

ـ العافون عن النّاس (وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس).

ـ المحسنون في سبيل الله (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

ولأنّ كظم الغيظ ليس بالأمر الهين ولا بالسهل فلا يقدم عليه إلا رسول أو نبئ أو عظيم على الطاعة والتقوى، قال تعالى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}186، يعقوب صلّى الله عليه وسلّم في قصة أبنه يوسف كان حزينا وكاظما لحزنه خاصة وأن المسببين في حُزنه هم أبناؤه، وهكذا كان حال يونس عظيما في كظمه لغيظه على قومه الذين لم يطيعوه بداية هدايتهم من قِبلِهِ، قال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}187.

هذه الآية الكريمة جاءت للمقارنة بين رسولين عظيمين كريمين الرّسول صاحب الحوت (يونس) والرّسول الخاتم (محمّد) الذي طُلب منه أن يكون صابرا ولا يحزن على ما يفعل به وبصحابته الماكرون والكائدون والمنافقون من الكفرة والمشركين وأن يرضى بحكم الله فيهم فهو المكيد الأعظم وهو خير الماكرين، ولهذا فلا يحزن ولا يكظم الغيظ في صدره ونفسه كما كظمه صاحب الحوت (ذا النون) أي؛ أصبر يا محمّد فالله بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير، وسترى الحكم فيهم نافذا، ولهذا لا داعي لأن تغيظ وتكتم غيظك، فكل شيء بحسبان.

18 ـ مُفضَّل:

التفضيل تمييز بأسباب التميُّز وليس تفضيل على حساب آخرين، ولهذا فالتفضيل من أجل الآخرين ليس على حساب أحد منهم.

---

186 يوسف 84.

187 القلم 48.

والمفضَّل هو المتميِّز بذاته أو بفعله وعمله وأسوته الحسنة التي تمتلئ بالفضائل الحسنة والقيم الحميدة.

والتفضيل يتطلب المقارنة لأجل التوضيح والتبيان في دائرة الممكن والنسبية، ولا يتطلب ذلك عند انعدام المقارن به مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}188، وقوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}189.

والمفضلون عند الله عزّ وجلّ هم رفيعو الدرجات الموهوبون بنعمة من الله وفضل، وهم المجتبون الأبرار والصالحين العظام الذين فضلهم الله على العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ ربّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأيوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}190.

وعليه: فإن يونس من المفضَّلين على العالمين تفضيلا بما تميَّز به كما تميَّز غيره عنه بما ميَّزه الله تكريما له وخصوصية، ولهذا فإن اجتباء الله ليونس رسولا هو تفضيل ليونس على العالمين.

التفضيل الكريم لا يكون إلا من ذو الفضل العظيم الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) تعود هذه الآية على سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليقول أن ما آتاه من الله هو من فضله تعالى، فكما آتى يونس

188 النساء 87.

189 النساء 122.

190 الأنعام 83 . 86.

فضلا بتفضيله على من سواه بالرسالة والاجتباء والحفظ والعناية، كذلك كان فضله عظيم على سيدنا محمّد بالاصطفاء والرسالة الخاتمة للكافة، ولذا فالفضل يستوجب الحمد والشكر، خاصة لمن عمَّه الفضل العظيم.

ولأنّ الله تعالى ذو الفضل العظيم فهو بالتفضيل يختصُّ برحمته من يشاء اصطفاء واجتباء ونبأ ورسالة ورحمة واسعة مصداقا لقوله تعالى: (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ولأنّ الله يصطفي الرّسُل والأنبياء اصطفاء فالأمر فيه اختصاص بالرحمة والفضل لمن يشاء من عباده الصالحين، ومع أنَّ الأمر بيده تعالى إلا أنّ البعض لازال كفورا جهولا.

وقد يتساءل البعض عن الفضل بقوله:

ما هو الفضل العظيم؟

الفضل العظيم لا يحصى ومنه:

. إيجاد المخرج من كل ضيق.

. الحفظ من كل مكروه وسوء.

. المكر بمكر الماكرين.

. كيد الكائدين.

. الرزق من غير احتساب.

. إيتاء العلم.

. إيتاء الملك.

. إيتاء الحكمة.

. إيتاء السلطان.

. منح القوّة والقدرة في دائرة الممكن.

. نعمة العقل.

. الخلق في أحسن تقويم.

. نعمة السمع والبصر.

. نعمة التدبر والتفكُّر والتذكُّر.

. نعمة الاستغفار.

. نعمة التوبة.

. نعمة الطاعة.

. نعمة الإيمان.

. الإسلام.

. نعمة الصبر.

. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

. الأمر بالعدل.

. الإحسان بالوالدين.

. اتخاذ الأنبياء والرّسُل الكرام أسوة حسنة.

. عدم التفريق بين أنبيائه ورُسُله.

. التراحم بين النّاس.

. إغاثة الملهوف.

ـ قول الحقّ وفعل الحقّ.

ـ الجزاء بالجنّة.

قال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}191. قوله (سَابِقُوا) جاءت للجمع غير المحدد أي سارعوا أيها النّاس (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ) توجب لكم نيل الفضل والمغفرة منه وتحقّق لكم الفوز بالجنّة التي أعدت للذين آمنوا بالله ورُسُله صلى الله عليهم وسلَّم (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، وهذه المغفرة والجنّة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي أن المغفرة والفوز بالجنّة هما الفضل العظيم من ذو الفضل العظيم يؤتيه لمن يشاء، ولهذا الجنّة لا يلقاها إلا من له الفضل العظيم من الله تعالى، {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}192.

وقوله تعالى: (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) بطبيعة الحال الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء متى ما يشاء كيفما يشاء ولا أحد غيره يقدر على ذلك، ولذا فهو ذو الفضل العظيم، وليعلم أهل الكتاب أن الله الذي انزل عليهم التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن على محمّد وأمته لتكون الرسالة خاتمة وللناس كافة، وليعلموا أن في ذلك فضل عظيم فلا يضلوا ولا يشركوا بل عليهم أن يتّبعوا السبيل الحقّ الذي جاء به محمّد نبيا ورسولا خاتما.

---

[191] الحديد 21.

[192] فصلت 35.

وقوله تعالى: (وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) كل مسلم بالحقّ لا يشك في أنَّ الفضل بيد الله، ولهذا يتوجَّه إليه بالطاعة وطلب الرحمة، وكل مؤمن على الحقّ يعلم أن الله يؤتي فضله لمن يشاء كيفما يشاء ويعلم أن الله هو ذو الفضل العظيم سبحانه لا إله إلا هو جلّ جلاله.

ولأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم مفضَّل كريم من ذو الفضل العظيم كان من المرسلين ومن المسبحين الكرام، وكان قومه من الممتعين إلى حين مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}193.

19 . المؤمن قومه جميعا:

إيمان القوم الجمعي بالواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد لم يتحقّق إلا مع قوم يونس صلّى الله عليه وسلّم: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أحد اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أحد}194.

وقوم يونس لم يؤمنوا بسهولة ولا مباشرة أول ما تم تبليغهم من قِبل يونس بل في البداية كانوا مصرّين على الشرك ممّا دفع الرّسول يونس للذهاب عنهم مغاضبان وهو متوليا عنهم إلى حين مصداقا لقوله تعالى: {فتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ

---

[193] الصافات 139 . 148.

[194] الإخلاص 1 . 4.

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}195.

ثم بعد أنّ تولى عنهم وعاد إليهم آمن جميعهم تسليما مطلقا بالله ربّ العالمين لا شريك له فكانت لهم الأسبقية بالإيمان الجمعي، {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا أنهمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأنهمْ لَكَاذِبُونَ اصطفى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}196.

يُفهم من الآيات الكريمة السابقة أن عدد قوم يونس الذين بُعث لهم رسولا هم مائة ألف أو يزيدون وهؤلاء هم الذين آمنوا دون استثناء لأحد منهم.

وأولئك القوم الذين آمنوا جميعا تحقّقت لهم المتعة إلى حين (فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) وقوله إلى حين جاءت على احتمالات منها:

أ . إلى حين المؤقتة في الحياة الدنيا: وهذه إن كانت على هذا المفهوم تكون متعة قوم يونس طوال حياتهم بعد أن آمنوا جميعا، وهي تشير إلى نيلهم رضا الله تعالى الذي به يغفر لهم ما تقدم من ذنب كما يشاء الله دائما أن يغفر الذنوب لمن يهتدي إليه ويؤمن به بعد ظلال، ولهذا كان نوح صلّى الله عليه وسلّم داعيا لقومه لأن يهتدوا حتى يغفر الله لهم ما تقدم من ذنوب، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا

[195] الصافات 174 – 179.

[196] الصافات 147 . 153.

اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أجل مُسَمًّى إِنَّ أجل اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}197.

وخلال هذه الفترة إلى حين المؤقتة استفتهم يا يونس في قولهم هل حقّ أنّ الملائكة إناثا؟ (فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا أنهم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأنهمْ لَكَاذِبُونَ) فقوله (فَاسْتَفْتِهِمْ) أي استوضحهم وأُوضح لهم الحقّ حتى يتبينوا الحقّ من الباطل ليعرفوا أنه لا برهان لهم ولا حجّة ولا دليل على أن الملائكة قد خُلقت إناثا، وأوضح لهم يا يونس أن الخالق يخلق ما يشاء خلقا ولا يلد كما تلد المخلوقات فهو الذي بيده الأمر والمشيئة كيفما يشاء، ومتى ما يشاء، وأينما يشاء، وما يشاء، ومن يشاء سبحانه أنه القوي القادر بالمطلق، ولذا فهم قبل الإيمان كانوا على الإفك يقولون ممّا يقولون أنّ الله قد فضّل اصطفاء الإناث على البنين (أَلَا أنهمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأنهمْ لَكَاذِبُونَ اصطفى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ).

ولذا؛ فإنّ إيمان قوم يونس هو إيمان جمعي حيث لا استثناء لأحد منهم، ولهذا فالذي آمن به ومعه قومه جميعا هو الرّسول يونس صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه: لقد كان لقوم يونس رسول ورسالة، الرّسول هو يونس الكريم، والرسالة هي رسالة الهداية والتوحيد والتبيان للحقّ من الباطل.

والقوم هم الجمع من النّاس الذين تربّطهم علاقات تواصل دما وانتماءً وهم المعنيين بالأمر كما كان قوم يونس هم المعنيين بالرسالة.

ب ـ إلى حين الدائمة أي إلى حين الحياة الدائمة في الحياة الآخرة وهذه تتطابق مع دلالة المفهوم المستمد من إيمان القوم جميعا دون استثناء

---

[197] نوح 1 ـ 4.

يؤدّي إلى بقائهم على الإيمان إلى يوم يبعثون ولهذا جاءت (إلى حين) دالة على الديمومة في الحياة الباقية سرمديا.

20 . مُبشِّر:

المبشِّر هو الذي تكون على يديه البشرى، والبشرة خير يدل على ما هو خير، ولهذا فإن جميع الأنبياء والرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم هم بشرى خير أي هم المبشرين بالخير لأقوامهم وشعوبهم وأممهم وقراهم وللكافة.

ولأنّ الخير مُطلق وغير محدود فهو لا يكون إلا من المطلق الأعظم جلّ جلاله، ولهذا فالخير يتعدد ويتنوع ولا يُحصى.

ولأنّ جميع الرّسُل صلى الله عليهم وسلَّم هم مبشرين ومنذرين قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[198].

ولأنّ النّاس بعد أن ساد فيهم الكفر أصبحوا أمة واحدة على الكفر فبعث الله فيهم الرّسُل الكرام مبشرين ومنذرين لأقوامهم وشعوبهم وقُراهم وأممهم وللكافة ليهدوا إلى الصراط المستقيم مصداقا لقوله تعالى: {كَانَ النّاس أمة واحدة فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[199].

---

[198] المائدة 19.

[199] البقرة 213.

ومع أنَّ الرّسُل صلى الله عليهم وسلَّم هم المبشرين والمنذرين بالحقّ إلا إننا لم نعلم بأمر جميع الرّسُل الذين اصطفاهم واجتباهم الله ليكونوا مبشرين ومنذرين كما أعلمنا الله بيونس ورسالته التي بها بشَّر وأنذر قومه حتى آمنوا جميعا، ولذا فهناك من الرّسُل من أقصصهم علينا ومنهم من لم يقصص، ولذا فمن أقصصهم الله علينا علمنا بقصصهم في القرآن الكريم ومن لم يقصصهم علينا لا علم لنا بقصصهم، قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأيوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ورسلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ورسلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[200]، ومع أنَّ الله قد ذكر رسلا كرام في الآيات الكريمة السابقة إلا أنه لم يذكرهم جميعا في هذه الآيات الكريمة وإن ذكر من بينهم يونس صلّى الله عليه وسلّم (وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرسلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرسلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ).

ولأنّ البُشرى خير، والخيّر يُبشَّر به، والمبشِّر كما هو حال الرّسول يونس صلّى الله عليه وسلّم وجه خير؛ فالخير من الله تعالى يتعدد ولا يحصى ويُبشَّر به، ومن خيره الكثير المطلق الذي يُبشَّر به نذكر ممّا ذكر منه الله تعالى في كتابه الحكيم:

ـ الخير المنزَّل: هو الخير الذي بشَّرنا الله به يُنزَّل تنزيلا من عنده عزّ وجلّ سواء أحسِبنا له الحسابات في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع أم لم نحسب له حِساب فهو يُنزَّل على من خلق من غير طلب، ولهذا؛ فالله يختص بتنزيله ليرزق به من يشاء بغير حِساب، قال تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ

[200] النساء 163 . 165.

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ ربّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}201.

. السعي في ذكر الله خير: لقد أعلمنا الله في كتابه الحكيم بأن نذكره ذكرا كثيرا وذلك لأن ذكره تعالى هو خير لنا وخير علينا فبذكر تطمئن الأنفس والقلوب، ولهذا فمن الواجب علينا أن نُبشِّر بما يدعونا الله إليه لتَعُمَّ الرحمة في الأرض على الطاعة والعبادة، قال تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}202.

. قول المعروف خير: قول المعروف هو القول الذي تعارف النّاس عليه وهم يرتضونه بما فيه من خير لمن يقال له عندما يكون في حاجة لأن يقال له، قال تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}203.

. الصوم خير: الصوم فريضة من الله تعالى فمن صام وهو قادر على الصيام خاصة من بلغ سن البلوغ فإن الله يبشره بصيامه الجزاء الأوفى وهو الخير المطلق، قال تعالى: {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}204.

. الخير يُعمل: أعمال الخير الحِسان كثيرة ولا تُحصى فمن عملها وعمِل بها نال الجزاء الكريم من الكريم المطلق جلّ جلاله، قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بعيدا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}205.

---

[201] البقرة 105.

[202] الجمعة 9.

[203] البقرة 263.

[204] البقرة 184.

[205] آل عمران 30.

. الخير يُفعل: الفعل هو ما يَقدِم عليه الإنسان عن وعي وبيّنِة مع ترتيب مُسبق من أجل تحقّيق غايات عظيمة في نفسه، وكل ما يُفعل من خير الله يعلمه فهو يعلم الظاهر والباطن ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرضين وما بينهما، ولذا فقد بشَّر الرّسُل الكرام أقوامهم وشعوبهم وقراهم وأممهم والكافة بأن ما يُفعل من خير الله يضاعفه خيرا كثيرا لفاعليه، قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}206، وقال تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}207

. الخير يُنفق: بدون شك بما أن الخير يُنزَّل تنزيلا من الرزاق المطلق على عباده، لذا فالإنفاق منه على من هم في حاجة لشيء منه يُعد خير على كلٍ من المنفِق والمنفَق عليه، قال تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}208.

. الخير في إصلاح حال اليتامى: اليتامى هم من في حاجة للرعاية والعناية بحالهم وهم في حاجة لمن يُقدِّرَ حاجاتهم ويشاركهم بما يُفيد من أجل تحسين أحوالهم وتيسير أمورهم، ولهذا فالله تعالى يُبشرنا بأن الإصلاح لليتامى هو خير؛ فمن أراد خيرا له في حياته الدنيا فعليه بالإصلاح وخاصة في اليتامى، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ}209.

. الخير صفة خيّرة: بدون شك عندما يصبح الخير أفعال وأعمال وسلوكيات يصبح صفة لمن يفعله أو يعمل من أجله أو يتجسَّد في سلوكه

[206] البقرة 197.

[207] التغابن 17.

[208] سبأ 39.

[209] البقرة 220.

ولسانه مع فائق التقدير والاعتبار للآخرين، وعندما يَعُمَّ يكون الخير صفة جمعية عامة، ومن صفات الخير الخاصة والعامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع وافر الإيمان التام بأن ما يُؤمر به وما يُنهى عنه هو في مرضاة الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خيرا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}210.

. الصبر خير: الصبر على الحقّ ومن أجل إحقّاق الحقّ هو الخير الكبير؛ فمن فاز به فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، ولذلك الله يُبشِّر عباده على السِنَةِ أنبياءه ورُسُله الكرام ورسالاتهم العظيمة بالصبر الذي كان هو التاج المتوج على رؤوسهم، قال تعالى: {وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ}211.

. التقوى خير: التقوى تجنب الكفر والشرك والأقوال والأعمال والأفعال التي تؤدّي إليهما، ولهذا فمن يتقي الله يجد له مخرجا وفي كل حين، ومن يتقي الله يفوز بالحياة الآخرة ويفوز بالجنّة بيت الرحمة الدائم، قال تعالى: {وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى}212.

. الصلح خير: الصلح لا يكون إلا على أساس التفاهم والتفهُّم بين النّاس في طاعة الله بما أمر جلّ جلاله والانتهاء عمَّا نهى عنه، ولأن الصلح خير فلا ضرر ولا ضرار فيه، ومن أخذ أموره مع الآخرين مصلحا فقد فاز بالخير الكثير، وعلى هذا الأساس يكون الصلح بين الأزواج البشرية خير كلما دعت الفرصة إليه، قال تعالى: {وَإِنِ أمراةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا

---

210 آل عمران 110.

211 النساء 25.

212 الأعلى 77.

أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا مصلحا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ}213.

. الإصلاح خير: الإصلاح غير الصلح فالأول يترتب عليه الإعمار في الأرض بشكل غير محدد، والثاني تفاهم تؤسس القيم الحميدة عليه بين النّاس لتكون الحياة بينهم في مرضاة الله عزّ وجلّ، ولهذا فمن أراد أن يفوز بالخير الكثير عليه بالإعمار في الأرض وإصلاحها وألا يُفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ، قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}214.

. الغفران خير: الغفران بالمطلق فعل لا يفعله إلا الغفور المطلق جلّ جلاله، والغفران النسبي هو الغفران الذي بشُّرنا الله به فإن عملناه نلنا خيرا بفعله وإن غفلنا عن أفعاله العظيمة أو لم نقدِم عليه فضيلة مع النّاس فقد خسرنا خسرانا كبيرا، ولهذا فمن أراد الخير فعليه بالأعمال الحسان التي فيها الخير الكثير الذي تترتب عليه الرحمة الواسعة من الرّحمن الرّحيم عزّ وجلّ، قال تعالى: {أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}215.

. الانتهاء عن المنهي عنه خير: الانتهاء مقاطعة لِما يُحرِّم من الله تعالى ومقاطعة لكل ما من شأنه لا خير فيه، ولهذا فقد نهى الله عزّ وجلّ عن المفاسد وما يؤدّي إلى المهالك وسفك الدماء في الأرض بغير حقّ، ولهذا أمر بطاعته وطاعة رُسُله الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، قال تعالى: {وَمَا

---

[213] النساء 128.

[214] الأعراف 56.

[215] الأعراف 155.

آَتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}216 وقال تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}217.

. التوبة خير: التوبة عودة إلى الله بالطاعة التامة وتمسُّك به وأحدا أحد، ولهذا لقد بعث الله الرّسُل الكرام مبشّرين ومنّذرين من أجل خير الحياة وخير الممّات، قال تعالى: {فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}218.

. التواب خير: التواب يتم نيله بالأعمال الحسان التي تُسهم في إعمار الأرض وإصلاحها والذين يعلمون هم الذين آمنوا بالله تعالى وهم مهتدون بما هداهم إليه عزّ وجلّ من علم وحكمة، وهم أيضا يعملون على هداية الآخرين ويبشرونهم بأن التوبة والتواب خير فلا ينبغي أن يضل الإنسان ويشقى بل عليه بالهداية والتوبة إليه واحد أحدا، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صالحا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}219.

. الجهاد في سبيل الله خير: المجاهدة قد تكون بالمال وقد تكون بالنفس وفي كلا الحالتين هي بذل الجهد عن نية لا شيء ورائها إلا طاعة أمر الله في إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، ونصر المظلومين من النساء والولدان والقُصَّر والعجزة الذين يُظلمون وتُهتك أعراضهم وتسفك دمائهم بغير حقّ، ولهذا فمن جاهد في سبيل الله فقد نال خيرا كثيرا، قال تعالى:

---

[216] الحشر 7.

[217] الأنفال 19.

[218] التوبة 3.

[219] القصص 80.

{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}220.

. الاستماع للحقّ خير: الخير بدون شكّ قد يكون في الكلمة التي تقال وتُسمع وقد يكون في العمل الصالح، ولأن القول هو الذي يهدي للتي هي أحسن فمن استمع إلى القول الحسن فاز، ومن استمع لمن لم يعرف بعد القول الحسن من غير القول الحسن ونهاه عمَّا يقول فقد فعل خير عظيم، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}221.

. التوحيد خير: التوحيد لله تعالى ينزع الغل من قلوب النّاس المتفرقين على أربّاب من دونه عزّ وجلّ ولأن التفرق يؤدّي إلى الفتنة فالتوحيد يجعلهم على الكلمة السواء وإن بقوا عليها أصبحوا أخوة متحابين في الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، قال تعالى: {أَأَرْبَّابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الواحد الْقَهَّارُ}222.

. إيفاء الكيل والميزان خير: وذلك لأن إيفاء الكيل والميزان مأمور به من عند الله تعالى؛ فمن يعمل على ذلك ينال خيرا من خيرات الله في حياة رضا النّاس في مرضاة الله وفي الآخرة الفوز بالجنّة، قال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}223.

---

[220] التوبة 41.

[221] التوبة 61.

[222] يوسف 39.

[223] الإسراء 35.

. الرحمة خير: من يفوز بالرحمة فقد فاز بالخير الكثير الذي لا تُحصى فوائده ومنافعه، ولهذا فالتوجُّه إلى الله بالقول الصالح والفعل الصالح والمصلح والعمل النافع للناس محبَّة ومودة مع فائق التقدير والاحترام ينال مغفرة ورحمة من الرّحمن الرّحيم، قال تعالى: {وَقُلْ ربّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}224.

. الجنّة بيت الخير: لا باقٍ إلا الباقي المطلق الذي بيده أمر البقاء في الآخرة لمن فاز بأعماله الحسان، ولهذا بعث الله الرّسُل الكرام مبشِّرين لأقوامهم وشعوبهم وأممهم وللكافة بأنّ الآخرة هي الخير وهي دار البقاء الدائم في مرضاة الحي القيوم الدائم جلّ جلاله، قال تعالى: {وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}225، وقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}226

. الرزق خير: الرزق لا يكون إلا من الرزاق الأعظم الذي يرزق من يشاء وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: {وَرِزْقُ ربّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}227.

. الاصطفاء خير: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصطفى آَللَّهُ خَيْرٌ}228.

. الحسنة خير: الحسنة غير معرَّفة بما يحددها أو يحصرها في شيء بعينه فهي الحسنة التي تجمع كل الأقوال والأفعال والأعمال الحسان، ولهذا

224 المؤمنون 118.
225 الأعلى 17.
226 الحديد 21.
227 طه 131.
228 النمل 59.

فالحسنة تدل على جودة القول وحسنه والعمل وحسنه دون تزييف وتضليل، قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا}229.

. إيتاء الحقّ خير: الحقّ يؤخذ ويؤتى من قبل المؤتي المطلق الذي بيده الإيتاء المطلق، قال تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}230.

. الإنفاق في وجه الله خير: ولأنّ نعم الله لا تعد ولا تحصى لذا فهي تتنوع وتتعدد، ومع أنَّ الرزق خير محبب عند أصحابه فهو خير أعظم عند الله العظم جلّ جلاله، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}231.

. الصدقة خير: الصدقة جود وعطاء في مرضاة الله العزيز الكريم وهي خير عطاء وخير صدقة عندما تكون في مناجاة الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرّسول فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}232.

229 النمل 89.

230 الإسراء 26، 27.

231 سبأ 39.

232 المجادلة 12.

21 . مُنذِر:

النَّذْرُ في لسان العربّ هو"النَّحْبُ وهو ما يَنْذِرُه الإِنسان فيجعله على نفسه نَحْبا واجبا وجمعه نُذُور، ونُذِرَ فيه أي أَوجب من قوله نَذَرتُ على نفسي أي أَوجبْت، وقد نَذَرَ على نفسه لله كذا يَنْذِرُ ويَنْذُر نَذْرا ونُذُورا والنَّذِيرة ما يُعطي، والنذر إِذا أَوجبتَ على نفسِك شيئا تبرعا من عبادة أَو صدقة أَو غيرِ ذلك

المِنْذِر المعلِم الذي يُعْرِّف القومَ بما يكون قد دهَمَهم من عَدُوّ أَو غيره وهو المخوّف أيضا وأَصل الإِنذار الإِعلام يقال أَنذَرْته أُنْذِرُه إِنْذارا إِذا أَعلمته فأَنا مُنْذِر ونَذير أي مُعْلِم ومُخَوِّف ومُحذِّر ونَذِرْت به إِذا عَلِمْت ومنه الحديث انذَرِ القوم أي احْذَرْ منهم واستعِدّ لهم وكُنْ منهم على عِلم وحَذَرٍ"233.

الإنذار استباق بما يُحقّق المستقبل الأفضل ممّا يستوجب الإتباع لِما أنذر به أو التجنب حتى لا يقع المنذَر في المحظور، ولهذا جاء الاجتناب على مفهوم ما يُبعد عن المنهي عنه لما فيه من أذى أو ضرر أو مهالك، وعليه فإن جميع الرّسُل الكرام هم منذرين لمن بُعثوا إليهم مرسلين مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ}234.

ولأن يونس هو أحد الرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم فهو منذر لقومه بما آمره الله عزّ وجلّ أن يُنذرهم به، قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأيوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ

[233] لسان العرب، ج 5، ص 200.

[234] النعام 48.

وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرسلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرسلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ}[235].

وهكذا؛ فإنّ القاعدة تنص على أن الله تعالى (أرسل المرسلين مبشّرين ومنذرين) قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ وَاتَّخَذُوا آياتي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا}[236].

وعليه فالمنذر هو الذي يعلم قبل غيره بما يُنذِّر به الآخرين المكلَّف بإنذارهم، فالرّسُل الكرام يُعلِمهم ويُعلِّمهم الله بعلم من علم غيبه لظهره للناس المعنيين والمستهدفين بأمره فيبلغوا الرّسُل وينذروا بما أمرهم وأنذرهم به جلّ جلاله.

22 . حجّة:

الحجّة بيّنة حيث لا مجال للبس والغموض، ولذا فالرّسُل حجّة من الله للعباد، والحجّة الدليل والبرهان الحقّ الذي به يُدمغ الباطل حتى يزهق.

قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأيوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرسلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرسلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[237].

---

[235] النساء 163 . 165.

[236] الكهف 56.

[237] النساء 163 . 165.

ولأنّ يونس حجّة كغيره من الرّسُل الكرام كان جميعهم حُجج على أقوامهم حتى لا يكون للنّاس على الله حجّة، مصداقا لقوله تعالى: (رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسُل) أي بعد أن أرسل الله رُسُله صلى الله عليهم وسلَّم فلم يَعد للنّاس حجّة (معذرة) بأن لا يؤمنوا، فلو لم يُرسل الله الرّسُل لكان للناس ما يقولون، ولكن أن يبعث فيهم ولهم رُسُل كرام وبين أيديهم الحُجج العظيمة الدالة على وحدانية تعالى وصفاته الحسنى ومع ذلك البعض منهم لم يؤمن فهذه لابدّ وأن يترتب عليها العقاب الشديد للذين كفروا وأشركوا، فلو لم يبعث الله رُسُله لكان للناس ما يقولون ولكن بعد أن بعث لهم رُسُله فليس لهم ما يقولون وليس لهم بد إلا اختيار أحد الأمرين:

. أمر الإيمان واتباع الرّسُل فيكون لهم الجزاء الأوفى من مغفرة وتوبة والفوز بالجنّة.

. أمر العصيان والكفر والشرك ويكون لهم أمر العذاب الشديد الذي به سيكونون في النّار.

23 . محمود:

المحمود هو من كان على صفة الحمد لله والحمد من النّاس، والمحمود هو من تتطابق أقواله الخيّرة مع أفعاله الخيّرة ونيَّته الحسنة مع عمله الحسن.

والمحمود هو من يُثنى عليه ويُشكر ويُحمد على صفاته سواء أكان حمدا من الله تعالى أم أكان حمدا من النّاس، ولهذا فيونس كان محمودا من الله عزّ وجلّ وأصبح محمودا من النّاس بعد أن آمنوا به رسولا، مصداقا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ

مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ ربّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[238].

الآية الكريمة السابقة موجَّهة إلى سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليصبر على رسالته مع الكافة ولا يكون كصاحب الحوت الذي أرسل إلى قومه فقط وهم الذين يبلغ عددهم مائة ألف أو يزيدون، أي لا تجعل منهجك يا محمّد في حالة مقارنة مع المنهج الذي أتبعه يونس؛ فيونس منهجه كان صالحا لقومه المستهدفين برسالته إليهم، وأمَّا أنت فعليك بمنهج آخر يتناسب مع الكافة؛ فرسالتك إليهم هي الخاتمة ورسالة يونس كانت للجميع أي إلى جميع قومه، أمَّا أنت فرسالتك تتعدى الجمع إلى الكافة، ولهذا فالفرق كبير بين المنهج الجمعي (ليونس) وبين المنهج المستهدف الكافة (لمحمّد).

وصاحب الحوت هو يونس الذي نُبذ في العراء ونعمة ربّه متداركة له بالعناية والرعاية (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ) أي أنه نُبِذَ في العراء وهو غير مذموم بأسباب تدارك الله له بالعناية والرعاية، ممّا يدل على أنه نُبِذَ على الحمد لا على الذم، أي ولأنه غير مذموم بتدارك الله له فهو المحمود، والحمد لله ربّ العالمين.

وعليه لم يُنبذ يونس بالعراء وهو مذموم بل نُبذ وهو محمود (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)، ولذا يؤكد المفهوم العظيم للآية على أن كل من تداركته نعمة ربّه فهو محمود ومحظوظ، وإلا هل يُقبل أن يُقال على من تداركته نعمة ربّه كما هو حال يونس يقال عنه مذموم؟

أقول:

---

[238] القلم 48 . 50.

استغفر الله، ولهذا جاء الاستثناء الذي به تم تدارك يونس من النبذ في العراء وهو مذموم، أي جاء التدارك ليونس بنعمة من الله ممّا جعل الذم ينقلب إلى حمد ليكون يونس محمودا بنعمة الله وفضله وعنايته ورعايته التامة ليونس الذي حَمَده الله وابعد عنه كل ذم كما جاء في الآية الكريمة (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ).

وعليه: فإنّ الله تعالى لم ينه محمّد صلّى الله عليه وسلّم عمّا قام به يونس بل يرشده إلى الأخذ بالمنهج والأسلوب اللذين يتناسبان مع رسالة المصطفى للناس كافة، ولهذا لا مفاضلة في هذا الأمر ممّا جعل رسول الله ينهى عن القول بأنه خير من يونس، كما جاء في الحديث المروي عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"[239].

ولأنّ يونس قد اتبع منهجا وأسلوبا مؤثرين في قناعة قومه محدودي العدد إذا ما قورنوا بالمستهدفين برسالة محمّد (رسالة الكافة) فقد آمن كل القوم مع يونس وهذه تستوقف كل ذي عقلٍ ولعلها قد استوقفت محمّد حتى كاد أن يأخذ بالمنهج الذي اتبعه يونس مع قومه فجاء قوله تعالى منبِّهً لرسوله محمّد من أجل أن يختار ما يناسب رسالته من منهج وأسلوب يعتمد الحجّة للكافة من الجن والأنس.

وعليه: بدون شك ما يناسب القوم الواحد من النوع الواحد (الإنس) كما هو حال رسالة يونس لا يناسب مجموع الأقوام والشعوب من الثقلين (الأنس والجن) كما هو حال رسالة محمّد، (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

---

[239] صحيح البخاري، ج 11، ص 194.

ولأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم قد تداركته نعمة من ربّه تعالى بنبذه في العراء محمودا فقد اجتباه الله من بعدها وجعله من الصالحين وهذه من أكبر النعم التي أنعم بها الله على يونس (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

24 . بصير:

البصير هو الله تعالى ومن يستمد صفاته منه يكون بصيرا بأمره وبما يحاط به ويحوطه وبما يجري معه من أمرٍ، وما يتأمله عقلا وإدراكا وما يستمده استقراء واستنباطا، قال تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}[240].

مضمون هذه الآيات الكريمة يتعلق بسيدنا يونس كما يتعلق بغيره من الأنبياء الكرام صلى الله عليهم وسلَّم، وهذه الآيات جاءت مفاهيمها دالة على أهمية الانتظار والترقُّب مع الملاحظة والانتباه الواعيين من قبل يونس لقومه (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) هذه الآية الكريمة تدل على تولي يونس عن قومه بعد أن ذهب مغاضبا، ثم جاء قوله تعالى (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) دالا على أهمية ملاحظة ونظر يونس لقومه في المرة الثانية بعد أن آمنوا ليلاحظ الفرق بين حالتهم الأولى قبل الإيمان والحالة الثانية من بعد إيمانهم جميعا دون استثناء، وفي كلا الحالتين لم تكن نظرة يونس لقومه متطابقة، وكذلك لم تكن نظرة قومه له متطابقة، ولأنّه الحقّ قال تعالى: {سبحان ربّكَ ربّ العزّة عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}[241].

وعليه: لقد كان يونس بصيرا بحاله وحال قومه قبل إيمانهم وبعد إيمانهم، ولأنّه رسول مُرسل لقد كان طائعا لأمر ربّه الذي أمره بأن يبصرهم

[240] الصافات 174 . 179.

[241] الصافات 181، 182.

لأجل أن يعرف ويتعرّف على ما يؤثر فيهم سلبيا ليتفاداه وما يؤثر فيهم إيجابيا ليقدم عليه.

وفي اللغة بصر به نظر إليه، أبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، ورجل بصير مبصر خلاف الضرير، وفي التنزيل العزيز: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}242. ولذا؛ فالبصير هو الذي يُدرك الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر، والمبصر هو الذي يُدرك حقّيقة وجودها بالمشاهدة العينية.

وعليه: فالبصير يُدرك العلل والخفايا التي من وراء خلق الأشياء والمخلوقات، والمبصر فقط هو الذي يصف ما يشاهده ولا يدرك ما خلفه، وهذا الأمر المخفي هو الذي يعلمه ويدركه البصير. قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}243.

البصير هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط، ولهذا المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حد مشاهدة الإبل، بل يتعداها إلى معرفة الكيفية التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنا بأن من ورائها خالق عظيم يملك قوّة الخلق كله ويؤمن إدراكا أنّه الخالق الذي لا يُخلق جلّ جلاله.

يقول صاحب اللسان: أعلم الله أنّه يدرك الأبصار وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الإبصار أي لا يعرفون كيف حقّيقة البصر وما الشيء الذي به صار الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما

242 الأنعام 103.

243 الغاشية، 17 . 22.

من سائر أعضائه، فاعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير244.

والأبصار من جهة أخرى هو الاعتبار والاستبصار كما في قوله تعالى: {وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى العمى وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ}245. الضمير يعود للمخاطب وهو سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فالكفرة الفجرة يعرفون حجّة محمّد رسول الله ويجحدون الحقّيقة الآتي بها، ولذا فهم كالأعمى الذي فقد بصره فلا يرى شيء.

ومن ينظر إلى تاريخ الأمم السابقة يجد التاريخ ملئ بالعبر والمواعظ والحِكم والدروس والعواقب، قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}246. وقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}247.

ولأنّ الله قد أنعم على عباده بالبصر والبصيرة فهو يراهم في أحسن صورة وتقويم وهم مبصرون في آياته عزّ وجلّ وفيما يأمر بالبصر إليه والنظر فيه كما أمر سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم، وذلك ليكون نظر الناظرين إلى ما يسرّ النفس ويطمئن القلب، قال تعالى: {صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}248. ومع أنَّ النظر إلى البقرة الصفراء الفاقع هو نظر إلى المشاهد المحسوس إلا أن النظر بالبصيرة يرتقي إلى ما هو مجرد، ولهذا؛ فإنّ ما يسر أعيننا في الأشياء الخفية يرتقي بنا إلى نظرة البصيرة التي بها نتمكّن

---

244 لسان العرب، ج 4 ص، 66.

245 يونس 43.

246 الأنعام 11.

247 النمل 69.

248 البقرة.

من مراقبة الله في أفعالنا وأعمالنا فيكون لزاما علينا أن لا نغتب أحدا ولا نذم أحدا ولا نذكر غيرنا إلا بالخير وإلا فالصمت خير ويجب أن يكون تفكيرنا بالنظر العميق في مظاهر خلقه تعالى وهو الذي يوصلنا إلى ما يسرنا حقّيقة.

والتبصر في آيات الله بالباطن يكون بالإيمان العميق بربّوبيته العامة التامة فأنه لا يؤمن بأنّه ربّ كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء ولا يؤمن بتمام ربّوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير، أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به، قال تعالى: {يَا أيها النّاس اتَّقُوا ربّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاس سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}249، ولهذا؛ فما هو كائن منه ما يكون شيئا في العلم والذكر والكتاب ولا يكون في الخارج، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسبحان الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}250. وقال تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شيئا}251، أي لم تكن شيئا في الخارج، وإن كان شيئا في علمه تعالى، وقال تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}252؛ فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبيه، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنّه سميع بصير كمستخلف في الأرض بالطاعة فليس سمعه وبصره كسمع السميع البصير المطلق ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه إذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به وهي كما هو الأعظم جلّ جلاله.

---

[249] الحج 1، 2.

[250] يس 82، 83.

[251] مريم 9.

[252] الأنعام 115.

وقال تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)، يعني: الحُجج البيِّنة التي تدركون بها الهدى. والبصائر: هي البيّنات التي يُستدل بها على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، والحُجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) مثل قوله تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}253؛ ولهذا قال: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) أي: فإنما يعود وبال ذلك عليه، كقوله: {فَأَنها لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}254.

والبصائر هي مجموع الحِكم والحُجج والدلائل المحسوسة وكذلك الحواس التي بها تتم عمليات الإدراك، كالسمع والبصر واللمس والذوق والشم، والعقل الذي به تتم عمليات المشاهدة والملاحظة من خلال ما يقوم به من ربّط للظاهر والباطن.

وعليه: يتم استخلاف الإنسان ببصائره التي تُمكّنه من الإدراك الواعي والتمييز الواضح والإقدام على ما يجب في مرضاة البصير المطلق والابتعاد عما لا يرضيه جلّ جلاله وهذا ما فعله يونس صلّى الله عليه وسلّم طاعة لأمر الله الذي قال: (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ).

وعليه: فالخليفة البصير هو عميق البصر والبصيرة، وهو المتمكِّن من بلوغ الأشياء والتعرُّف عليها، وهو الذي يتبيَّن الأمر قبل الخوض فيه، وهو المحتكم بما حكم الله، وهو العادل بإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، أنه الذي يتعلم ويعلم ويعرف ويتعرَّف، ثم يقول أو يفعل بعد ذلك، {يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ

253 الإسراء 15.

254 الحج، 46.

لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[255] وقوله تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}[256] هؤلاء هم المبصرون حقّا، وهؤلاء هم المستخلفون في الأرض، وهؤلاء هم الوارثون.

ولذا؛ فالخليفة البصير هو الناظر إلى الأشياء بعين الحقّ فلا ينكر شيئا ولا يتعجب من شيء فهو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين وصفاته بعين اليقين وذاته بحقّ اليقين فالغائبات له حضور والمستورات له كشف.

ولأن الخليفة هو السميع لأوامر ونواهي البصير المطلق لذا فهو في نفسه بصير وفي أبنائه بصير وفي زوجه ووالديه بصير، ولمن له حقّ عليه بصير، وفي أداء عباداته بصير وفي تقلُّبه حين ينام وحين يقوم بصير، يصلي لله ربّ العالمين، ولهذا لا يركع ولا يسجد لسواه، يصوم ويزكي ويتصدق ويحج ويجاهد في سبيل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وإذا حكم بين النّاس يحكم بالعدل في خشيته لله بصير، وفي إدراك آياته بصير.

وعليه: فالقاعدة تنص على الآتي:

الخالق يبصر الأشياء والأشياء لا تبصر خالقها)، ولهذا بطبيعة الحال البصير المطلق خالق كل شيء فهو يرى الأشياء وهي لا تراه برغم وجوده

---

[255] النساء، 94.

[256] الحجرات، 6، 7.

وبرغم وجودها، ولهذا فالبصير هو مالك القوّة التي يكشف بها الخفايا مصداقا لقوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}257.

إذا البصير هو من يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة، والبصر هو الذي به تُرى الأشياء هي كما هي، ولا تخفى عليه خافية، ولهذا يستمد الخليفة بصيرته التي بها يكون مستخلفا في أحسن صورة وتقويم يصلح الأرض ولا يُفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ.

وبناء على قاعدة: (الخليفة يستمد صفاته الحسان من صفات مستخلفه) فإنّ البصير بالإضافة هو المستبصر أمره بأمر خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم، وهو من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون فتبارك الله أحسن الخالقين. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ إيمانهم فَأنهم غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خلقا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامة تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}258.

بناء على هذه الآيات الكريمة فإن الخليفة هو البصير بالأمور الآتية:

---

[257] غافر 19.

[258] المؤمنون، 1 . 17.

1 . بصير بفلاحه أي قيامه بالأعمال الخيرة التي يقدم على أدائها بإخلاص وإيمان ووعي تام بما يترتب عليها من جزاء في مرضات الخالق عزّ وجلّ، ولذا فالفلاح هو التوفيق والفوز بالأعمال الحسنة، ولهذا (فقد أفلح المؤمنون) حكم اعترافي بأنهم قد أفلحوا بما قَدِموا عليه من أفعال الخير التي كانت على علم البصير المطلق جلّ جلاله، ولذا فإن المؤمنون هم الذين قد أفلحوا مصداقا لقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ).

2 . البصير بالإضافة هو الذي يرى إعجاز الآيات التي يقرأها في صلاته فيخشع لله وحده، ولذا فالبصير هو المدرك لمعقبات ما يقرأ من آيات قرآنية فيزداد خشوعا مصداقا لقوله تعالى: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

3 . (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)، هم: الخلفاء الذين يخشون البصير المطلق الذي يعلموا بواحديته ويؤمنون بها ويعلمون أنه يعلم ما يعلمون وما لا يعلمون، ويتوبون إليه خاشعين فما لا يعنيهم من قول أو فعل لا يلتفتون إليه، ولا يجرحون به أحد، وذلك لعلمهم بأمر البصير الذي يعلم أمرهم ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وعدها عدا، ولأنّ الذنوب تسجل اللغو ذنبا فهم عن اللغو معرضون.

4 . (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)، هم المؤمنون حقّا الذين بإيمانهم يُبصرون ويستخلفون في الأرض، يخشون الله ويعملون على إحقّاق الحقّ فيخرجون الزكاة طهارة عمَّا يملكون وطهارة لأنفسهم بالطاعة التامة لله ربّ العالمين.

5 . (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ إيمانهمْ فَأنهمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)، طاعة لأمر الله تعالى، وتهذيبا لأخلاقهم وتمسكا بفضائل المجتمع المستخلف في الأرض على القيم والفضائل الخالدة بمحبة

الله عزّ وجلّ، فالمبصرون بالإضافة هم الممسكون لفروجهم عن الحرام، وذلك لأجل حفظ النوع بعد طاعة الله في أمره، ولهذا فهم المستخلفون بالحلائل لا بالمحرمات، والحلائل هي المستثنية وهي: (أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ إيمانهمْ).

6 . (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)، فمن ابتغى ألا يكون من المستخلفين فهو من العادين الذين يتعدون حدود الله في أمره ونهيه، والبصير من العباد هو الذي يُبصر الحقّ فيتبعه ويعلم الحقّ فيطيعه، ولذا فهو المنتهي عما نهى الله عنه والطائع له بالمطلق.

7 . (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)، الرعاية: انتباه وعناية واهتمام من أجل السلامة والحفظ من كل حاجة أو سوء، ولذا فالمبصرون هم الذين لأماناتهم وعهودهم راعون. أي محافظون على العهد وراعون للأمانة حفظا بعدم النقض أو الخيانة مع الرعاية التامة لذلك.

8 . (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)، البصير هو المدرك للحقّ ومتَّبِعه، ولذا فالذين يحافظون على صلواتهم هم الخلفاء الذين التزموا بأمر الطاعة لله وحده لا شريك له، ولهذا فهم المداومون على أدائها في أوقاتها لإدراكهم أنها الحقّ الذي يستوجب الطاعة التامة. قال تعالى: {إِنَّ الصّلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[259].

9 . (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، الذين يمتلكون الصفات الحسان السابقة الذكر هم المبصرون الذين سيرثون جنة الفردوس بالخلود فيها أبدا، ولذا فمن يعمل صالحا في الدنيا يوحّد الله

---

[259] العنكبوت، 45.

طاعة تامة لا شريك له، ويتزكى ويصلي ويصوم ويؤدّي الفرائض وينتهي عن النواهي المنهي عنها، فيفوز بالجنّة وهو من الوارثين.

10. (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)، العودة إلى أصل خلق الخليفة وهو الطين الذي هو من أديم الأرض ومن مكوناتها، ولهذا فالبصير هو الذي يُدرك أصل خلقه فيقدِّره ويعرف خالقه فيعبده واحد أحد لا شريك له، ويعرف من أبلغه بالمعجزات أو جاء بها فيصلي ويسلم عليه ويتبع سنته في مرضات الله، ولهذا فللأرض أهمية، فيعمل البصير على إصلاحها ولا يُفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حقّ، وللخالق الطاعة التامة بالوحدانية ركوعا وسجودا حتى الفوز برضاه، ويتَّبع السنة الشريفة حتى يتشرف بتباع الحقّ هو كما هو، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[260].

11 . البصير المطلق جلّ جلاله يبين للبصير بالإضافة ممّا خُلق والكيفية التي بها خلق، والتطورات والتغيرات التي تصاحبه في كل فترة زمنية وفي كل مرحلة عمرية ليبصر القدرة التي خلقته والقوّة التي لا تماثلها قوّة حتى يؤمن ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا، ولهذا جاء قوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) القرار المكين هو رحم المرأة، المقر المناسب لنمو الجنين والحفاظ عليه مع وافر العناية والرعاية التي لا تجعله في حاجة لسواه مادام في نموه الجنيني في القرار المكين.

12 . (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)، تطوُّر وتغيُّر جديد على الجنين يضاف إلى التغير السابق، أي أصبح على حالة من التماسك والتعلق بالدورة الدموية للأم فيتغذى من غذائها.

---

[260] الحشر، 7.

13 . (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً)، أي؛ بدأ التشكل من اللحم يأخذ صوره ليقتربّ من مرحلة أخرى تضيف إليه شيئا جديدا. ولهذا قال تعالى: {وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}261. وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}262. وحتى لا توسوس الأنفس وتظن في غير محله فإن الخالق هو الذي خلق الأشياء وخلق من الأشياء خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

14 . (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، بدأ الهيكل يأخذ شكل لإظهار الصورة، بدلا من كتلة اللحم الخالصة التي تكونت من العلقة. إن المتتبع لخطوات الخلق إذا كان بصيرا يدرك الإعجاز في كل مرحلة من مراحل الخلق والنمو فتبارك الله أحسن الخالقين.

15. (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا) لا يدرك هذه المعجزة إلا بصير ذو عقل وبصيرة حتى يرتقي إلى معرفة الكيفية التي بها تتم عملية الخلق وهي القدرة المطلقة للخالق المطلق عزّ وجلّ، فكسونا: تعني لقد تمت تغطية العظام باللحم المستمد من المضغة المستمدة من العلقة القارة في المكين المستقر في رحم الأم التي هي في أصل خلقها من طين.

16 . (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خلقا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، أصبح الجنين مولودا متكاملا له صفة الإنسان الذي قال عنه جلّ جلاله: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}263. ولهذا تبارك الله أحسن الخالقين، والتبارك هنا مضاعفة المحاسن حتى يصبح الخليفة موصوفا بأحسن التقويم إذا ما قورن بغيره من الخلائق.

---

261 السجدة، 27.

262 ق، 16.

263 التين، 4.

17 . الذي لا بصيرة له لا يدرك المعجزات في صور الخلق المتعددة كما هو مبين في مراحل التطور تلك، والمبصر من العباد هو فقط الذي يتدبر الكيفية التي عليها قد تم الخلق إعجازا لإدراك الخالق المطلق، وهذه ميزة تميزه عن بقية المخلوقات التي لم تدرك ما يدركه من خُلِق في أحسن تقويم، ومع ذلك فالمؤمن المستخلف في الأرض يعلم أن النهاية مرحلة من مراحل التطور التي بها تُطوى المسافة بين الدنيا وزخرفتها وبين الآخرة والجنّة التي هي غايته المطلقة، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ}264.

18 . (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامة تُبْعَثُونَ)، الخليفة المبصر كما أدرك مراحل الخلق والتطورات والتغيرات التي تصاحبها نموا، يدرك أيضا أن الموت مرحلة من مراحل النمو التي تؤدّي إلى يوم البعث لتكون الحياة الحيوان لمن اتقى فوزا بالجنّة، وتكون جهنم لمن كفر وأشرك بربّه الواحد الأحد عذابا شديدا.

19 . (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)، تنبيه لا يدركه إلا مبصر، الذي يعلم من علمه تعالى أنه خالق السماوات السبع وهي: الطرائق السبع والأراضي السبع، والتنبيه يقصد به: الخليفة في الأرض فقط، والطرائق السبع هي أعلى من الأرض وفي هذا العلو الذي يملأه الله المبصر المطلق فهو لم يكن بغافل عما عملت أيدي النّاس وما أضمرت نفوسهم وما ظنت عقولهم في الأرض السفلى فتبارك الله أحسن الخالقين والحمد لله ربّ العالمين الذي جعل لنا بصرا وبصيرة ندرك بها الآيات العظام وندركه بها وأحدا أحدا لا شريك له ونخلفه بالطاعة والإيمان لا إله إلا هو.

[264] المؤمنون 15.

قال تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}265.

ولأنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم مبصرا وعلى بيّنة جاء قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) أي؛ تولى عنهم يا يونس ولاحظهم بعد التولي عنهم هل هم قد استرشدوا أم أنهم لم يسترشدوا لِما يجب أن يرشدوا إليه فإن استرشدوا لا عذاب يلحقّهم وإن لم يسترشدوا سيكون لهم العذاب لا محالة وليعلموا إن الذين تحقّ عليهم كلمة ربّك لابدّ وأن يروا العذاب الأليم، ولذا فالقرية التي تؤمن ينفعها إيمانها، فآمن قوم يونس مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حقّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ ربّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آية حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إيمانها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}266.

إذا بالنظر في الشيء والتمعُنَ فيه يتم التبيُّن والاستيضاح ويتم التقييم الذي يُمكِّن من استصدار الأحكام بموضوعية ويُجنِّب الاستعجال كلما تقدم الصبر عليه، سواء أكان هذا النظر والاستبصار في الآخرين أم في الأنفس، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}267.

في الآية الكريمة السابقة استغراب تساؤلي: أنّ الأنفس التي لا تدرك حقّيقة أمرها لم تبصر حالها، ولذلك الخليفة مع استغراب هذه الآية يستغربّ كيف لا يدرك الإنسان نفسه ليبصر أمره وما يربّطه بالخالق العظيم جلّ جلاله، ويستمر الاستغراب مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا

[265] الصافات 174 . 179.

[266] يونس 96، 98.

[267] الذاريات 21.

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}268، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}269، وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأنها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}270.

قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاس كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}271.

وإذا ما خرجنا من باطن الإنسان لنبصر ونرى ما حولنا من الأشياء الدقيقة والكبيرة فإننا يجب أن ننظر إليها بعقلنا وفكرنا وكيف تسير وفق نظام دقيق لا اختلال فيه فهذه الكواكب وهذه النجوم (الشموس) والمجرات والأجرام بمختلف الأحجام تسير في مسارات على شكل دوائر تعرف بالمدارات؛ فإذا نظرنا إلى مجموعتنا الشمسية نجدها تسير وفق نظام عجيب فكل كوكب له مدة تختلف عن غيره في دورانه حول نفسه وحول الشمس. ولننظر إلى القمر كيف جعله منيرا مصداقا لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سراجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}272، وكيف جعل الشمس سراجا وهاجا {وَجَعَلْنَا سراجًا وَهَّاجًا}273. ولنقتربّ إلى كوكبنا ماذا ينتج عن هذه الدورة التي يلفها حول نفسه لنبصر ما نتتج

---

[268] محمد 24.

[269] الأعراف 179.

[270] الحج 46.

[271] الأنعام 122.

[272] الفرقان 61.

[273] النبأ 13.

عنها الليل والنهار، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامة مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}274.

في جميع الآيات الواردة بالمبصرين والتساؤلات التي تتضمنها تربّط العقل والإدراك والتبيُّن وذلك لأجل المعرفة عن وعي تام، وفي معظمها تفطين يستهدف العقول والقلوب والأنفس إلى الانتباه بما هو ملاحظ أو مشاهد وقابل للتعرف عليه، أو التعرف به كدليل إثبات لا شك فيه.

25. منصور:

والنصّر كما جاء في لسان العربّ هو: "إِعانة المظلوم نصَره على عدوّه ينصُره ونصَره ينصُره نصرا"275.

ولأنّ الناصر تعالى ينصر بنصره من يشاء من عباده فكان نصره سببا لنُصرةِ من شاء، ولهذا كان نصره تعزيزا ورحمة على الذين شاء الله أن ينصرهم مصداقا لقوله تعالى: {بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}276.

وعليه: فالنصّر هو المترتب على ما يُقدَّمَ من جهد في سبيل تحقّيقه، وهو لا يتحقّق إلا بامتلاك القوّة والقدرة ولا يكون على المستوى البشري إلا على يد من يمتلك الإرادة مع الاستطاعة من حيث:

أ. التهيؤ: هو تطلُّع ورغبة وتأهب لتلبية النداء متى ما صدر من مصدره الحقّ، ومن لم يكن متهيئا يكون متثاقل إلى الأرض وهو راضيا بالحياة الدنيا ولا يكون من المتطلّعين إلى الحياة العليا التي فيها فوز ونصر

274 القصص 72.

275 لسان العرب، ج 5، ص 210.

276 الروم 5.

كبير، قال تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شيئا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأيدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}277.

ب ـ الاستعداد: إعداد العدة التي تُمكّن من دخول الميدان دون خسائر أو بأقل ما يمكن من الخسائر، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوّة وَمِنْ ربّاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}278.

ج ـ الفعل: دخول ميادين القتال وميادين العمل بعزيمة وقوّة مع تيقُّن بأن النصّر حليفا لمن يقاتل في سبيل الله تعالى، كما جاء في الكتاب الحكيم: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}279، وقال تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}280

277 التوبة 38 ـ 40.

278 الأنفال 60.

279 البقرة 191، 192.

280 الأنفال 15، 16.

وعليه نقول:

يتحقّق النصّر بتوفر أمور منها:

. الإيمان بأن النصّر حقّ وليس للمرء بدا إلا بلوغه طاعة في سبيل الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أحدى الطَّائِفَتَيْنِ أنها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحق الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحق الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ ربّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصّرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}281.

. انتزاع الخوف من النفس انتزاعا، قال تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ ربّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النصّرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}282.

. قبول التضحية بالأموال والأنفس، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}283، ولذلك الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم هم أولياء بعضهم بعضا والذين آمنوا ولم يهاجروا لا ولآية لهم حتى يهاجروا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

[281] الأنفال 7 . 10.

[282] آل عمران 125 . 127.

[283] النساء 95، 96.

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النصّرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[284].

. إظهار القوّة دون تردد ولا رأفة على المعتدين إلا إذا جنحوا للسلم، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[285] وقال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أنه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[286].

. القدرة على المغالبة وهي لا تكون إلا بغرس الثقة في النفس لتطمئن بما هي عليه من قوّة إيمانية صامدة وهي غير قابلة لأن تهتز فلا تهزها الرياح متى ما هبَّت عليها من قريب أو بعيد.

. الصبر على الألم دون مقابل استسلام لضغوطه المؤلمة، قال تعالى: {يَا أيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[287].

---

[284] الأنفال 72 . 75.

[285] التوبة 14، 15.

[286] الأنفال 61.

[287] آل عمران 200.

قال تعالى: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}288.

يُفهم من هذه الآية الكريمة ممّا يُفهم منها أنَّ العباد المؤمنين يخافون الله ويتقوه ويسعون دائما لمرضاته تعالى ويتضرعون إليه ملاطفة وتأدبا ومحبة ومودة أن لا يحمِّلهم ما لم يستطيعوا حمله حتى لا يفشلوا فيما يُحمِّلونَ به ولذا كانت لهم أربّعة مطالب في الآية الكريمة السابقة كل مطلب منها يُستمد من صفة مستمد من اسم من أسماء الله تعالى الآتية:

أ ـ من اسمه العفو (وَاعْفُ عَنَّا).

ب ـ من اسمه الغفور (وَاغْفِرْ لَنَا).

ج ـ من اسمه الرحمن (وَارْحَمْنَا).

د ـ من اسمه الناصر (فَانْصُرْنَا).

وفي كل هذه الصفات السابقة نصر، وإلا هل هناك من لا يعرف أن في صفة العفو محقّقات للانتصار؟ فالذي طلب العفو من العفو المطلق واستجاب له في طلبه ألا يعد من الذين ناصرهم ونصرهم الله في تحقّيق مطالبهم؟

وهكذا بالتمام بالنسبة لمن طلب المغفرة من الغفور المطلق جلّ جلاله واستجاب له في طلبه ألا يُعد هو الآخر قد فاز بنصرٍ من الغفور الذي جازاه غفرانا؟

وكذلك نيل الرحمة فهي لا تنال بالمطلق إلا من الرحمن تعالى الذي إن استجاب وهب رحمة من رحمته الواسعة لمن تضرَّع إليه في طلبه وبنيل العبد

[288] البقرة 286.

الرحمة استجابة لطلبه ودعائه الذي أخلص فيه الدعاء إليه تعالى يكون من الفائزين والمنتصرين باستجابة الرحمن لدعائه.

ولذلك نقول:

في كل صفة من صفات الله تعالى تتداخل بقية صفاته الكريمة، وإلا هل يمكن أن يكون كريما لو لم يكن قويا وقادرا ومالك للملك وفعَّال لما يُريد؟ وهكذا الرحمن هل يمكن أن يكون الرحمن لو لم يكن قويا وقادرا ومالك للمك وعزيزا وودودا وكريما وهكذا كل الصفات تتداخل كما سبق أن بينَّا ذلك في موسعتنا أسماء الله الحسنى وأثرها على استخلاف الإنسان في الأرض.

وقد يتساءل البعض:

هل يمكن أن يتحقّق النصّر إن لم يكن من ورائه مناصر مطلق؟

بطبيعة الحال لا يمكن أن يتحقّق النصّر بدون صفاء نية وإخلاص في العمل ومجاهدة نفس والقبول بدفع الثمن بإرادة، فالإنسان وإن جاهد بكل ما لديه من قوّة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد تواجهه قوّة أخرى من إنسان آخر تفوق قوته قوّة فتهزمه بثمن أو بدون ثمن، ولكن المؤمنين حقّا هم الذين لا ييئسون ولا يقنطون من بلوغ الغايات العظام، ولهذا نفوسهم مطمئنة لما يلم بهم ابتلاءً أو يلم بهم انتصارا.

ولأنّ الإنسان وإن امتلك القوّة المادية فهو لن يبلغ القوّة المطلقة وإن كان قويا فهو في دائرة النسبية يدخل مجالات المقارنة ممّا يجعله مره أقوى وأخرى أقل قوّة وثالثة متوسط القوّة ولهذا فهو معرض للهزيمة مع كل مقارنة من المقارنات الثلاثية السابقة، ولن يتحقّق له النصّر إلا بانبعاث القوّة فيه من قوّة الناصر المطلق الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

ولأنّ الناصر هو القريب وهو السميع المجيب والعليم الحكيم فهو مالك الملك والقوّة والقدرة وكل الصفات الحسنى لذا لا استغراب في مناصرته لمن يناصر الحقّ إحقّاقا ويزيح الظلم حقّا.

وقد يتساءل سائلا رغبة لاطمئنان قلبه:

هل الناصر ناصرا للعامة أم للخاصة؟

نقول:

أنّه الناصر لكلاهما؛ ولكن لكلٍ سبيله في المناصرة.

فالعامة الأبواب مفتَّحة أمامهم إن شاءوا وعملوا، ولذلك فالناصر ربّ العامة والخاصة، وإن لم يشاءوا ولم يعملوا فلن يكون لهم النصّر ملازما.

أمَّا الخاصة هي الفئة المتهيئة والمستعدة والعاملة على نيل النصّر وانتزاعه بالقوّة إرادة دون ظلم أو إفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ، وهؤلاء هم أنصار الحقّ لله تعالى ولأنهم كذلك سيجدون الناصر الذي بيده الأمر والنهي ميسرا لهم النصّر الذي لن يتحقّق إلا على أيديهم ولهذا المتثاقلين إلى الأرض فئة لا يتحقّق على أيدهم النصّر مصداقا لقوله تعالى: {يَا أيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شيئا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأيدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}289.

[289] التوبة 38 . 40.

إذا النصّر لا يتحقّق إلا بامتلاك الحجّة والإخلاص في العمل، ولأن الأمر متعلق بامتلاك الحجّة والإخلاص في العمل، فإن الحجّة مهما عظمت لن تكون بيد الإنسان إلا في دائرة الممكن ودائرة النسبية ولهذا كل إنسان هو في حاجة لمن يناصره لأجل بلوغ النصّر، ولذا جاء الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم مناصرين للحقّ وأهله، وجاء العلم مناصرا لمن ألم به، ولكن مهما المَّ الإنسان من العلم علما فلم يؤت منه إلا قليلا ولهذا فهو في حاجة لمن يمتلك مقاليد القوّة التي بها يتحقّق النصّر، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}290.

يُفهم من الآية الكريمة السابقة أن أنصار الحقّ هم أنصار الله، ولهذا بعث الله تعالى الرّسُل مناصرين للحقّ، وأنزل الكتاب مناصرا للحقّ، وجاء العدل إحقّاقا للحقّ ليقوم النّاس بالقسط، وأنزل الحديد قوّة وفيه منافع كبيرة للناس الذين أُلِين لهم والذين نوّعُوه وسيلة مصنوعة للدفاع والحماية وتحقّيق النصّر، وعليه أقول لا نصر إلا بالإقدام والعمل وقوّة الإرادة وشدة العزيمة لا بالتثاقل أو الانسحاب من ميادين العمل الحقّ، قال تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

ولأنّ الله تعالى هو النّاصر وهو النصّير كانت كلمته قد سبقت لعباده المرسلين الكرام صلى الله عليهم وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ أَنهمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ}291

ولذا؛ فلا منصور إلا ومن ورائه نصير له ولا نصير بالمطلق إلا النصّير المطلق جلّ جلاله.

---

[290] الحديد 25.

[291] الصافات 170، 171.

النصّير اسم صفة للملازمة الداعمة بالقوّة والقدرة مع من يستوجب المناصرة، ولِذا عندما يعلم المناصر بأن النصّير المطلق معه أينما يكون تشتد قوته وتتعاظم بشدة وقوّة النصّير جلّ جلاله، فيُهزم التردد ويقلع الخوف وتطمئن الأنفس.

وعليه نقول:

النصّير هو الذي يمتلك مقاليد القوّة والقدرة ويعلم مكامن الضعف في المعتدين والظالمين فيزدها ضعفا على ضعفها ويعلم مكامن القوّة في المدافعين عن الحقّ فيزدها قوّة على قوتها مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}[292].

أمَّا النصّير على المستوى البشري فهو المتأهب غير المتردد والمستعد غير المتأخر عن الإقدام على مناصرة الحقّ وأصحابه وهو من يمتلك القوّة ويوظفها عن إيمان راسخٍ لا عن عاطفة مؤقتة.

والعبد النصّير هو من يستمد صفته وقوته من صفة النصّير المطلق جلّ جلاله فلا يتأخر عن موعد مناصرة وهو على بيّنة وإرادة من أمره والأمر الذي من أجله كان نصيرا {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ

[292] آل عمران 124 . 127.

هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نصيرا}293.

الخطاب التساؤلي في هذه الآية الكريمة موجّه للمؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين، أي لماذا لا تقاتلوا الظالمين الذين يعتدون على الضعفاء منكم من النساء والرجال والولدان الذين يدعون الله سرا وعلانية بأن يجد لهم مخرجا من هذه القرية التي طغى فيها الكفرة والمشركين على المستضعفين الذين لا قوّة لهم سوى دعاؤهم الله تعالى بأن يجعل لهم من يناصرهم على الأعداء ويخرجهم من هذه القرية، لذا جاءت المخاطبة لأنصار الله وهم المؤمنين حقّا فقاتلوا في سبيله مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}294.

يُفهم من هذه الآية أن الذين يقاتلون في سبيل الله هم الأنصار والذين يقاتلون في سبيل الطاغوت هم الكفرة الفجرة، ولهذا فالنصّير المطلق يناصر من ناصره ويتولاه رعاية وعناية وحفظا حتى يخرجه من الظلمات إلى النور مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}295.

وعليه: فالنصّير لا يمكن أن يكون بعيدا، فإن كان بعيدا يكون من الغائبين عند الضرورة والحاجة، ولا يمكن أن يكون جاهلا فإن كان جاهلا فقد المعرفة التي بها يتمكن من اتخاذ قراره عن وعيا وإرادة حرة متى شاء كيفما شاء أينما شاء مع من يشاء، إذا لابدّ أن يكون النصّير قريبا

---

[293] النساء 75.

[294] النساء 76.

[295] البقرة 257.

ويكون عالما، ولهذا كان النصّير المطلق أقربّ إلينا من حبل الوريد مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}296، وقربّه إلينا أقربّ من حبل الوريد يدل على حضوره الدائم وعلمه الدائم الذي لا يحتاج لمن يُنبههُ أو يدعوه أو يناديه فالمناداة لا تكون إلا للبعيد أمَّا القريب فهو الذي يرى ويسمع قبل أن نرى ونسمع، قال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}297.

بطبيعة الحال إن لم يكن النصّير سميع بصير فكيف له أن يكون مناصرا، فالمناصرة تُطلب في كل كبيرة وصغيرة فهي لا تقتصر على الأشياء الظاهرة فقط بل تتعداها إلى الباطن وإلى ما كان متناهيا في الصغر والدقة ولهذا لا يمكن أن تتحقّق المناصرة على أرض الواقع إن لم تكن صفات وأفعال المناصر على الإطلاق، حتى يستطيع أن يعلم وينبأ بكل كبيرة وصغيرة، قال تعالى: {إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}298.

ولأنّ الله نصير لمن ينصره فلِمَ لا نقيم له الصّلاة؟ ولِمَ لا نؤتي في سبيله الزكاة؟ ولِمَ لا نعتصم به وأحدا أحدا؟ قال تعالى: {فَأَقِيمُوا الصّلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النصّيرُ}299، ولأنّه نِعم المولى ونِعم النصّير فنِعمه تتعدد ومناصرته تتعدد على أوجهٍ منها:

[296] ق 16.

[297] المجادلة 1.

[298] لقمان 16.

[299] الحج 78.

1 . إنَّ الله نصيرا لمقيمي الصّلاة، قال تعالى: {فَأَقِيمُوا الصّلاة إِنَّ الصّلاة كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}[300].

2 . نصيرا لمؤتي الزكاة، {وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[301].

3 . نصير المعتصمون به واحد أحد لا شريك له في الملك والأمر، {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}[302]

4 . نصير لِمن يُحقّ الحقّ ويُزهق الباطل، {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[303]

5 . نصير لِمن يأمر بالمعروف وينهى عن النكر، قال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أمة قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيات اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيراتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}[304].

6 . نصير لِمن استغفره وتاب إليه، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ

[300] النساء 103.

[301] البقرة 110.

[302] النساء 146.

[303] الأنفال 7، 8.

[304] آل عمران 113 . 116.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}305، وقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}306

7 . نصير للصائم طاعة لله تعالى، {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أيامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خيرا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}307

8 . نصير لمن حجَّ إلى بيته الحرام، {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيات بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}308.

9 . نصير لِمن جاهد في سبيله تعالى، {لَكِنِ الرّسول وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخيراتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}309.

---

[305] آل عمران 135، 136.

[306] النساء 110.

[307] البقرة 183 . 185.

[308] آل عمران 96، 97.

[309] التوبة 88، 89.

10 . نصير لِمن آمن به وبملائكته وكتبه ورسله، {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}[310].

11 . نصير لمن آتى المال على حُبِّهِ ذوي قربَى ويتامى ومساكين وأبناء سبيل والسائلين وفي الرقاب مصداقا لقوله تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}[311].

12 . نصير لِمن أوفى بعهده إذا عاهد مصداقا لقوله تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا}[312].

13 . نصير للصابرين في البأساء والضراء مصداقا لقوله تعالى: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[313].

14 . نصير لِمن لا يلبس الحقّ بالباطل ولا يكتمه، {وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[314].

15 . نصير لِمن يستجيب له، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[315].

---

[310] البقرة 177.

[311] البقرة 177.

[312] البقرة 177.

[313] البقرة 177.

[314] البقرة 42.

[315] البقرة 186.

16 . نصير لِمن يقرضه قرضا حسنا، {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خيرا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}316.

17 . نصير لمن يتصدَّقَ من حلاله، {إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ}317

وعليه أقول:

النصّير جلّ جلاله سُمِّي نصيرا لأنه كثير المناصرة دون انتظار مقابل.

وعليه المناصرة حقّ بين المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله تعالى وأحدا أحدا لا شريك له، له الملك وبيده الأمر، لذا يجب على العبد أن يكون نصيرا للحقّ وأصحابه ولأجل بلوغه ذلك فعليه بأمور منها:

أ . العلم الذي به يتعلَّم الحجّة.

ب . العمل الذي بع يكتسب الخبرة.

ج . الإيمان الحقّ الذي به يصبر حتى يكون أسوة حسنة.

د . الحكمة حتى يتصف بها في قوله وفعله.

ولذا فمن لا يكون على هذه الفضائل لا يمكن له أن يكون نصيرا ومن يستمد صفاته من النصّير المطلق يوصف بأنه نصيرا.

والناصر في الوقت الذي يناصر فيه عباده الصالحين والمصلحين في الأرض وهم مؤمنين في الوقت ذاته ينتقم من الذين يظلمون مصداقا لقوله

---

[316] التغابن 16، 17.

[317] يوسف 88.

تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رسلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}318. ولهذا فالناصر جاء اسم من أسمائه الحسنى محقّقا للرحمة على الوجهين:

1 . وجه النصّر: (وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ).

2 . وجه الانتقام: (فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا).

وعليه: لقد جاءت الرحمة نصرا متراتبا في دائرة المنطق من حيث ورود الانتقام من الذين أجرموا أولا فكان النصّر من بعده محقّقا ثانيا مصداقا لقوله تعالى: (فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) أي بتحقّيق الانتقام من المجرمين شُفيت قلوب المؤمنين واطمأنت فكان لهم النصّر بأسباب المناصرة من الناصر المطلق جلّ جلاله.

وعليه مع أن الناصر هو الله تعالى إلا أن الناصر لن ينصر من لم ينصره، فهو الناصر للحقّ والمبطل للباطل، ولهذا لن يكون مناصرا لأصحاب الباطل بل هو مناصرا لأصحاب الحقّ كما ناصر رسوله الكريم يونس صلّى الله عليه وسلّم بإيمان قومه كلهم مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ}319، وكما ناصر سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم يوم أخرج من قريته بغير حقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَأَيِنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قوّة مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}320.

[318] الروم 47.

[319] الصافات 147 . 149.

[320] محمد 13.

والذين ليس لهم قوّة معنوية ومادية في سبيل إحقّاق حقّ وإبطال باطل أولئك لا ناصر لهم، مصداقا لقوله تعالى: {فَمَا لَهُ مِنْ قوّة وَلَا نَاصِرٍ}321.

يُفهم من هذه الآية الكريمة أمرين:

الأمر الأوّل: القوّة التي تتمثل في:

أ . قوّة العقيدة.

ب . قوّة الإيمان.

ج . قوّة العزيمة والإصرار.

د . قوّة الإرادة.

هـ . قوّة التهيؤ.

و . قوّة الاستعداد (العدة والمناصرين سواء كانوا من ذوي قربّى أو من الأحلاف).

ر . قوّة الفعل (تخطيط مع وضوح الغايات).

ز . قوّة العمل (الإقدام).

الأمر الثاني: الناصر: وهو الله جلّ جلاله، ولهذا يتحقّق النصّر بأحد السببين قوّة تُحقّ الحقّ وتُزهق الباطل أو استجابة من الناصر لعباده الذين أخلصوا وجوههم إليه وأحدا أحدا لا شريك له بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

---

[321] الطارق 10.

وعليه: لا تناقض في الأمر بين توفر القوّة في مرضاة الله تعالى وبين أن يعمل الإنسان ويخلص في سبيله فيكون له الناصر وليا يوم لا وليَّ إلا هو عزّ وجلّ.

26. مُنعم عليه:

المنعم عليه هو من أوتي من النعم التي لا تُحصى فلا يكون على الحاجة لأي نعمة من بعدها سوى الحاجة للمنعم الأعظم الذي كان سببا في الإنعام على المنعم عليه، ولذلك تستمر نعمة المنعم عليه رحمة متصلة ولا انقطاع فيها.

وعليه لا يمكن أن يوجد المنعم عليه لو لم يكن من بيده النعمة وأمر الإنعام بها؛ ولهذا النعمة مخلوقة، والمنعم هو الخالق لها، ولتبيان ذلك نقول:

المنعم هو الله الذي نِعمه لا تُعد ولا تُحصى مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[322].

أمَّا النعمة فهي الوفرة، وهي على الكثرة المطلقة تعددا وتنوعا؛ فهي في مشيئة الله لا ممسك لها، قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أيهَا النّاس اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[323].

والمنعم عليه قد يكون شاكرا في مرضاة الله، وقد يكون جاحدا في غضبه تعالى، ولهذا فالنعمة معرَّضة لأحد الأمرين الآتيين:

[322] النحل 17، 18.

[323] فاطر 2، 3.

الأمر الأول: بقاء واستمرار: النعمة عندما تكون رحمة على المنعم عليه تستمر ولا تنقطع أبدا خاصة عندما تستثمر في إعمار الأرض وإصلاحها حمدا وشكرا وطاعة للمنعم جلّ جلاله الذي أنعم بها على عباده، ولذا فهي على الاستمرار والزيادة، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}324، والنعمة عندما تستثمر في طاعة الله تعالى تتضاعف وكذلك تتضاعف نعمة الأجر عليها، قال تعالى: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}325.

ولهذا فإن فضل الله على خلقه بالخلق نعمة، وحمد عباده له جلّ جلاله هو الآخر نعمة مترتِّبة على النعمة المعترف بها والمقدَّرة في مرضاة المنعم الأعظم.

فعندما يكون العبد (المنعم عليه) شاكرا وحامدا وطائعا لنعم المنعم الأعظم الذي انعم بها عليه يكون شكره وحمده وطاعته نعمة عليه يجاز عليها في الآخرة بالجنّة وهي النعمة المطلقة، ولهذا تستمر النعم على المنعم عليه في الدارين ممّا يجعله من الوارثين فيهما أبدا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}326.

الأمر الثاني: انتهاء وانقطاع: النعمة عندما تكون نقمة على المنعم عليه يكون المنعم عليه جاحدا وغير حامدا ولا شاكرا فيفسد بها في الأرض التي أراده الله أن يكون خليفة ليصلح ولا يُفسد فيها ولا يسفك الدماء فيها بغير حقّ. قال تعالى: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي

324 إبراهيم 7.

325 الحديد 18.

326 المؤمنون 8 ت 11.

الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}327 وقال تعالى: {وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآية وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}328.

ولأنّ المنعم جلّ جلاله هو المنعم على خلقه فهو في نعمهِ لا يستثني أحدا إلا من استثنى نفسه منها، فالمنعم تعالى خلق النعم ووزّع الأرزاق وقدَّر كل شيء تقديرا فمن عمل صالحا فلنفسه ومن تبع هواه فقد ظل، {وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامة عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ وَمِنَ النّاس مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسرانُ الْمُبِينُ}329.

وعليه: لا تنقطع النعمة على المنعم عليه إلا بما تُقدِّم يداه من عمل مفسدٍ وكفرٍ بنعمهِ التي انعم بها على عباده، قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيات ربِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانهمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أبدا وَربّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}330.

---

[327] الشعراء 151، 152.

[328] الشعراء 132 . 139.

[329] الحج 8 . 11.

[330] الكهف 57، 58..

وفي سياق ما كُتِب على غير الشاكرين قال: "عون بن عبد الله: فكم من منعم عليه غير شاكر، وكم من مبتلٍ غير صابر"331.

ولأنّه لا نعمة إلا من المنعم الأعظم فكل العباد المؤمنون يتوجهون إليه بالشكر والحمد عرفانا بنعمهِ عليهم التي لا تُحصى، وهكذا كان على رأس المؤمنين الرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم الذين أنعم المنعم الأعظم عليهم بواسع رحمته بالرسالات والنبأ العظيم والعناية والرعاية التامة التي جاءت رحمة عظمى لهم، أولئك الأنبياء والرّسُل العظام الذين من بينهم سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم الذي كان التقام الحوت إليه آية كان بها منقذا من الغرق، وكذلك إنبات شجرة اليقطين عليه جاءت آية لحفظه ورعايته من كل الشرور، قال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ ربّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}332.

ولأنّ نعم الله لا تُعد ولا تُحصى جاء تسبيح سيدنا يونس اعترافا مطلقا بأنّه لا منقذ من الكظم والمغاضبة والضيق إلا المنعم جلّ جلاله، ولهذا كان يونس من المسبِّحين بقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فكان هذا التسبيح الكريم نعمة على يونس باستجابة ربّه له (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

وعليه: لقد أنعم الله تعالى على رسوله يونس بنعم لا تُحصى منها:

. نعمة التسبّيح: الذي هو عبادة وطاعة تامة للمنعم جلّ جلاله، (فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ).

. نعمة الاجتباء رسولا: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ).

---

331 النكت والعيون، ج 4، ص 71.

332 القلم 48 . 50.

. نعمة الرسالة: (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ).

. النجاة باللقم: (فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أنه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

. النجاة من الغم: (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ).

. النجاة في الظلمات آية كريمة من آيات المنعم تعالى على يونس (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ).

. إنبات شجرة اليقطين على يونس كانت آية من آيات الله العظيمة (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ).

. إيمان قومه جميعا دون استثناء لواحد منهم (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

وعليه نتساءل:

من الذي يستطيع الإنعام؟

أنه المنعم جلّ جلاله الذي يمتلك النعمة وأمر التصرف فيها أنه ذو الفضل الذي هو على كل شيء قدير.

وفي مقابل ذلك من الذين لم ينعم الله عليهم؟

نقول:

هم الذين لم يؤمنوا بالله ورُسُله الكرام.

قال تعالى: {يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جميعا وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا}333.

من نعم المنعم على عباده أنه نبّههم على أهمية أخذ الحذر (أخذ الحيطة) من الأعداء الذين يكيدون للمسلمين المكائد ويمكرون بهم مكرا كلما تهيئة لهم الظروف لذلك، وحثه لهم لأن ينفروا فرقا متعددة ومتجمعة وفقا للظرف وما تتطلّبه تداعيات الضرورة والحاجة، ولذا فأمر الحروب والاستنفار لها يتطلب تخطيطا عاليا فالأمر ليس هينا فالكل يتخذ حذره من الآخر، أمّا قوله: (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا) فهي نعمة التنبيه على الذين يدّعون الإيمان والإسلام ويظهرون الحماس لملاقاة العدو وهم في حقّيقة أمرهم غير صادقين فيما يقولون، فيتأخرون ويتباطؤون عن ملاقاة الأعداء، وهؤلاء هم المنافقين والمتشمتين إذا لم يتحقّق النصّر للمسلمين فيقولون بما يظنون أنه محقّقا للرضا قد انعم الله علينا بعدم المشاركة في القتال الذي كُتب على المؤمنين المسلمين.

ومن نعم المنعم جلّ جلاله نعمة بعث الأنبياء مبشّرين ومنذرين وفاعلين للخيرات ومحرّضين على الحقّ واتباعه قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أنبياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أحدا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ

---

333 النساء 71، 72.

فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}334. لقد جاء قول موسى صلّى الله عليه وسلّم لقومه مُظهِرا للاعتراف بنعم المنعم عليهم ببعث الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكا وآتاهم من النعم ما لم يؤت لأحد من قبلهم من العالمين، ومن هذه النعم دخولهم للأرض المقدسة وعدم التردد في دخولها حتى لا تنقلب عليهم النعم نقما، ومع ذلك فلم يأخذوا بما قاله لهم موسى وهو القول الحقّ فخسروا كل موجبات الأخذ بالنعم.

ولأنّه المنعم فقد أظهر نعمه على أنبيائه ورُسُله صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ أنه كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رسولا نبيا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ ربّهِ مَرْضِيًّا وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ أنه كَانَ صِدِّيقًا نبيا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آَدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيات الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}335.

فمن نعمه جعل إسماعيل صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصّلاة والزكاة وكان عند ربّه مرضيا، كل هذه نعم من المنعم عزّ وجلّ تعود على إسماعيل والذين آمنوا به فاتخذوا ما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه.

ومن نعمه تعالى جعل إدريس صلّى الله عليه وسلّم على الرفعة مكانا عليا (أنّه كَانَ صِدِّيقًا نبيا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا).

---

[334] المائدة 20 . 23.

[335] مريم 54 . 58.

ولذا؛ فكل الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم منعم عليهم بالطاعة والهداية والتسليم باليقين الذي به تمكنوا من معرفة الحقّ فخروا سُجدا وبكيا.

قال تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النّاس وَاللَّهُ أَحقّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلما قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}[336]. الخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم بعدما قال لزيد بن الحارثة عندما جاءه ليستأذنه بأن يطلّق زوجته فنصحه الرّسول الكريم بأن لا يطلّق زوجته ويتقي الله فيها، ولكن لرغبة زيد في الطلاق لأسباب هو يعلمها طلّقها وبعدما قضت العدة تزوّجها رسول الله فكان زواجه بسبب إرادة الله حيث زيد كان متبنيا من قبل رسول الله، وحتى لا يجتهد من بعده مجتهدا بتحريم الزواج ممن كانت زوجات للمتبنين فيسّر الله ذلك سنة باقية بين المسلمين حلالا طيبا (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا).

وفي الآية الكريمة السابقة كانت المشيئة لإظهار النعمة من المنعم إلى المنعم إليه والمنعم به وفقا للآتي:

1 . المنعم: الله تعالى.

2 . المنعم عليه: النبي محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

3 . المنعم به: الزوجة المطلّقة، (التي كانت زوجة زيد بن الحارثة).

4 . النعمة: التحليل بالخروج من دائرة المحرمات.

---

[336] الأحزاب 37.

وعليه: فقد انعم الله على عباده بنعمة التحليل ليميز بين الأبناء من الأصلاب والأبناء بالتبني وما يتعلق بكل منهم من أمر، ولهذا فلا ينبغي أن يُبدِّل أحدا نعمة أنعمها الله عليه، ومن يبدِّلها فقد يلاقي آثام، قال تعالى: {وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}337.

قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}338.

نِعم الله واسعة فلا تُحصى ولهذا النعمة غير محددة بنوعية معينة في هذه الآية (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) فكل شيء فيه خير هو نعمة من نعمه التي لا تحصى مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}339، ومن هذه النعم:

أولا ـ نعمة الحياة وما فيها، ومنها:

1 ـ نعمة الخلق في أحسن تقويم.

2 ـ نعمة العقل والقدرة على التوازن.

3 ـ نعمة الحواس:

أ ـ السمع.

ب ـ البصر.

ج ـ اللسان.

د ـ الشم.

---

[337] البقرة 211.

[338] البقرة 231.

[339] إبراهيم 34.

هـ اللمس.

4 . نعمة النفس وما تحس به تجاه الآخرين من مشاعر اجتماعية وإنسانية، ومن تعاون وإحسان، وعمل وفعل وردة فعل، وإقدام وإحجام، وجهاد، وتمتع، وظاهر وباطن، وتقبل، وتفهُّم، وتفاهم، ورفض، وتوافق، وتكيف، ورضا وعدم رضا تجاه الأنا والآخرين الذين تكمن فيهم أو تتوجه إليهم مجموعة من المشاعر منها:

أ . مشاعر الأبوة.

ب . مشاعر البنوة.

ت . مشاعر الأخوة.

ث . مشاعر الزوجية.

ج . مشاعر العمومة والأخوال.

ح . مشاعر الجيران وبني الوطن والأمة.

خ . مشاعر المؤيد.

د . مشاعر المعارض.

ذ . مشاعر المخاصم.

5 . نعمة الرزق: الذي يؤخذ كل نصيب منه وفقا للحاجة ومشبعاتها.

6 . نعمة اصطفاء الأنبياء والرّسُل مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات الحسان وداعين إليها.

7 . نعمة الحكمة التي تؤتى لمن يشاء.

8 . نعمة العلم الذي يؤتى لمن يشاء وكذلك العلم الذي يتم تعلُّمه مكسبا وفائدة لمن يود أن يكتسب ويستفيد وينتفع وتتحسن أحواله وأقواله وأعماله وأفعاله وسلوكياته ومعارفه وأساليبه.

9 . نعمة الملك الذي هو الآخر يؤتى إيتاء ويتم التمكن منه بإرادة حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي.

10 . نعمة السلطان الذي يُجعل لمن يشاء قال تعالى: {وَقُلْ ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نصيرا}340.

11 . نعمة الاستخلاف في الأرض لمن يستمد صفاته وأفعاله من صفات وأفعال خالقه ليصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حقّ.

12 . نعمة العدل بين النّاس.

13 . نعمة الماء سحابا ومطرا وينبوعا وبحرا ونهرا ومحيطا وبحيرة وسيلا نافعا.

14 . نعمة خلق الأنواع ليكون التنوع رحمة بين المخلوقات من الإنس والملائكة والجن، والطير والدواب والزواحف والنباتات والأسماك وغيرها ممّا لم نذكر من الأنواع.

15 . نعمة الإيمان والإسلام طاعة لله المنعم ربّ العالمين وأحدا أحدا له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

---

340 الإسراء 80.

16 ـ نعمة الرحمة التي لا تستمد إلا من الرّحمن الرّحيم، ولذا فكما أن الرحمة تستمد من الرّحمن الرّحيم كذلك النعمة لا تستمد إلا من المنعم العظيم.

17 ـ نعمة السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وما فيها ممّا نعلم وممّا لا نعلم.

ثانيا ـ نعمة الممّات راحة من كل عناء وألم؛ فهي النهاية في الدار الدنيا لكل من خلق، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحقّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ أنه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}341.

ثالثا ـ نعمة البعث: قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خلقا آخَرَ

---

[341] الملك 1 ـ 14.

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامة تُبْعَثُونَ}342.

رابعا ـ نعمة الفوز بالجنّة: قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السراءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}343.

وعليه: فإن وراء كل النعم التي ذُكرت والتي لم تُذكر منعم يمد المنعمين بها ليتنعموا بخيراتها في حياتهم ومماتهم وبعثهم وهو على كل شيء قدير سبحانه لا إله إلا هو جلّ جلاله.

ومن نعم المنعم على خلقه أنه المؤلف للقلوب والمنقذ من المكائد والكروب مصداقا لقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جميعا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياته لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}344.

ولأنّه المنعم فنعه على خلقه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى، {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}345، ولهذا لِما لا تُذكر نعم المنعم بالشكر والحمد له تعالى على

[342] المؤمنون 12 ـ 16.

[343] آل عمران 133 ـ 136.

[344] آل عمران 103.

[345] إبراهيم 34.

ما أنعمه علينا من نعم وما فضَّلنا به من فضائل، قال تعالى: {يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أيدِيَهُمْ فَكَفَّ أيدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[346].

ولذا، ينبغي على الأقوام والأمم والشعوب التي أنعم المنعم عليها بالأنبياء والرّسُل أن يكونوا خير شاكرا لأنعمه تعالى ولهذا كان موسى منبّه لقومه لأنّ يذكروا الله شكرا وثناء وحمدا على ما بعث فيهم من رُسُل وجعلهم ملوكا مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أحدا مِنَ الْعَالَمِينَ}[347]، وهكذا موسى يقول لقومه أذكروا نعمة الله عليكم بنجاتكم من آل فرعون الذين يسومونكم سوء العذاب فيذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ ربّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[348].

النعمة من المنعم عزّ وجلّ لا تستوجب إلا عبدا شكورا قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِربّهِمْ يُشْرِكُونَ}[349].

ولأنّ نعم المنعم لا تحصى ولا تعد فهي على الكثرة المعروفة وغير المعروفة فنعمه في السماوات والأرض منها الظاهر كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ولرياح والأنهار والبحار والمحيطات وغيرها كثير

[346] المائدة 11.

[347] المائدة 20.

[348] إبراهيم 6، 7.

[349] النحل 53، 54.

ومنها الباطن الذي لا نعرفه وهو على الكثرة المطلقة، مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ}350.

ولأنّه المنعم بالمطلق فنعمه لا تحصى في الظاهر ولا في الباطن فلله جنود السماوات والأرض (جنود تُرى وجنود لا تُرى) قال تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بصيرا}351.

وعليه: نقول إن أكبر النعم التي يجب أن يُسلِّم بها المخلوق هي:

أن يؤمن بالمنعم تعالى وأحدا أحدا وهو الرزّاق الكريم في السماوات والأرض، قال تعالى: {يَا أيها النّاس اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}352.

ولأنّه المنعم جلّ جلاله خلق لنا الأرض مهدا وجعل لنا فيها سُبُلا لنهتدي بها حركة وسكونا، ولأنّه المنعم انزل لنا من السماء ماء، ولأنه المنعم خلقنا أزواجا، ولأنه المنعم جعل لنا الفلك والأنعام لنركبها وفيها منافع كثيرة، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ

350 لقمان 20.

351 الأحزاب 9.

352 فاطر 3.

وَتَقُولُوا سبحان الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى ربّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}353.

ولأنّه المنعم جلّ جلاله فهو الذي أرسل على الكافرين من قوم لوط صلّى الله عليه وسلّم حاصبا شديدا، ولأنّه المنعم فهو الذي أنجى آل لوط الذين آمنوا به وشكروه كثيرا على ما انعم عليهم من نعم فالحمد له عزّ وجلّ، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آَلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ}354.

ولأنّه المنعم العظيم فقد انعم على نبيه يونس صلّى الله عليه وسلّم وهو مكظوم في بطن الحوت مصداقا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ ربّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}355.

وعلى الخليفة أن يستمد صفاته من صفات المنعم جلّ جلاله فيكون من الذين من نعمه يتصدقون ويتزكون ويصلحون ولا يفسدون في الأرض وأن يعملوا على استثمار النعم التي انعم بها المنعم عليهم لتزداد حلالا وتُوجّه في سبل الحقّ، ولذا فالخليفة هو من يؤمن أن ما لديه من النعم هي من المنعم تعالى فهو المتقي الله فيها فلا يستغل ولا يستعبد أحدا بها، بل كل ما زادة عليه نعمة من نعمه شكر المنعم وحمده على فضله وأزداد إيمانا وطاعة وهداية.

[353] الزخرف 9 . 14.

[354] القمر 34، 35.

[355] القلم 48 . 50.

27 . مؤمن:

المؤمن هو من لا يظن ولا يشُكَّ في إيمانه بالله تعالى وبما أرسل من رُسُل وبما أنزل وأمر ونهى وشرَّع وبشَّر وأوصى وانذر وحرَّض، فالمؤمن هو من أدرك يقينا أنَّ الله واحد، وأنَّ الجنّة واحدة، وأنَّ اليوم الآخر أتيا لا ريب فيه، وأنَّ الحقّ واحد، وأن العدل واحد، وأنَّ العمل الصالح واحد فاتَّبع مهتديا دون أنْ يكون في نفسه تراجع عن الطاعة التامة لله الواحد القهَّار، وان يؤمن بكل ما أمر الله أن يؤمن به مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاة وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}356

وفي لسان العربّ المؤمن هو من أستمد الأمن الذي هو ضد الخوف، والأمانة التي ضد الخيانة، والإيمان الذي ضد الكفر، ويعني أيضا التصديق بالحقّ الذي ضده التكذيب357.

ولذا؛ فالمؤمن هو الواثق الذي لا حيّز للظن في معتقده بالله الواحد القهَّار، ولهذا فالوثوق فعل يقيني، قال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا}358 جعل الله تعالى الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها، ويحجُّون إليها تعني يبلغون فيها الأمن والسلام، وببلوغهم إياها يوثِقون عهدهم طاعة وطواعية على الإيمان وهم آمنين مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ

---

[356] البقرة 177.

[357] لسان العرب ج ا، ص 107.

[358] البقرة 125.

الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}359. أي في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا مكان للخوف فيه.

أمَّا الأمانة: فهي المتداولة بين الطرفين ويستشهد بها ويُشهد عليها بين مالك ومُملَّك، وهي إرث يُورَّث. {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ أنه كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}360

والأمن: فعل استقراري من فاعل أعظم إلى فاعل بالإضافة {الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانهم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}361.

والآمان: عهد يُقطع ممّا يجعل آمان الله باقي ببقائه، وآمان العبد زائل بزواله.

والإيمان: اعتراف إرادي بفعل جل، {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانهمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإيمان وَأيدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}362.

وعليه: فمن آمن نجي من الهم والغم وإن عرَّضته الظروف إليهما ابتلاءً كما تعرَّض يونس صلّى الله عليه وسلّم إلى ما تعرَّض له من ابتلاءات، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

[359] الدخان 51.

[360] الأحزاب 72.

[361] الأنعام 82.

[362] المجادلة 22.

فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[363].

يُفهم من الآيتين السابقتين الكريمتين أن نداء يونس كان نداءً تسبيحيا لا مطلب ظاهر فيه وإن كان المطلب ضمنا (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، ولذلك كانت الاستجابة عظيمة على التسبيح الذي سبَّحه يونس وهي النجاة من الغم، وهكذا يُنجي الله عزّ وجلّ المؤمنين من كل كربٍّ عظيم عندما يلتجئون إليه طائعين وهم على يقين الإجابة.

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شيئا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[364].

تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الاستخلاف في الأرض هو للذين آمنوا، ولهذا قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصالحاتِ) فالذين أمنوا منكم، لا تعني الذين لم يؤمنوا منكم، ولذا كان الاستخلاف في الأرض يخص الذين أمنوا، ولا يعمَّ الذين كفروا ولا يخصَّ الذين لم يعملوا الصالحات. ولذلك فالاستخلاف خاصية ترتبط بالمؤمن وبالذين يعملون الصالحات، والعمل الصالح بطبيعته عمل المؤمنين، فهؤلاء هم الذين أراد الله تعالى استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم).

---

[363] الأنبياء 87، 88.

[364] النور 55.

وعليه: فكلمة (منكم) تعني بعضكم وليس عمومكم، ولأن النّاس لم يؤمنوا بعد جميعا، فلن يكونوا بالعموم خلائف.

قال تعالى: {فَلما تَجَلَّى ربّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلما أَفَاقَ قَالَ سبحانكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}365 فبعد أن رأى موسى صلّى الله عليه وسلّم آية دك الجبل صُعِقَ موسى، ولما آفاق، (قَالَ سبحانكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) فأول المؤمنين تعني أول المصدقين الذين نُزِعَ الشك والظن من صدورهم، تسليما بما قاله الله تعالى، وإيمانا تاما بأنه هو الله، وقوله الحقّ سبحانه لا شريك له.

ولهذا؛ فقول موسى صلّى الله عليه وسلّم (تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) تعني أنا أول خليفة بعد أولئك الذين سبقوني بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ). وبما أنَّ الله قد استخلف سابقين، فهو بطبيعة الحال يستخلف حاضرين وسيستخلف من بعدهم لاحقّين حتى النهاية، ولهذا جعل الله تعالى في الأرض الخلائف على الإيمان في حالة اتصال وتعاقب عبر الزمن، أي أنَّ أبواب الاستخلاف مفتوحة دائما لمن يؤمن بالله ويهتدي طائعا لِما أمر ونهى، ولأن أبواب الاستخلاف مفتوحة عبر الزمن، لذا فإن عدد المؤمنين دائما في حالة ازدياد وكثرة دائمة حتى النهاية.

ومن عرف أن الله سبحانه وتعالى هو المؤمن المطلق فليس له بدٌّ إلا أن يستمد منه صفته الإيمانية، ولذا فالمؤمن لم يطلب الأمن والاستقرار للناس في حياتهم الدنيا إلا في شرع الله المؤمن المطلق وذلك لعلمه أن أهواء البشر ونظراتهم العاجلة القاصرة لا تنتج إلا فسادا وخللا واضطرابا قال

---

[365] الأعراف 143.

تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الحقّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ}366

بناء على ما تقدَّم نلاحظ وجود علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث أنَّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلُ، وبما أنَّ للإيمان فعل، إذا فمن يعمل على الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟

نقول:

من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

وبما أنَّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمْل العبء وأثقاله؟

نقول:

الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمْله، أمَّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بالخلائف المؤمنين.

ولذا؛ فالمؤمن هو المصدِّق، قال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}367 فقوله تعالى: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) تعني: وما أنت بمصدِّق لنا، وجاءها التأكيد بقولهم: (وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) التي تحمل في مضمونها

366 المؤمنون 71.

367. يوسف 17.

الاعتراف من قبلهم بعدم صدقهم فيما يقولون، ولهذا قالوا ولو كنا صادقين ولم يقولوا ونحن صادقين.

وعليه: فالمؤمن هو الصادق، الذي لم يدخل قاموسه الكذب من قريب ولا من بعيد. وكذلك فقوله: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا)، تدل أيضا على انعدام الثقة فيهم في أمر يوسف، وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق.

وعليه نقول: أنَّ المؤمن هو: الواثق، وهو الصادق فيما يقول، ولأنه كذلك فالمؤمن كلما استمع أو قراء قولا من قول الله تعالى في كتابه الحكيم، قال: (صدق الله العظيم) وهذا القول هو التصديق من المؤمن بالإضافة للمؤمن الحقّ جلّ جلاله، ولأن المؤمن هو الواثق، قال جلّ جلاله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانهم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}368.

والمؤمن الحقّ هو المسلَّم بأمره، والمؤمن بالإضافة هو المسلِّم بالمؤمن الحقّ. والإيمان هو التسليم، {وَأَنَّا لما سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بربّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا}369، فآمنَّا به تعني: سلَّمنا به وصدقناه، ولهذا فالمؤمن لا يخاف في الحقّ أحدا، ممّا جعل يونس يذهب مغاضبا على قومه بأسباب عدم انتهائهم عما نهاهم عنه، وظن أن لن يقدر عليه أحد بما أنه مؤمنا بالله تعالى ومهتديا بما شاءه الله في عبادته واحد أحدا.

وبما أنَّ المؤمن لا يخاف في الحقّ أحدا، إذن أمر التسليم حقّ، ولأن أمر التسليم بالحقّ حقّ، لذا فالإيمان بالحقّ أمر تسليم، ولهذا جاء قوله تعالى: {وَأَنَّا لما سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بربّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا

[368] الأنعام 82.

[369] الجن 13.

رَهَقًا}370، أي أصبح فعل الإيمان أمرا نافدا في زمن الاستماع للهدى دون انتظار أو طلب استشارة من أحد. ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تصبح الحقّيقة هي البينة، {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلما يَدْخُلِ الْإيمان فِي قُلُوبِكُمْ}371.

الإيمان خير، والمؤمن هو الخيّر، ولذا فمن يُريد خيرا فعليه بالإيمان، ومن يريد شرا عافانا الله فليس له من غيره، قال تعالى: {يا أيهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الرّسول بِالحق مِنْ ربّكُمْ فَآَمِنُوا خيرا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}372 فقوله تعالى (فَآَمِنُوا خيرا لَكُمْ) دليل إثبات أن الإيمان هو الخير في ذاته، ولهذا ارتبط الإيمان صفة بذات الله العلية، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

المؤمن الحقّ هو مصدر القوّة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو الذي يستمد قوته من المؤمن الحقّ فيكون قويا على الإيمان، وهو الذي إيمانه تام مع التسليم المطلق بالمؤمن المطلق حيث لا ظن في نفسه ولا تردد وهو على اليقين وبه متمسك. ولذا فإن اسم المؤمن بالإضافة هو اسم تسليمي، يؤمن بما أنزل ولا يعصي لله أمرا.

واسم المؤمن بالإضافة اسم تعبُّدي، فأين ما يكون المؤمن وتحت أي ظرف من الظروف أو أي شدَّة من الشدائد ليس له بدٌّ إلا أن يسبّحه كما سبَّحه يونس وهو في الظلمات، (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

---

[370] الجن 13.

[371] الحجرات 14.

[372] آل عمران 179.

ولذا فبعد أن يتم التسليم بالله ورُسُله وكتبه وبكل ما أمر به ونهى عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم، ويصبح المؤمن في هذه الحالة هو الذي يملأه اليقين مصداقا لقوله تعالى: {ولما يدخل الإيمان في قلوبكم}373.

وبما أنَّ الإيمان هو المستمد من اسم المؤمن جلّ جلاله، وهو بيت السكينة والاطمئنان، إذن فمن آمَنَ بالمؤمن آمِنَ نفسه من الجوع والخوف مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا ربّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}374. وعليه فمن أراد ألا يكون من الخائفين فعليه بالإيمان. {ألا بذكر الله تطمئنَّ القلوب}375.

وبما أنّه لا آمان إلا منه. إذن فالإيمان به هو المِمكِّن من الإيمان منه. ولذا؛ فمن أراد أمانه فعليه بالإيمان به واحد أحد لا شريك له، والإيمان في هذه الحالة هو عهد قطعي لا رجعة من بعده ممّا يستوجب اللجوء إليه دون غيره، حيث لا أحد غيره يطعم من الجوع ويأمن من الخوف ويرزق بغير حساب ويحفظ ويشفي من الأمراض والمهالك ويُدخل الجنّة. وإلا هل هناك من يضمن ذلك ويؤتمن جانبه إلى الابدّ غيره؟

نقول:

الإجابة تكمن في قوله تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ تِلْكَ الْقُرَى

---

[373] الحجرات 14.

[374] قريش 4.

[375] الرعد 28.

نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ}376.

وعليه لو تساءل متسائلٌ:

ما الذي يُنجي الإنسان من الشدائد؟

نقول:

الإيمان فقط.

ولماذا الإيمان فقط؟

نقول:

الإيمان فضيلة احتوائية، يحتوي الصدق واليقين ويمد بالقوّة التي لا تجعل العزيمة على الوهن أبدا؛ فالإيمان هو المخرجَ من الكروب والذنوب والمنقذ من المهالك، ولذلك فمن يلتجئ بإيمانه إلى المؤمن المطلق التجاء إلى القوّة والقدرة المطلقة التي وحدها تُخرِجه من الهم والغم والكربّ والشدائد وإن راءها البعض تعظم فإنّ المؤمن لا يرى أعظم من الأعظم جلّ جلاله، (وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

28. مستجاب له:

الاستجابة المطلقة التي هي بيد المطلق جلّ جلاله هي تلبية لحاجة أو طلب (دعاء وسأل) فعندما تكون تلبية للحاجة تكون الاستجابة ذاتية وهذه بالمطلق لله عزّ وجلّ وبدون طلب فهو الذي يعلم كل خافية سواء أكانت لذاتها أم مخفية من غيرها، وهو الرزّاق العظيم الذي يرزق المخلوقات ويوزع رزقها عليها أينما كانت وحلت، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ

376 الأعراف 99 . 101.

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أجل مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أحدكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحقّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}[377].

وعندما تكون الاستجابة لطلب تكون محددة بما يُشبع الطلب أو الحاجة أو بما يحقّق الرغبة في مرضاة الله عزّ وجلّ، كما هو حال دعاء (ذا النون) مصداقا لقوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[378].

أمّا في دائرة النسبية فمن يستمد صفاته من صفات الله المجيب المطلق يتمكّن من معرفة الاستجابة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فعلى سبيل المثال: عندما يكون جارك فقير فلا داعي الانتظار حتى السؤال، بل عليك بالاستجابة ليكون التواب إليك استجابة أكبر ممّا تقدمه لجارك من استجابة.

المستجاب له هو الذي لم يُرفض طلبه، وهو غير المغضوض النظر عنه، ندائه أو استغاثة تُسمع ويستجاب له بما يُفيد وينفع ويهدي للتي هي أحسن وأقوم، ولذا فالمستجاب له هو الذي عنده مكانة رفيعة لدى المستجيب الذي بيده الاستجابة وأمر تنفيذها.

---

[377] الأنعام 59 . 62.

[378] الأنبياء 87، 88.

والمستجيب المطلق هو المستجيب ذاتا وقوّة وقدرة وإرادة، إمَّا المستجيب في دائرة الممكن والنسبية فقد لا يستجيب إلا قهرا أو خوفا ممّا يجعل استجابته قد لا يترتب عليها استجابة من المجيب المطلق.

والمجيب في دائرة المِمكن والنسبية قد يستجاب للطلب أو الحالة، ولكنه لا يملك المطلق الذي به تُحل التأزمات إلى الابدّ، ولهذا فكل استجاباته وإنّ عظُمت فهي نسبية، وقد تكون مُرضية وقد لا تكون كذلك، وقد يستجيب الإنسان ثم يلاحقّ ما أعطى منا واستكثارا، ولهذا نهى الله تعالى عن ذلك فقال: {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}[379]، فمهما استجاب الإنسان فلن تكون استجابته استجابة الكريم المطلق الذي لا تكون استجابته إلا مرضية للسائل وللمجيب تعالى.

والاستجابة في دائرة النسبية قد تكون موجبة كما بيَّنا وقد تكون سلبية كأن يستجيب مستجاب لدعم الفاسدين أو المنحرفين الذين تكون نتائج أعمالهم تُفرّقِ بين المرء وزوجه.

ومن قواعد الاستجابة:

. إن (دعوة الرّسُل والأنبياء والصديقين والصالحين مستجابة).

. إن (دعوة المستغيث المظلوم مُستجاب لها بما يُحقّ الحقّ ويُزهق الباطل ويدمغهُ).

وقد يتساءل البعض:

لماذا دعوة المظلوم مستجابة؟

نقول:

[379] المدثر 6.

المظلوم إذا دعا لم يدعو إلا الحقّ جلّ جلاله، ولأن صفة الحقّ تعالى هي إحقّاق الحقّ فهو تعالى لا يتأخر عن إظهار صفته التي بها يُحقّ الحقّ ويُزهق الباطل، ولهذا فمن دع ربّه لإحقّاق الحقّ يفوز بالاستجابة لأنّه لم يطلب ولا يدعو إلا حقّا. أي أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة لحزبه الذين يدعونه رحمة فيغلبون عدوهم باستجابته لهم كلما دعوه خاصة إذا ما ظُلموا، وهم الذين يقولون في دعائهم لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}380.

وعليه: لا يمكن أن تكون الاستجابة مطلقة إلا بتطابق معطيات الدعاء ونية الداعي وصفى نفسه وإخلاصه في الطاعة والوحدانية مع معطيات ومبررات الاستجابة وقدرة المستجيب المطلق جلّ جلاله.

ولذا؛ فالاستجابة تلبية لطلبٍ يُسمع ويؤخذ به ويُنظر بصاحبه وما لمّ به من كربّ أو امتحانات أو ابتلاءات؛ فإن كان من المخلصين في الطاعة والعبادة أو كان من الأنبياء والرّسُل الكرام صلى الله عليهم وسلَّم أو كان من الصديقين والصالحين والمجاهدين في سبيله تعالى فتكون الاستجابة على اليسر والتسهيل مع الأمر (كن) كما كانت مع نداء مريم لربّها جلّ جلاله مصداقا لقوله تعالى: {قَالَتْ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أمرا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}381.

وهكذا كانت الاستجابة مع نوح وأيوب وزكريًّا ويونس جميعهم رُسُل وأنبياء كرام صلى الله عليهم وسلَّم فيونس عندما كان في الظلمات وهو مكظوم نادى ربّه عزّ وجلّ فاستجاب له استجابة متزامنة مع النداء دون تأخر أو تأخير، مصداقا لقوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ

[380] التوبة 51.

[381] آل عمران 47.

أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}382، أي أنّ يونس قد نادى على وجه السرعة فكانت الاستجابة بما هو أسرع (فنادى، فاستجبنا).

إذا القاعدة العلمية والموضوعية والإيمانية تقول:

(لا استجابة إلا وفق قدرة وقوّة).

وهنا لا ينبغي أن يُغفُل عن الاستطاعة في دائرة النسبية والممكن حتى لا يطلب الداعي بما هو أكبر أو أعظم من قدرة المدعو، ولهذا فمن أراد أن يتحقّق طلبه فعليه بالتقدم به لمن لا نسبية تحوطه وتهيمن عليه فتأسره على غير قدرة ولا قوّة.

وعليه فالفرق كبير من حيث المفهوم بين ما يدل عليه مفهوم (المجيب) وبين ما يدل عليه مفهوم (المستجيب) من حيث:

أ . المجيب:

المجيب "هو الذي يجيب مسألة السائلين بالإسعاف ودعاء الداعين بالإجابة وضرورة المضطرين بالكفاية بل ينعم قبل النداء ويتفضل قبل الدعاء وليس ذلك إلا لله عز وعلا فأنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم وقد علمها في الأزل فدبر أسباب كفاية الحاجات بخلق الأطعمة والأقوات وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمات"383.

قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي

[382] الأنبياء 87، 88.

[383] المقصد الأسنى، ج 1، ص 118.

ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}384، والمضطر هو الذي أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى الالتجاء والضراعة إلى الله عزّ وجلّ، فهو اسم مفعول من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة، وعليه فالمضطر في اشد الحاجة لنصير، وعندما تضيق الحظيرة به ويعقل الحقّ يدرك لا ناصر له إلا هو جلّ جلاله، فيلتجئ إليه وأحدا أحدا فيجيبه سؤاله بما أنه قرر بكل وعي لا ملجأ منه إلا إليه؛ فهو المجيب الذي يملك الأمر الذي به يُجيب على كل سؤال، والحمد لله ربّ العالمين، (وَيَكْشِفُ السُّوءَ) فالمجيب وحده يعلم الأسباب فيكشفها أي يظهرها بعد أن كانت خفية، وأسباب السوء هي أسباب ظُلمة ظالمة، وبمعرفتها يتم التمكُّن من الإصلاح ومغالبتها بنصر من المجيب عزّ وجلّ، فإن كان السوء بمرض يكشف سر علاجه ويتحقّق الشفاء بوافر الدواء، وإن كان عطشانا، يكشف الماء وُيمكِّن الظمآن من بلوغه، وهكذا مالك الأمر يُجيب فالحمد لله وحده.

والله يجيب غير المضطَّر أيضا، وهو من وسّع الله عليه في الرزق وفي الذرية وفي كل شيء ممّا كتبه الله له في الدنيا والآخرة ومثالنا في ذلك امرأة فرعون المؤمنة العارفة بالله التي تسكن في قصر من أعظم قصور الدنيا في زمانها، وعند ملك تخشاه الملوك في زمانه، ومثلها غير مُضطَّر؛ فالاضطِّرار لم يكن بالنسبة لها ماديا فهي لم تكن محتاجة فعندها خير القصور والجواري في الدنيا، غير أن الاضطِّرار كان معنويا فقد أرادت أن تفر من ضيق الماديات إلى واسع رحمته جلّ جلاله فطلبت مكانا لها في الجنّة نجاة من فرعون وكفره. ولمعرفتها برحمة الله وحُسن ثوابه طلبت أن يكون لها قصرا في الجنّة وهو ما لا يمكن لأحد أن يجيب مثل هذه الدعوة إلا الله المجيب المطلق، قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امرأة فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ

384 النمل 62. 63..

ربّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الجنّة وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين}385.

والمجيب الكريم لا يرد الدعاء لأنه عليم بالحاجات، فلم يرد دعوة القوي بالإضافة داوود صلّى الله عليه وسلّم وهو يطلب المزيد لتحقّيق نصر الله، قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحقّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

ومن صفة إجابة المجيب جلّ جلاله أنها دائمة، ويتلازم دوام الإجابة مع قدرة المجيب تعالى؛ فالله سبحانه يجيب من يسأله وهو قادر على الإجابة، {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}386، وهذا الدوام مرتبط بالقدرة فهو القوي الدائم، فلا كثرة الدعاء ولا كبر ما يُطلب من القوي يقلل من قدرته على الإجابة.

وإجابة المجيب سبحانه دائمة من حيث الزمن، فلا زمن وقتي مخصوص، وإنما هو زمن مطلق لان المجيب حي قيوم، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}387، فإذا دعوت في الصباح أو في المساء أو في السحر أو في الفجر تجد السميع قريب مجيب الدعاء كلما دعوته بحقّ لإحقّاق الحقّ.

---

[385] التحريم 11.

[386] الملك 1.

[387] البقرة 255.

ولذا فالمجيب هو أسم صفة من أسمائه الحسنى، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}388.

والمجيب هو الذي يسأل فيجيب دون منَّة، ولا مجيب بالمطلق إلا مالك الملك المطلق، والمجيب هو السميع الذي يدرك الأمر وما يتعلق به من حاجة فيستجيب إليها، والمجيب هو السريع في الإجابة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}389 فالفعل قريب يتعهد الإجابة الفورية لمن استجاب لله دون سواه.

وقد يتساءل البعض:

لماذا تجاب دعوة العاصي وهو عاص لله؟

نقول:

المجيب يجيب دعوة العاصي لأنه ربّه ولا ربّ غيره؛ فإذا لم يجب فمن ذا غيره يجيب؟ لاسيما تلك الدعوات التي تتعلق بالنجاة من الهلاك وفي ذلك حكمة عظيمة، إذ عسى أن تكون هذه الإجابة سببا في عودة هؤلاء إلى طاعة الرّحمن الرّحيم وتوحيد واحد أحد، ولهذا فهو يمهل ولا يهمل ويؤجل ولا يعجل حتى تتاح للاستغفار والتوبة فرصة.

والمجيب الكريم العادل، فهو يسمع كل دعاء ويجيب متى يشاء، كيف يشاء، لمن شاء، قال تعالى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ

388 البقرة 186.

389 البقرة 186.

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}390، ضمير الدعاء يعود على سيدنا نوح صلّى الله عليه وسلّم، الذي دعا الله عزّ وجلّ يشكوه حاله مع قومه الذين لم يقدِّروه حقّ قدره، فهم الساخرون منه، المقللين من شأنه وشأنه عظيم، وعندما حسَّ بمغالبتهم له اشتكاهم إلى ربّه جلّ جلاله، فكانت الإجابة الغرق بأسباب المطر الغزير المنهمر، والمنهمر هو الساقط بكل قوّة، وفجَّر الأرض عيونا، أي وكأن الأرض أصبحت عيونا من كثرت العيون التي فجرها المجيب لدعاء نوح صلّى الله عليه وسلّم، وهذا دليل الكثرة عن واقع وليس دليل للمبالغة، فالتقى ماء السماء مع ماء الينابيع التي فجَّرها الله تعالى في الأرض فحقّ الحقّ وزُهق الباطل بفعل الغرق وبفعل النجاة:

. غرق المكذبين والفاسقين والضالين.

. نجاة نوح ومن معه من المؤمنين الذين رضي الله عنهم فأنجاهم من الغرق.

نوح صلّى الله عليه وسلّم أولي عزم من المطيعين المخلصين وإجابة المجيب سبحانه وتعالى لدعوته جاءت خاصة، قال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}391.

(فَلَنِعْمَ المجيبون) تدل على ارتباط الطلب بالإجابة في علاقة صلة لا انفصال فيها، ولهذا؛ فالمجيب يجيب بالطبيعة لأنه المجيب، والإجابة له جاءت في الزمن (الآن) الذي كان فيه الدعاء من نوح صلّى الله عليه

[390] القمر 10 . 14.

[391] الصافات 71 . 76.

وسلّم، ولهذا فإن بعض الإجابات الملبية للطلب والدعاء يكون الفعل فيها مرتبطا مع القول، والبعض الآخر تسجَّل الإجابة في الحين وتُحفظ مع موعد فعلها المستوجب. ولفظ (فلنعم المجيبون) تدل على أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة، وبيانه من وجوه:

الأوّل: أنّه تعالى عبَّر عن ذاته بصيغة الجمع فقال: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم.

والثاني: أنّه أعاد صيغة الجمع في قوله: (فَلَنِعْمَ المجيبون) وذلك أيضا يدل على تعظيم تلك النعمة وتعزيزه عزّ وجلّ لنوح صلّى الله عليه وسلّم، خاصة وأنّه قد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة.

والثالث: أنّ الفاء في قوله: (فَلَنِعْمَ المجيبون) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللا به، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة، ثم أنه تعالى لما بيَّن أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال.

وكما الدعاء مطلق فالإجابة مطلقة تتبع إرادته سبحانه، فهي فورية أحيانا لا تأخير فيها وذلك عندما يكون الدعاء بقصدٍ مخصوص كما في دعاء سيدنا عيسى عليه الصّلاة السلام: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآية مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أحدا مِنَ الْعَالَمِينَ}[392]، سأل عيسى صلّى الله عليه وسلّم ربّه فكانت الإجابة فوريه لان الدعاء كان لغرض إلزام الحجّة التي يجب أن تكون قاطعة لا لبس فيها. وسؤال عيسى يقيني بأنه مجيب

[392] المائدة 115،114.

وظنَّ الآخرون فيه شك فكانت الإجابة يقينا كما رآها عيسى يقينا. وهكذا يكون الخليفة أبدا، مؤمنا بأنه المجيب، أي بطبيعة الحال بما أنه المجيب لابدّ وان يجيب فهذه من صفاته، وأنه لمن الغرابة أن يؤمن الإنسان بأنه المجيب ويظن في دعائه إليه بين شك ويقين، فالحمد لله من يدعوه دائما دون شكٍ يجده أسرع المجيبين.

والمجيب إجابته على احتمالات منها:

ـ هو من يعلم بالأمر ويُجيب على ما يعلم به من أمر وفق علمه به، وفي هذا الأمر لا نُدخل الله في الإجابة فهو المجيب بلا حدود ولا شروط ولا حدود.

ـ المجيب في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هو من يجيب دون ضمان يقيني فيما يجيب به إن لم يكن أخذا إجابته من اليقين الحقّ (الكتاب الحكيم).

ـ المجيب في دائرة النسبية والممكن ليس دائما صادقا فيما يقوله من إجابة فقد يتعمد التضليل والتزوير والتشويه للحقّائق وتكون المصيبة إن اخذ السائل بما أجابه به المجيب الذي استهدفه السائل بالسؤال.

ـ المجيب قد يتعهد بما أجاب به ثم يتخلى عن تعهده (إجابته) وقد ينكرها بأسباب اجتماعية أو سياسية أو مصلحيه أو كيدية نفسية دون مخافة من الله تعالى.

ـ الإجابة لا تكون إلا حيث يكون السائل ووفقٍ لسؤاله المحدد.

ب ـ المستجيب:

المستجيب جلّ وعلا هو الذي يسمع الظاهر والباطن من الدعاء، فهو الذي يسمع الملفوظ من دعاء العباد ويحثهم عليه ويجيبهم، قال تعالى:

{هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لما جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ ربِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِربّ الْعَالَمِينَ}393، ومع ذلك وإن لم ينطق العبد استجاب الرحمن لما في صدره فهو الذي يعلم المكنون في الصدور: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْربُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}394، وعلمه سبحانه كلي مطلق شامل وسمع الدعاء من علمه بالبواطن، فلا يشترط لفظ القول في ما يدعو الإنسان به ربّه لأنه عليم بذات الصدور: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ أنه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}395.

وقال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ أنهمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}396. ما أجمل كلمة (فاستجبنا) المعبرة عن الالتزام مع أمره (كن) فيكون فهي ليست استعجاليه كما يظن البعض، بل هي الاستجابة المتلازمة مع الأمر (كن)، ولذا (فاستجبنا) تتكون من معطيات القوّة التي ترتبط بقوّة المجيب دون تردد وذلك لارتباط قوّة السائل بالمجيب دون شك وتردد.

---

393 غافر 65، 66.

394 ق، 16،17.

395 الملك 13.

396 الأنبياء 87 . 90.

وللإجابة الفورية شرط أساس هو الإخلاص التام في الدعاء والانقطاع إلى الله عزّ وجلّ دون غيره، وأمثلة القران المؤكدة لذلك عديدة منها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أنهمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فلما أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ يَا أيهَا النّاس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}397، ولأن الإنسان في الحياة الدنيا هو محل اختبار في كل ما يقول ويفعل ولأن الله يمهل ولا يهمل فالله يجيب دعاء السائل المحتاج إليه حين السؤال ليبيّنَ له أنه المجيب المطلق فإن آمن كان خيرا له وأن ارتد أو كفر فله عذاب اليم.

وقد تكون الإجابة إجابة تدبير لان المجيب هو المدبر، فربّما دعا إنسان ربّه طلبا للمال مثلا فان الإجابة تكون بالتدبير كأن يُسهّل الله لهذا العبد عملا من الأعمال ويبارك له فيه وهكذا يجيب المدبر: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكُمُ الحقّ فَمَاذَا بَعْدَ الحقّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}398.

ومن كرمه سبحانه أنه يجيب المحتاج مثل ما أجاب سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى: {ولما تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى ربّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ولما وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أمة مِنَ النّاس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امرأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى

---

[397] يونس 22،23.

[398] يونس، 31،32.

يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ ربّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ أحداهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلما جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}399.

في قوله: (فَقَالَ ربّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير) موسى صلّى الله عليه وسلّم يشكر ربّه على عطائه واستجابته له، ويقر أنه لا غنا عنه في أي إجابة، بل كل ما يجيب المجيب جلّ جلاله تزداد الحاجة إليه إثباتا. والحاجة التي يلبيها المجيب سبحانه لا تكون بالضرورة حاجة مادية كالمال أو الطعام فربّما تكون حاجة معنوية كالصحة والشفاء والعلم والحكم والحكمة وتيسير الأمر والمؤازرة، قال تعالى: {قَالَ ربّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بصيرا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى}400، وقال تعالى: {قَالَ ربّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأحد مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}401، وهكذا تتعدد المطالب مع تعدد الحاجات المتطورة فتجد من يطلب المال أولا وتجد من يطلب الذرية أولا خاصة وان الاستخلاف في الأرض قد أسس عليها تكاثرا فما من بشر إلا ورغب في ذرية على ما فيها من نصب وعناء في الإنفاق والرعاية لكنها سُنَّة الله في خلقه ليكون من بعد الخليفة خليفة، وقد طلب هذه الحاجة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلما رَأَى أيدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ

---

[399] القصص، 23 . 25.

[400] طه، 25 . 37.

[401] ص، 35.

خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وامرأتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}402، وطلبها زكريا صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}403، هذه الحاجات وما يشابهها هي حاجات دنيوية ولكن على العبد أن لا ينسى حاجاته الأخروية وان يدعو إليها فهي الباقية التي تجعله سرمديا في الجنّة، ولهذا لا ينبغي أن يقتصر الدعاء على مشبعات الحاجات الدنيوية فقط، بل يجب أن يتعدى الأمر إلى ما هو خير وأبقى، قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ ربّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ربّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النّار أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ممّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}404.

وغير المحتاج في الحياة الدنيا بما لديه من مشبعات لحاجاته الأساسية هو الآخر محتاج لرحمة ربّه تعالى وإلا سيكون أكبر الخاسرين، فأين هو من صلاته، وصومه، وزكاته، وتصدقه، وحجّه واعتماره، وحُسن معاملته للآخرين وخاصة إذا ما جاءه سائل؟ وأين هو من نيته مع نفسه والآخرين؟ وما علاقته مع أيفاء الكيل والميزان؟

بدون شك فلا مخلوق من بشر وشجر وحيوان وطير وسمك وأفلاك ونجوم غنى عن الله سبحانه فكل المخلوقات فقيرة محتاجة إليه في كل حين، ولأن الله هو واسع الرحمة فمن حقّ الغني أن يطلب ربّه ليزداد غنا ومن حقّ السليم المعافى أن يدعو ربّه بأن يزداد صحة وعافية وسلامة وأمنا، قال

[402] هود، 69 . 71.

[403] الأنبياء، 89.

[404] البقرة، 200 . 202.

تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ ربّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}405، وفي هذه المسالة أمور مهمة أولى بنا إن نقف عليها للإجابة عن السؤال الآتي:

ـ لماذا يدعو غير المحتاج بالمزيد؟ ولماذا يجيب الله سبحانه دعوته؟

غير المحتاج يدعو الله لعلمه إن ما أعطاه إياه هو فضل منه، ولذا فإن الاعتراف بالفضل اعتراف بالحقّ الذي لا يكون إلا من المجيب، ولهذا تكون الزيادة مرضاة من السميع المجيب، أما دعوة المحتاج فتكون أحيانا للضرورة أي للحاجة وبالتالي ليس دائما كل سائل خليفة، فغير الخليفة لا ضامن له بالاستمرار في الدعاء، وقد يظن أن ما أتاه ليس بأسباب الدعاء والسؤال لله تعالى، فيتغير أو يحيد عن النفس التي بها دعا الله حتى الإجابة، وإجابة الله دليل إثبات أنه القريب المجيب الدعاء.

وعليه فالمؤمن بربّه المخلص في الطاعة والعبادة سواء أكان فقيرا أم غنيا ومهما أعطي من رزق وملك وصحة فهو الحامد الشاكر، ولهذا تكون الزيادة دائمة مع حياة الشاكر الحامد لربّه تعالى، ولهذا كلما زاد الحمد والشكر أزداد العطاء الذي لا ينقطع إلا من جاحد وناكر لفضله، ولهذا من يريد الزيادة ليس له بدٌّ إلا أن يعمل خيرا ويُكثر منه وأن يحمد ربّه ويشكره، (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ).

وعليه: فالمجيب يجيب لثبات صفة الإجابة عنده، إمَّا وقت الإجابة فهو دائما بيد المجيب العليم الخبير الذي يعلم ويخبر متى تكون الإجابة ومتى لا تكون من حيث الظرف الزماني والمكاني ومن حيث التقدير العام. فالله سبحانه وتعالى يعلم مصلحة الداعي فيقدر وقت الإجابة تأجيلا أو تعجيلا بما تقتضيه المشيئة الإلهية المتعلقة بالمصلحة التي من أجلها دع

405 إبراهيم، 7.

الداعي فتكون الإجابة في وقتها أمرا نافذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والإجابة أنواع:

. إجابة لإثبات قدرة ومُلك.

. إجابة ليقين السائل بأنه المجيب.

. إجابة لإزالة الظن والشك في القوّة والقدرة والسمع والبصر.

. إجابة ابتلائية.

. إجابة عقابية.

. إجابة لإحقّاق حقّ وإزهاق باطل.

ولذلك لا ينبغي لنا أن نقارن المجيب الكامل المطلق بالسائل الناقص المحتاج، فقدرة البشر على العطاء مهما كبرت تبقى محدودة قاصرة، فلو طلبت من بشر كريم مال أعطاك لكن من الضامن لدوام حال البقاء للمال أو لغيره إلا المعطي سبحانه، وإذا سألت طبيبا علاج مرضك فمن يضمن الشفاء من الداء إلا المجيب الخبير الشافي جلّ وعلا.

إذا الدعاء دليل إيماني وهو عبادة لا تؤدّى إلا بالدعاء الصالح الذي تكون إجابته إحقّاق حقّ وإزهاق باطل، أو تخلص من مظالم أو فتح باب رزق وخير ورحمة وهداية وعلم وملك وشفاء ورضا.

ولذا؛ فإنّ ترك الدعاء هو تقصير عن عبادة وتكبُّر في غير محله قال تعالى: {وَقَالَ ربّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}406

والمستجيب دائم الاستجابة لا يكل ولا يمل فهو الجليل الكريم، إجابته مطلقة نص عليها مشروطة بالدعاء ظاهرا كان أم خفيا: (وَقَالَ ربّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)، وفي هذه الآية الكريمة ليس هناك تحديد للدعاء، فالإنسان يستطيع أن تدعو المجيب بكل ما يُريد وما يشتهي في مرضاته عزّ وجلّ، وإذا سأل السائل عن دعوة تخالف مرضاة الله؟ فالإجابة تكون بقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ العزّة فَلِلَّهِ العزّة جميعا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}407.

وعلى ذلك كانت الإجابة من المجيب سبحانه للمحتاج وغير المحتاج فهو ربّ الجميع ولا إله غيره وكل من يدعو غيره فهو في ضلال عقدي وفكري، عقدي:

. فمن حيث فساد الاعتقاد عنده بقدرة غير الله على الإجابة: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامة وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}408.

. ومن حيث الضلال الفكري يتمثل في تصور وجود قوّة غير الله سبحانه قادرة على فعل شيء: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}409.

---

[406] غافر 60.

[407] فاطر 10.

[408] الأحقّاف 5.

إذا من الذي ينصرك إذا غُلبت أو تغلّبتَ؟

المناصرة يمكن أن تأتيك من بشر، أما النصّر فلا يأتيك إلا من الله الذي يملك الأسباب مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}410. ولذا؛ فمن لا يتوكل على الله لن يجد له نصيرا مناصر ولن يكون موفقا فيما يعمل وسيظل إن لم يهتدي إلى التوكل على الحي الدائم الذي بيد والخير وهو على كل شيء قدير سبحانه.

إذا المستجيب هو الذي تُعد الاستجابة صفة حُسنى من صفاته المطلقة، والاستجابة ذاتية سواء سألت أم لم تسأل فهو العليم المجيب، يعلم بالحال وما هو عليه ويُجيب له بما يبقيه على العافية والسلامة والبقاء إلى أجله سواء أكان حال إنسان أم حيوان قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}411، وقال تعالى: {وَكَأينْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَأياكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}412.

ومن دواعي الإجابة:

1 . السؤال وهو أن تسأل الله حاجتك التي تريد ولا تشك في إجابته لأنّه الكريم الذي لا يرد السائل ويُعلّم عباده ذلك فيقول لهم: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}413، فإذا كان المجيب يُعلِّمَ عباده ويحثّهم على إجابة السائل فلا شكّ أن من يسأل الله يجده ودودا مجيبا: {قَالَ ربّ اشْرَحْ لِي

---

409 الأعراف 197.

410 آل عمران 160.

411 هود 6.

412 العنكبوت 60.

413 الضحى 10.

صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بصيرا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}414.

وعليه فالدعوة طلب يقدم مع ترجي وأمل متحقّق بأحد الاستجابات التي منها:

أ ـ استجابة قولية: من المجيب المطلق جلّ جلاله ممّا يجعل الاستبشار بها في الحياة الدنيا قبل أن تكون فعل متحقّقا وذلك لتأجيلها مع الزمن الآتي الذي لا تكون إلا فيه، قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}415.

ومن الاستجابات القولية نعرض بعض ما نستشهد به من الآيات الكريمة الدالة على ذلك، قال تعالى: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امرأتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امرأتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ ربّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شيئا قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آية قَالَ أيتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ

414 طه 25 ـ 36.

415 آل عمران 195.

مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}416، وقال تعالى: {وأيوبَ إِذْ نَادَى ربّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ وَإِسماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا أنهمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانك إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ ربّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ووَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ أنهمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}417.

ب . استجابة عملية فعلية: يستجاب بها على الداعي والمغيث لتكون الاستجابة دليلا عمليا بالقوّة والقدرة المطلقة حيت لا مرد لها، قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ ربّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}418.

وكثر من آيات الذكر الحكيم تنص وتدل على الاستجابة العملية والفعلية، مصداقا لقوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحقّ إِذْ قَربّا قُربّانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أحدهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ

---

[416] مريم 1 . 11.

[417] الأنبياء 83 . 90.

[418] الأنفال 9، 10.

فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}419، وقال تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}420، وقال تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاس بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقوّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ آياتيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آية لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنهمْ كَذَّبُوا بِآياتنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}421.

ج . استجابة سلوكية أو فعلية: فالله تعالى يدعونا إلى اخذ العبرة والعظة، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرّسُل إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أمة رسولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حقّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}422، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ ربّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ ربّكَ

---

419 المائدة 27 . 30.

420 المائدة 45.

421 الأعراف 144 . 146.

422 النحل 35 . 37.

لَبِالْمِرْصَادِ}423، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}424.

د . استجابة قلبية: تطمئن بها الأنفس ويصاحبها الأمل في الفوز والمغالية والنصّر الذي لا ينقطع مع استئناس وتسليم تام بما أعلن المستجيب من استجابات تطمئن القلوب بها وتطمئن إليها مصداقا لقوله تعالى: {يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}425، وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}426، وقال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}427.

بقي أن نطرح سؤالا مهما عن الأعمال غير الصالحة:

هل سيكون المجيب مستجاب بالثواب لدعاء الذين لم يهتدون؟

نقول:

---

[423] الفجر 6 . 14.

[424] الفيل 1 . 5.

[425] آل عمران 118 . 121.

[426] البقرة 235.

[427] غافر 19.

الأمر يتعلق بالسائل ولا يتعلق بالمجيب لان المجيب هو الباقي المجيب الذي يستجيب لدعاء الداعي إن دعاه على يقين وتدلل، أما السائل فهو المتغير فإذا غيّر الإنسان عمله الطالح إلى العمل الصالح مخلصا صادقا أثيب برحمة الله على مجمل أعماله، بل الله المجيب قادر على أن يبدل أعماله غير المفسدة إلى صلاح ويجعله من المصلحين فيها لا المفسدين وتصبح سيئاته حسنات مصداق لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالحا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صالحا فَأنه يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}428، وكلما كان العمل السابق سيئا كريها وكان ترك العبد له تركا نهائيا منقطا ضاعف له المجيب تعالى الأجر: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}429.

وكذلك ترك المعاصي على لذاتها، وهذا من دواعي الإجابة لان فيه إخلاص واستقامة: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الجنّة هِيَ الْمَأْوَى}430، ومن ابلغ ما علمنا الله به مثله الذي ضربّه لنا في قصة يوسف صلّى الله عليه وسلّم الذي ترك عصيان المجيب بترك اللذة ثم دعا فكانت الإجابة: {قَالَ ربّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ أنه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}431.

وهكذا يكون الإنفاق وهو البذل بالحقّ على النفس أو على غيرها، فالإنفاق على العيال من الإنفاق في سبيل الله، والإنفاق على الفقراء

---

428 الفرقان 70،71.

429 الحديد 18.

430 النازعات 40،41.

431 يوسف 33،34.

والمساكين كذلك، وهو من دواعي إجابة المجيب: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}432.

والصبر على الشدة أيضا، فمن صبر طاعة للحقّ فاز وما الحياة الدنيا إلا غرور، قال تعالى: {قُلْ يَا أيها النَّاس قَدْ جَاءَكُمُ الحق مِنْ ربّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}433، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}434، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا}435.

ولذا؛ فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن الإحسان الذي يحقّق استجابات عظيمة من المجيب المطلق جلّ جلاله، قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً أنه لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}436، وقال تعالى: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}437.

---

432 السجدة 17،16.

433 يونس 108، 109.

434 النحل 127، 128.

435 المزمل 10 . 13.

436 الأعراف 56،55.

437 القصص، 77.

وعلى الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ويريده ليكون خليفة له في الأرض أن يترك الحسد، فالذين يتمنون زوال النعمة من الذين انعم الله عليهم من واسع فضله هم في حقّيقة الأمر ليسوا بصالحين ولا مصلحين في الأرض ولا طائعين، فكيف يفكرون في ذلك أو يقدموا عليه والله هو الذي رزقهم وأغناهم وأعطاهم، فهل على عطائه اعتراض؟

استغفر الله والحمد لله الذي هدانا للتي هي أحسن، قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحقّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[438]. ومنهم من يرى في عطاء الله لعباده سعةً وفرصة لدعاء المجيب لأنه يعلم أنه عادل لا يفرّقَ بين عباده إذا سلكوا نهجه كما حصل مع زكريا صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا ربّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنبيا مِنَ الصَّالِحِينَ}[439]، لما وجد زكريا عند مريم رزق الفصول الأربّع قال لها: أنى لك هذا في غير حينه. قالت: هو رزق من عند الله يأتيني به الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فرغب زكريا في الولد فقال: إن الذي أتى مريم بهذه الفاكهة في غير حينها لقادر على أن يصلح لي زوجتي ويهب لي منها ولدا فعند ذلك دع زكريا ربّه مصداقا لقوله تعالى. {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ربّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ

---

[438] البقرة 109.

[439] آل عمران 37ـ 39.

سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنبيا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ربّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامرأتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ ربّ اجْعَلْ لِي آية قَالَ أيتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النّاس ثَلَاثَةَ أيامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ ربّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}440

وعلى من يرغب في استجابة ربّه له أن يكون مخلص في العبادة، قال تعالى: {وَأيوبَ إِذْ نَادَى ربّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}441، وهنا الإشارة بيّنة فدعاء أيوب وإجابة المجيب سبحانه ذكرى للعابدين لكي يتلمسوا طريق الإخلاص في العبادة كما أيوب لينالوا ما نال من إجابة الدعاء.

وعلى من يرغي استجابة المجيب لدعائه أن يصفي نفسه تجاه العباد ويُخلِصَ نيتّه تجاه ربّه فيكون على الصفاء مع صدق الإيمان، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبحانكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}442.

ولا ينسى الداعي أنّ الاستجابة مرتبطة مع الاستغفار فالله يعفو عن كثير، قال تعالى: {قَالَا ربّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ الأعراف، وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا

---

440 آل عمران، 38 . 41.

441 الأنبياء 83، 84.

442 الأنبياء 87،88.

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ ربِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}443.

ولأنّ المجيب قريب من عباده، فهو السميع العليم الذي يعلم أمر ما خلق ومن خلق، ولا نعني بالقربَ القربّ المكاني بل نعني به قربّ المالك من ملكه إحاطة وعلما وهيمنة، يقول المجيب جلّ وعلا: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}444.

أنّ قوله: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي) يدل على أمور مهمة منها:

أولا: أنّ العبد له أن يسأل

ثانيا: وقوله: (فَإِنِّي قَرِيبٌ) يدل على أنّ الرّب القريب من العبد فهو يسمع السائلين ويجيبهم بقوّة المقربّة منه عزّ وجلّ.

ثالثا: أن الداعي إذا بقي خاطره مشغولا بغير الله تعالى فإنه سيكون بعيدا، بخلاف الله الذي لا يشغله شيء عن شيء من خلقه.

وحظ الخليفة من الاسم المجيب أن يجيب ربّه فيما أمره ونهاه ويتلقى عباده بلطف الجواب وإسعاف السؤال، يؤمن بالله وأحدا أحدا ولا يشرك به شيئا، يؤمن بما أمر إقداما على ما يجب أن يؤدى وابتعادا واجتنابا لما ينبغي الابتعاد عنه واجتنابه، يطيع والديه في غير معصية الله تعالى، يعمل المعروف في أهله ولا يعمله في غيرهم، يعدل بين النّاس إذا حكم بينهم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويستغفر الله في خطأ يرتكبه كلما أدرك أنه خطأ، ويتقي الله ربّه في أبنائه وزوجه وجيرانه قربّى وبعدى، يغيث المستغاث به، يتصدق ولا ينهر السائل، فللسائل حقّ وللمجيب حقّ

[443] هود 23 ـ 25.

[444] البقرة 186.

وكليهما في حاجة على الأقل للكلمة الطيبة، يمد يد العون والمساعدة لمن يلتجئ إليه محتاجا وفق المستطاع، لا يكره النّاس أشيائهم.

والخليفة يعلم علم اليقين إن المجيب قريب سميع يجيب دعوة الداعي إذا دعاه بنيّة أو بقول أو بحركة وفعل، فهو يعلم أنه يعلم ما تُكنَّه الصدور وما تعلنه، ويعلم إن المجيب يجيب بطلب وبدون طلب، ولذا فعليه أن يتحسس حاجات النّاس الذين لهم حقّ عليه قبل أن يتقدموا له أو لغيره بطلب أو سؤال لتكون فيه صفة الاستجابة من المستجيب المطلق جلّ جلاله مستمدة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ أنه لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لما رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}445.

وعند الحاجة يدعو الخليفة ربّه المجيب عزّ وجلّ، فهو الذي لا يغفل عن سائله وهنا يكون الاستغراب ممن يدعو غير المجيب المطلق جلّ جلاله، قال تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}446، فهؤلاء ومن هم على غرارهم لا يملكون القدرة على الإجابة: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ}447.

---

[445] الشورى 38 ـ 44.

[446] المائدة 76.

[447] الأحقّاف 5.

يونس الاسم:

لقد ورد اسم النبي يونس مع لقب وكنية في القران الكريم وهذا يدفع لتساؤلات هل جميعها لنفس الرّسول أم لرسولين أم لرسل؟

الاسم:

قال الله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}448.

فالرّسول هو يونس مرسل من عند الله لقومه الذين آمنوا جميعا بعد ذلك.

اللقب:

{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}449.

الكنية:

{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}450.

ولاحظنا أنه حول كل منهم: الاسم واللقب والكنية قضية، وكل قضية ذات صلة بالأخرى تعود على النبي يونس صلّى الله عليه وسلّم.

يونس:

الاسم أعجمي غير عربيّ مخصوص بالرّسول الذي أبق إلى الفلك المشحون

448 الصافات 139-140.

449 القلم 8.

450 الأنبياء 87.

واللقب والكنية بذات المدلول إذا اتفقنا حول معنى:

ذا

النون

فهل ذا اسم إشارة من غير (هـ) التي للتنبيه؟

هل اسم من الأسماء الستة؟

هل النون بمعنى؟

الحرف من حروف الهجاء.

السيف.

الحوت المذكر.

ولبيان ذلك ننظر في اللغة.

. حول اسم الإشارة:

."(ذا) اسمٌ يُشّار به إلى المذّكر وذِي بكسر الذال للمؤنث تقول ذِي أَمَةُ الله فإن أَدْخَلْتَ عليها هَا التَّنْبِيه قلت هذا زيدٌ وهذي أَمَةُ الله وهذه أيضا بتحريك الهاء. والجَمْعُ أُولاءِ من غير لفظه. فإن خاطَبْتَ جئْتَ بالكاف فَقُلْتَ ذاكَ وذلِكَ فاللّامُ زائِدة والكافُ للخِطَاب وفيها دَلِيلٌ على أَنّ ما يُومَأُ إليه بَعِيدٌ ولا مَوْضِعُ لها من الإعْراب. وتُدْخِلُها على ذَاكَ فتقول هَذَاكَ زيدٌ ولا تُدْخِلُها على ذلِكَ ولا عَلَى أُولَئِكَ كما لَمْ تُدْخِلْها على تِلْكَ"[451].

[451] مختار الصحاح ج 1، ص 106.

وممّا تقدّم نتساءل؟

هل ذا التي سبقت (نون) تشير إلى (نون)؟

فيكون المعنى:

هذا نون

حسب ما سنتفق عليه حول معنى نون

وإذا سلمنا جدلا أن (ذا) اسم إشارة

و (النون) مشار إليه

يكون النبي المرسل الذي أبق إلى الفلك المشحون اسمه (نون)

ويترتب على ذلك:

انفصال قصته عن باقي القصص التي وردت عن يونس

يكون رسول من رسل الله اسمه نون لم يفطن إليه المفسرون وكتّاب السيّر.

ويكون ثلاث رسل:

- يونس.

- صاحب الحوت.

- ذا النون.

ومن المنطقي إذا افترضنا جدلا أن ذا اسم إشارة يترتب عليه أن يكون ما بعدها مشار إليه.

فهل النون اسم له معنى في العربيّة؟

هل يونس اسم له معنى في العربّية؟

فلو قلنا إن يونس اسم أعجمي ليس له معنى يمكن أن يترتب عليه:

أن (نون) كلمة أعجمية ليس لها معنى.

ولو وجدنا معنى لنون ترتب أن يكون معنى ليونس!

ولو فصلنا بينهما واعتبرنا أن يونس أعجمي، ونون عربّي، يتبقى التأكيد على معنى النون إن كان له أكثر من معنى في العربّية!

ولو كان النون معنى له دلالة الاسم تسمى به أحد من العربّ أو غيرهم لكان النون افتراضا نبيا!

ولو كان في العربّية لا يدل على معنى اسم صرفناه إلى ما يجب أن يصرف إليه.

من معاني النون:

ـ النون (الدواة) وبه فسر قوله عزّ وجلّ ن والقلم عن الحسن وقتادة.

ـ قيل (الحوت) وبه فسر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الآية.

ـ وقال الأزهري ن والقلم لا يجوز فيه غير الهجاء ألا ترى أن كتاب المصحف كتبوه (ن) ولو أريد به الدواة أو الحوت لكتب (نون).

ـ (ج نينان) بالكسر أي جمع النون الذي بمعنى الحوت ومنه حديث على رضي الله تعالى عنه: "يعلم اختلاف النينان في البحار الغامرات ويجمع أيضا على (أنوان) النون (شفرة السيف) (وذو النون لقب يونس) بن متى على نبينا وصلّى الله عليه وسلّم وقد ذكره الله تعالى في كتابه وسماه كذلك لأنه حبسه في جوف الحوت الذي التقم وذو النون (اسم سيف لهم) قيل كان لمالك بن قيس أخي قيس بن زهير (لكونه على مثال سمكة)

(ونونة) بالضم (بنت أمية) بن عبد شمس (عمة أبي سفيان بن حربّ) بن أمية (والنونة الكلمة من الصواب) أيضا (السمكة) وقال أبو تراب أنشدني جماعة من فصحاء قيس وأهل الصدق منهم: حاملة دلوك لا محموله ملأى من الماء كعين النونه، فقلت لهم رواها الأصمعي كعين الموله فلم يعرفوها. وقالوا النونة سمكة وقال أبو عمرو الموله العنكبوت، والنونة (النقرة في ذقن الصبي الصغير) ومنه حديث عثمان رضي الله تعالى عنه رأى صبيا مليحا فقال دسّموا نونته أي سود وها لئلا تصيبه العين، (ونينوى بكسر أوله) كما في المعجم لياقوت (بالكوفة) في سوادها منها كربّلاء التي قتل فيها سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه وأيضا (بالموصل ليونس بن متى صلّى الله عليه وسلّم)"452.

ممّا تقدّم لغة يتبين:

. (ن) حرف

وطالما هو حرف فهو غير (النون) الذي سبقه ذا على احتمالين أهي للإشارة أم من الأسماء الستة بمعنى صاحب.

. النون

التي سبقتها ذا لها معنى ووصف

المعنى: الحوت السمكة الذكر

الوصف: (ذو النون) السيف الذي على شكل السمكة

وعليه: لو أخذنا بالمعنى العربيّ للنون كما ورد في كتب اللغة

452 تاج العروس. ج 1، ص 8188.

. لا يكون (ذا) النون بمعنى هذا الحرف فينتفي كون ذا اسم إشارة.

. لا يكون بمعنى هذا الحوت.

. لا يكون بمعنى هذا السيف.

. لم يتسمَّ أحد من العربّ كما بين أيدينا من اللغة ب (ن) ولا (ر) ولا (ب) إذا كانت بقصد حرف الهجاء.

. انتقل شكل الحرف للوصف به مثل:

نوني الحاجب.

نوني القصة.

وأواي الخصلة من الشعر.

لذا نقول:

الأقربّ أن تكون:

. (النون) كلمة لها دلالة معينة على كائن ما

. (ن) حرف هجاء لا دلالة لها في ذاتها بل مع غيرها من حروف في حالة تركيب بنية لكلمة ما.

. ذا ليست اسم إشارة في (ذا النون)

وعليه:

. ذا اسم من الأسماء الستة.

. معربّة منصوبة بالألف نيابة عن الفتحة.

. ليست ممّا تلزم حرفا وأحدا في جميع أوجه الإعراب مثل:

(إن أباها وأبا أباها)

بل إعرابها في الآية ذو صلة بما قبله من آيات، أو يستدل به من الآيات السابقة

وجدنا كل أسماء الأنبياء في الآيات السابقة منصوبة مثل:

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى ربَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[453].

فأيوبَ وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل، هي كلها مفعولات لفعل محذوف تقديره اذكر، والأسماء المعطوف بالعطف على السابق لها مباشرة، فيكون ذا النون بمعنى صاحب النون.

وعليه:

فالاسم يونس أعجمي.

والكنية ذا النون عربيّ.

واللقب صاحب الحوت عربيّ.

والثلاثة تعود على نبي واحد هو الذي نادى في ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت.

---

[453] الأنبياء 83.87.

ويكون اسم واحد ولقب يتطابق مع الكنية يونس صاحب الحوت، وصاحب الحوت هو ذاته ذو النون.

ذو بمعنى صاحب.

النون تعني الحوت.

ذو النون صاحب الحوت.

المغاضبة والظنّ:

ولنا رؤية أخرى بين الغضب والمغاضبة تنوّع ما قلناه عن المغاضبة في مكان ثان من البحث في سيرة النبي يونس عليه السلام وسنظهرها في الصفحات الآتية.

قال الله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}454.

المغاضبة:

اتفقنا على أن ذا النون هو سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم وهو الذي ذهب مغاضبا.

وهنا تبدو تساؤلات؟

ما ذا تعني مغاضبا؟

أهي من الغضب؟

وإن كانت غضبا، فما سبب الغضب؟ وممّا كان؟

[454] الأنبياء 88.87.

أهو من صعوبة الدعوة؟

من فشل الدعوة؟

هل الغضب من نفسه؟

من ربّه؟

من قومه؟

وما مترتبات الغضب؟

إيجابية!

سلبية!

أم أن الأمر لا يتعلق أساسا بغضب؟

وللغة رأي آخر في المغاضبة.

هل نرضى أن يتصف نبي من أنبياء الله بالغضب لنفسه؟

بالغضب من ربّه؟

بالغضب من قومه والذهاب عنهم؟

أم ينبغي أن يكون الغضب لله، ولقومه، وليس منهم، بل عليهم، ولماذا جاءت مغاضبا وليس غضبانا؟

المغاضبة:

جاءت في اللغة على معان منها:

المراغمة:

"المـُرَاغَمة المـُغَاضَبَة يقال رَاغَمَ فلان قَوْمَه إذا نَابَذَهم وخرج عليهم.[455]

ومنها:

الهجران.

التباعد.

النبذ.

الترك.

والخروج عنهم.

والعداوة.

والمراغمة: "والمراغَمةُ المغاضبة وأَرْغَمَ أَهله وراغَمَهُمْ هجرهم وراغَم قومه نَبَذهُم وخرج عنهم وعاداهم ولم أُبالِ رَغْم أنفِه والمراغَمَةُ الهِجْرانُ والتباعد"[456].

"والترغم: التغضب، وعبد مراغم: أي مضطربّ على مواليه"[457].

وممّا تقدّم يتبيّن:

455 مختار الصحاح، ج 1، ص 122.

456 لسان العرب، ج 12، ص 245.

457 تهذيب اللغة، ج 3، ص 82.

أنّ مغاضبة يونس صلّى الله عليه وسلّم، مراغمة لقومه في الجانب الإيجابي الذي يريد تنبيه قومه إلى أنهم قد أخطئوا، فهو نوع من التوجيه بفقدهم إياه.

وجاء هذا التنبيه بطريق المغاضبة التي من معانيها النبذ.

والنبذ: الابتعاد قليلا مع إمكانية متابعة المنبوذ لتوجيهه إذا لزم الأمر، والمنبوذ هنا ليس بالضرورة المكروه إنما المنصرف عنه قليلا، فانتباذ مريم لم يكن هجر المكان والابتعاد عنه، بل كان البقاء والابتعاد فيه، وعدم الانفصال عنه، فالانتباذ العزلة، ومريم اعتزلت المحراب، واعتزلت أهلها ولم تفارقهم، بل اتخذت من دونهم حجابا، والحجاب لا يدل على بعد المسافة.

الحجاب:

- رقيق ضيق.

- يسمح بالتواصل.

- يحافظ على العزلة.

مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}458.

ويونس كانت مغاضبته العزلة عن قومه وليس من قومه، فالنبي يفعل ما يراه مناسبا للدعوة.

ثم إن الكنية ذا النون تثير تساؤلا؟

---

[458] مريم 17.16.

هل هذه الكنية كانت قبل الذهاب أم بعد الذهاب؟

فلو كانت قبل الذهاب لكان السياق (ويونس إذ ذهب) ولكن الآية ذكرت الكنية قبل الذهاب.

وهذا يدفع للتساؤل:

ألا يجوز أن تكون الكنية سابقة على الذهاب ويكون يونس اسما وكنيته ذا النون.

قبل الذهاب ثم الالتقام من الحوت، فكان اللقب (صاحب الحوت).

وقوله: وذا النون إذ ذهب مغاضبا، فكنيته ذا النون من قبل أن يذهب، ولكننا نرى أن الأمر على الحكاية من الله للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم فأخبره بما أفضت إليه الأحداث التي مرّ بها يونس صلّى الله عليه وسلّم.

وما أصبح له كنية.

وما أصبح له لقب.

بتقديم وتأخير حسب الإرادة الإلهية!

فيكون التعبير بذي النون ليس على ترتيب الحكاية ولكن حسب إخبار الله للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

هذا عن الكنية (ذا النون).

ومغاضبا ممّا تعنيه: مهاجرا، والهجرة هنا ليست نقلة مكان أو غيبة زمان، ولكن تعني هجرة عقيدة؛ فالنبي يونس كان مغاضبا لقومه بهجره لما يعتقدونه مع حرصه عليهم وصبره لأنه رسول من رسل الله الذين هذه من صفاتهم، وهذا من الهجر الجميل الذي قال الله عنه: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ربّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْربّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}459، فالنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم اتخذ الله وكيلا فقال له فاصبر على ما يقولون وليكن الصبر عملا بالآتي:

. فوض أمرهم إلي.

. لأنيّ وكيلك سأصلح أمرك وأمرهم.

. أحسن من قيامك بواجبك تجاههم

ومع تمام العلم بأن مهام العباد محصورة في أمرين:

1 . كيف يتعاملون مع الله؟

2 . كيف يتعاملون مع الخلق؟

والتعامل مع الله أساس التعامل مع النّاس، ففيما يتعلق بالله سبحانه وضح سبحانه وتعالى أن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس أو مجانبا لهم، والأنبياء قدوة النّاس فلابدّ أن يكونوا مخالطين أو مجانبين حسب المواقف التي تمر بهم مع أقوامهم أثناء الدعوة.

إن خالطوهم فلابدّ لهم من المصابرة والمثابرة على إيذائهم لهم ونفورهم منهم، وهجرهم هجرا جميلا وهذا ما يقع في سياق المغاضبة التي قام بها سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم.

---

[459] المزمل 10.8

المغاضبة هجر:

المغاضبة هجر جميل، والهجر الجميل بالمجانبة بالقلب والفكر فلا يعتقد النبي ما يعتقدون ولا يحب ما يعبدون مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}460.

فهذه هجرة القلب والهوى

. هجرة العمل:

قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}461.

ومخالفتهم في أخلاقهم الفاسدة والترفع عنها، والصبر عليهم لتوجيههم إلى الطريق الصواب والصبر على ما يقولون ويفعلون ممّا لا خير فيه من مثل ما ينسبونه في حقّ الله من الشريك والصاحبة والولد وفي حقّ النبي أو الرّسول من السحر والشعر والكهانة والجنون.

ويأتي بعد الصبر الهجر الجميل، والهجر الجميل تأكيد للأمر بالصبر على أذاهم من قول وفعل، وأي أذى لنبي أكبر من كفر المستهدفين بالدعوة!

وهذا يلزمه مغاضبة والمغاضبة هجر جميل، والهجر مفارقة في الزمان أو المكان أو للأشخاص، والمستهدف من الدعوة هو الإنسان في زمان ومكان ما؛ فيكون الهجر على وجه من الوجوه التي تقتضيها الحال التي تمر

---

460 الكافرون 6.1

461 القصص 55

على الرّسول والإنسان والمكان واضحان أما الزمان فيظهر جليا في حال أهل الكهف، والذي مر على قرية خاوية على عروشها، فانتقلوا من زمن الكفر إلى زمن الإيمان.

وهجر الإنسان على صور:

. إمّا بالبدن (المجانبة).

ومنه هجر الفراش فهو نوع من المغاضبة التي لا يهجر فيها المكان والزمان بل البدن كما قال اله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}462، فهذه هجرة بدنية، وهي نوع من المغاضبة ليست هجرة كلية وتقع في المستوى النسبي من الهجرة، وهي نوع من الهجر بصبر جميل.

ومن الهجرة هجرة اللسان.

. هجرة اللسان:

وهجرة اللسان بحفظه من لفظ السوء واللغو كما في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}463.

وقال الله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ ربّنَا وربّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حجّة بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}464.

---

[462] النساء 34.

[463] الأنعام 68.

[464] النساء 15.

الهجرة بالقلب: فلا يكون فيه غير الله تعالى ويطرد من قلبه كل خاطر لا يذكّر بالله ويدعو للإقبال عليه وطاعته مصداقا لقوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حجّة بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}465.

لذلك كانت مغاضبة يونس هجر جميل لقومه، ونجد نظيره مع النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم في أمر الله له: واهجرهم هجرا جميلا، وهذا الأمر يحتمل كل أنواع الهجر الجميل باللسان والبدن والقلب.

والهجر الجميل هو الذي يَقتصر صاحبه على حقّيقة الهجر، بترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء أو أذى.

والهجر مترتب عن بعض أعمال المهجور من معتقد وسلوك، فهجرة الرّسول لم تقتصر على الهجرة البدنية التي خرج بها من مكة إلى المدينة ولكن كانت هناك هجرات من مثل:

. هجر المعتقد (لكم دينكم ولي دين).

. هجر السلوك (وأعرض عن الجاهلين).

وهجر القول (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (والذين هم عن اللغو معرضون).

لذا، يكون الهجر الذي هو (المغاضبة) الحل الأمثل للابتعاد عن أذى المهجور يدا ولسانا وعملا، فكان أمر الله لرسله بهجر المشركين هجرا جميلا ولا يتعدوا هجرهم الجميل ولا يزيدَوا عليه سَبّا أو انتقاما.

ونحن نقول:

---

465 الشورى 15.

إنّ مغاضبة يونس كانت لقومه وليست ضيق من أمر الله، الأمر إلي يعني أمور منها:

.كانت طاعة من الله.

. لم تكن طاعة من نفسه.

.كل نبي لا يفعل إلا ما أمر الله.

. يونس نبي.

. يونس لا يغاضب إلا طاعة لله.

ومن هذا المنطلق فالهجر إمساك النبي عن المستهدفين بالدعوة لحين انتباههم لما اقترفوه في حقّ النبي وفي حقّ أنفسهم وفي حقّ الله.

ويتطلب ذلك:

. الصبر الجميل.

. الهجر الجميل.

وهذا نوع من الدعوة إلى الله بطاعة الله وليس بمعصيته كما توهم البعض إنّ ذا النون غضب من الله (استغفر الله)، لذا فنحن في هذا الجانب نرفع ما الحقّ بالنبي يونس من أذى من خلال توجيه النصّوص توجيها يتسق مع كون الأنبياء مصطفين ومجتبين، ومثل هذه السلوكيات هم ينأون عنها وينهون عنها.

فهل من المعقول أن يكون نبي مرسل يغضب من الله؟

. أمّا ما يلحقّ النبي من أذى يصيبه بالضيق فهذا محتمل من حيث كون النبي إنسان، والله يعلم هذا الضيق ويعالجه في النبي مصداقا لقوله

تعالى: {الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}466.

فضيق صدر النبي ممّا يقال في حقّ الله لا في حقّ نفسه، ولا يضيق الصدر طاعة الدعوة، بل يضيق الصدر لما يصدر عن المستهدفين بالدعوة من ضلال وافتراء في حقّ الله جلّ وعلا.

وأكثر ما يؤذي أي نبي هو إلحاق الولد والزوجة بالله تعالى أو الشرك به.

وعليه:

فلا ضيق صدر نبي من مشقة الدعوة.

لا مغاضبة لنبي من الله.

إنّما هجر جميل للمستهدفين بالدعوة، وهي هجرة إلى الله وليس منه مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}467.

فسيدنا إبراهيم:

هاجر إلى ربّه.

ليس من ربّه.

هاجر من قومه.

لم يؤذهم.

---

466 الحجر 97.96.

467 العنكبوت 26.

لم يدع عليهم.

هذه الهجرة مغاضبة لله لنصرة دينه ومغاضبة من قومه ووسيلة من وسائل الدعوة، ولذا:

يونس غاضب لله.

مغاضب من قومه.

هجرهم هجرا جميلا.

مغاضب طاعة الله.

لم يغاضب طاعة نفسه.

وقال المفسرون: هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال، وقال آخرون: بل ذلك هو الأخذ بإذن الله فيما يكون أدعى إلى القبول فلا يرد النسخ في مثله وهذا أصح.

ونحن نقول:

لا نسخ في القرآن فكل ما في القرآن حلول لمشاكل اجتماعية تحيط بالزمان والمكان ولا تقتصر على جيل دون جيل ولا على مكان دون مكان.

الغضب والمغاضبة:

هل ما فعله يونس غضب أم مغاضبة؟

وهل يليق أن يكون الغضب من صفات النبي؟

وماذا لو جاء الغضب مع نبي من أنبياء الله؟

الغضب والأسف في حقّ الأنبياء:

الأسف لغة:

"الأَسَفُ: أشدُّ الحزن، وقد أَسِفَ على ما فاته وتأَسَّفَ أي تلهَّف.

والأَسيف والأَسوفُ: السريعُ الحزنِ الرقيقُ. وقد يكون الأسيفُ الغضبانَ مع الحزن"468، فالأسف الحزن واللهفة على ما فات غير مقترن في جميع أحواله بالغضب.

أما الغضب: فيقال: "غضبت لفلان إذا كان حيا، وغضبت به إذا كان ميتا"469.

وقال ابن جني: الغضب مشتق من غَضَبة الرّأس وهي جلدته: أي صار حَمْيُ قلبه إلى جلدة رأسه كما قيل أَنِفَ: أي حمي أنفه غضبا470.

أما (غضبت على) لم ترد وكأن الغضب لابدّ أن يكون إيجابي إما (ل)أو (من)، أما (على) فهو من خصائص الخالق جلّ وعلا.

والتساؤل:

هل الغضب من الغيظ؟

هل الغيظ أقل من الغضب؟

هل الغضب أعلى من الغيظ؟

هل من علاقة بين الغضب والغيظ؟

إن كان الغضب جائز في حقّ الأنبياء فهل الغيظ جائز فيهم؟

---

468 لسان العرب. ج 9، ص 5.

469 أساس البلاغة، ج 1، ص 334.

470 المخصص، ج 3، ص 183.

لنرى أولا ماذا قالت اللغة:

فصل قوم من أهل اللغة بين الغَيْظ والغضب فقالوا: الغيظ أشد من الغضب، وقال قوم: سَوْرَة الغضب أوله471.

وعليه: فالغضب انفعال نفسي يصاحبه أو يتبعه الخروج عن الطبيعة المعتادة لحين هدوء النفس، وإن كان الغاضب في الحقّ فلا يصدر منه إلا الحقّ، وإن كان للنفس والهوى فيصدر عنه خلاف الحقّ، ولا شك أنّ الأنبياء غضبهم في الحقّ وللحقّ، فلا يصلون إلى درجة الغيظ، ولكنهم يصلون إلى درجة الكظم (كظيم مكظوم) والكظيم هو الذي يكبت نفسه ويتحكم فيها لا تتحكم هي فيه.

وعن سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم الذي ورد الغضب معه في القرآن مصداقا لقول الله تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}472.

وتفسير قوله تعالى: (سَكَتَ عَن مُّوسَى الغضب)، فالكلام لا يسكت وهذا الكلام على سبيل الاستعارة المكنية كأن الغضب كان يدفعه إلى ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا وكذا، وألق الألواح، وخذ برأس أخيك إليك، فلما زال الغضب، صار كأنه سكت، ولكن الذي سكت عن الفعل هو موسى وليس الغضب الذي يتحكم في قول موسى.

فتقرأ الآية على هذا المعنى (سكت موسى عن الغضب) فهنا قلب وكما نعلم أن هناك تشبيه مقلوب، وتقديم وتأخير في الجمل من مثل: أدخلت الحذاء في قدمي، والمعنى: أدخلت قدمي في الحذاء.

---

471. المخصص، ج 3، ص 183.

472 الأعراف، 154.

كما أن سكون الغضب بزوال سبب الحزن (الأسف) فلما عرف سيدنا موسى أن أخاه هارون لم يقع منه تقصير وظهر له صحة عذره سكن غضبه وقال: (ربّ اغفر لي وَلأَخِي)473.

وقد اقترن الغضب بالأسف مع سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقول الله تعالى: {ولما رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أسفا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ ربّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ ربّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}474.

في الآيات اقترن الغضب مع الأسف وهنا نتساءل:

أيهما أسبق الأسف أم الغضب؟

ما سبب غضب موسى صلّى الله عليه وسلّم وأسفه؟

هنا تبدو احتمالات:

. أن الله أخبره حال كونه على الجبل أن قومه عبدوا العجل.

. أسف موسى.

. غضب موسى لله.

. غضب من قومه.

. لم يغضب على قومه.

. الأسف والغضب مصاحبان له قبل أن يصل إلى قومه.

---

473 الأعراف، 151.

474 الأعراف 151.150

. الغضب لم يدفعه للابتعاد عن قومه.

. الغضب لم يخرجه عن طور النبوّة.

. وبّخ قومه بأسلوب مهذّب.

. موسى أذهب الغضب

. الغضب ليس من صفات موسى.

. الأسف من صفات الأنبياء.

. الأسف الذي يعني الحزن وليس شدة الغضب كما في بعض مصادر اللغة.

لذا، نقول: لا يكون الغضب عند الرجوع إلى قومه ومشاهدة أحوالهم في عبادة العجل، بل الغضب كان لله من قبل أن يصل إليهم، بخلاف ما قيل إنّ الغضب بعد الرجوع إلى قومه، ويؤيد ما قلناه قول الله تعالى: (وَلما رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غضبان أسفا) يدل على أنه عندما كان راجعا كان غضبان أسفا، وموسى صلّى الله عليه وسلّم كان راجعا إلى قومه غضبان أسفا قبل وصوله إليهم.

ونتيجة ذلك إنه كان غضبان أسفا لعلمه بما فعله قومه فلم يتركهم بل ذهب إليهم ليتمم دعوته لهم وليقوّم اعوجاجهم وانحرافهم ويردهم إلى جادة الطريق.

ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة طه: {قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ ربّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أسفا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ ربّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ ربّكُمْ

فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}475.

فهذا الحوار حوار داع رشيد عاقل لا يمتلكه الغضب ولم يخرجه عن شعوره فلم يتلفظ بلفظ يخرج عن طور النبوّة، بل كل ألفاظه تحمل توجيه وعتاب وبحث في أسباب ما فعلوه ليصل بهم إلى أمان الإيمان من جديد.

ثم إنّ الغضب والأسف إن اجتمعا دل على أن الغضب مترتب تلاه الأسف على المغضوب منهم لا عليهم، وهنا تبدو دلالات في ثنائية غضبان أسفا:

ما علاقة الغضب بالأسف؟

وهل كل أسف غضب؟

هل الأسف حزن؟

من يوجه الآخر الغضب أم الأسف في شخوص الأنبياء؟

قال الله تعالى عن يعقوب صلّى الله عليه وسلّم: {وتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفي عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}476.

فالتولي حدث بعد حواره مع أبنائه بشأن يوسف الذي لم ينسه، وتولى بأسف على يوسف، والتولّي يقتضي الاختلاء بنفسه لتجدد أسفه على يوسف صلّى الله عليه وسلّم فقال: (يا أسفي على يوسف) والأسف أشد الحزن، ونتيجة الأسف (ابيضت عيناه من الحزن) على المأسوف عليه (من حزن) وليس غضبا.

---

[475] طه 87.84.

[476] يوسف 84.

وكان حال يعقوب صلّى الله عليه وسلّم مع الأسف كظيم، والكظيم مبالغة للكاظم وهو كاتم للحزن لا يظهره بين النّاس، ويبكي بشدة على يوسف، وهنا تبدو أواصر الصلة بين أسف الأنبياء الذي يحدُّ من غضبهم في:

يعقوب.

وموسى.

ويونس.

فيعقوب يتأسف على يوسف ولا يغضب على أبنائه، وموسى يعاتب قومه، ويونس ينادي الله في الظلمات ويلوم نفسه لا قومه، يعقوب وهو مكظوم ويونس وهو كظيم، يكظم حزنه وينادي الله، ويعقوب يشكو بثه وحزنه لله، ولم يدع على أبنائه، بل اختلى بنفسه (مغاضبا لهم).

يونس لم يدع على قومه وذهب مغاضبا.

موسى دعا قومه ولم يدع عليهم.

الغضب ذهب عن موسى لأنه لم يكن من موسى.

ذهاب الغضب وبقاء الأسف.

الغضب طارئ والأسف باق.

الأسف يزول بنجاح الدعوة.

دعوة موسى نجحت.

يوسف عاد لأبيه وإخوته.

قوم يونس آمنوا جميعا.

فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل، أسفا حزينا لأنّ الله تعالى فتنهم. مصداقا لقوله تعالى: (إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ).

وعليه: فالأسف لم يكن غضبا، ولكن الأسف حزن، والمغاضبة التي ذهب بها يونس أسفا وحزنا على قومه، إذ ذهب مع مغاضبا:

إذ: على الحكاية من الله للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم في وقت ذهاب يونس.

فإذ تعني وقت الذهاب بإخبار من الله للغيب الذي لم يره النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأسلوب القرآن يختلف عن قواعد النحو الذي قعّد له النحاة.

فعند النحاة: "وأما إذ فيحسن ابتداء الاسم بعدها. تقول: جئت إذ عبد الله قائم، و"جئت" إذ عبد الله يقوم، إلا أنها في فعل قبيحة، نحو قولك: جئت إذ عبد الله قام. ولكن (إذ) إنما يقع في الكلام الواجب"477.

ومن الناحية البلاغية:

. يُقال إنه يكثر مجيء الفعل بعد إذ وليس الاسم من مثل قوله تعالى (إِذْ قَالَتِ أمراةُ عِمْرَانَ ربّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}478.

---

477 الكتاب، ج 1، ص 23.

478 آل عمران 35.

وقال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}479.

واو الجماعة في الفعل يلقون فاعل، والفاعل مستتر بعد فعله: قال الله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}480.

الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت يدل على النبي صلّى الله عليه وسلّم.

. أو عائد على اسم سبق الفعل وهو ما يسمى (بالالتفات) الذي يفيد التنبيه والاهتمام للملتفت إليه:

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}481.

فالذي منّه الله بنعمته عليهم أن بعث فيهم رسولا، والذي بعث رسولا هو (الله)

فاعل بعث ملتفت إليه وجاء مستترا من فرط ظهوره.

فلا يدّعي أحد أنه هو الذي بعث رسولا، فالبعث والمنُّ لفاعل واحد هو الله تعالى. وكذلك مع سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم في قول الله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مغاضبا}482.

---

[479] آل عمران 44.

[480] آل عمران 124.

[481] آل عمران 164.

[482] يونس 87.

فما الذي يجب أن نلتفت إليه ونتنبه له مع (إذ ذهب)؟

الذي يجب أن نلتفت إليه:

-أن الذاهب هو يونس، ويونس هو ذو النون، والذهاب ليس هروبا.

ونتساءل:

الذهاب طاعة الله؟

من عند يونس؟

نعتقد أن الذهاب من يونس طاعة الله تأسيسا على أن:

المغاضبة لله.

هجرة لله.

دعوة لله.

طاعة لله.

ومترتباتها محمودة، وقد جاءت هذه المادة وبعض مشتقاتها مع أنبياء الله من مثل إبراهيم في قوله تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى ربِّي سَيَهْدِينِ}483، {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فَلما ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}484.

[483] الصافات 99.

[484] هود 74.72.

وموسى وهارون في قوله تعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}485

ويونس: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا).

فلو قلنا: إن الذهاب كله ذو دلالة واحدة لوقعنا في خطأ فادح إذ نسوى بين الصالح والطالح، ولكن تبدو هنا ثنائية للذهاب ذات دلالتين:

. ذهاب الأنبياء.

. ذهاب إبليس ومن تبعه.

وعليه نتساءل:

أين يكون موضع ذهاب سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم؟

أهو طاعة من الله كبقية الأنبياء في طريق الدعوة؟

أم غير ذلك (حاشا لله)؟

نحن نرى أن ذهاب يونس ومغاضبته كانت طاعة لله، وفي سبيل الله، ودعوة لله.

المساهمة:

تعد قضية المساهمة التي وقعت للرسول يونس صلّى الله عليه وسلّم من القضايا المهمة، ذلك أن وقوعها لم ينته، فقد شكّلت هي وغيرها فيما بعد أطروحات متعددة حتى دخلت الحيز الفقهي، وعند الحديث عنها بداية نلجأ إلى المعنى اللغوي فالجذر اللغوي هو: "سهم والسَّهْمُ واحد السِّهام والسَّهْمُ النصّيب المحكم السَّهْم الحظُّ والجمع سُهْمان وسُهْمة الأَخيرة كأُخْوة وفي هذا الأَمر سُهْمة أَي نصيب وحظّ من أَثَر كان لي فيه

485 طه 43.42.

وفي الحديث كان للنبي صلّى الله عليه وسلّم سَهْم من الغنِيمة شَهِد أَو غاب السَّهْم في الأَصل واحد السِّهام التي يُضْربّ بها في المَيْسِر وهي القِداح ثم سُمِّيَ به ما يفوز به الفالِجُ سَهْمُهُ ثم كثر حتى سمي كل نصيب سَهْما وتجمع على أَسْهُمٍ وسِهام وسُهمان ومنه الحديث ما أَدري ما السُّهْمانُ وفي حديث عمر فلقد رأَيْتُنا نَسْتَفِيءُ سُهْمانها وحديث بُرَيْدَةَ خرج سَهْمُك أَي بالفَلْجِ والظَّفَرِ والسَّهْم القِدْح الذي يُقارَع به والجمع سِهام واسْتَهَمَ الرجلان تقارعا وساهَمَ القومَ فسهَمَهُمْ سَهْما قارعهم فَقَرَعَهُمْ وساهَمْتُهُ أَي قارعته فَسَهَمْتُهُ أَسْهَمُه بالفتح وأَسْهَمَ بينهم أَي أَقْرَعَ واسْتَهَمُوا أَي اقترعوا وتَساهَمُوا أَي تقارعوا وفي التنزيل (فساهَمَ فكان من المِدْحَضِين) يقول قارَعَ أَهْلَ السفينة فَقُرِعَ"486.

هذا المعنى يتبين من خلاله أنّ المساهمة هي حل لقضية مشتركة بين أناس متساوين في قضية مهمة ألا وهي الحياة أو الموت، وهذا ما كان متحقّقا في السفينة التي ركبها يونس صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}487. هذه المساهمة كما نعتقد أنها كانت من الأعراف المتبعة في حل كثير من الا شكّالات التي لا يكون فيها تمايز، وليس فيها أي درجة تفضيلية يتقرر من خلالها المضي نحو تقديم أي أمر على أمر آخر، بمعنى الوصول إلى نقطة الصفر التي ينتهي فيها كل شيء فلا يكون فيها أي رجحان يمكن أن يتحقّق، ومن الأمور التي نعتقد أنه يجب الوقوف عليها منها:

أنّه "رُوي أنَّه صلّى الله عليه وسلّم لما وعدَ قومَه بالعذابِ خرجَ من بينهم قبل أنْ يأمرَه الله تعالى به فركبَ السَّفينةَ فوقفتْ فقال فيها عبدٌ آبقٌ

[486] – لسان العرب، ج 12، ص 314.

[487] – الصافات 139 – 142.

فاقترعُوا فخرجت القُرعةُ عليه فقال: أنا الآبقُ ورَمَى بنفسه في الماءِ (فالتقمه الحوت) فابتلعه من اللُّقمةِ"488.

هذه الرواية لا يمكن الركون إليها لاعتبارات كثيرة بعيدة عن النسق المتوارث الذي يكب الأمور على جانب عتيد يتمثل فيه تأويلات وإحالات لا تدخل حيز الحقّيقة الإلهية التي أفضت بأن يكون يونس صلّى الله عليه وسلّم على ظهر السفينة ومن ثم في بطن الحوت، فالذي نراه أن السفينة كانت مشحونة أي كانت حمولتها قد ملأت سطحها ومنحتها زيادة في الوزن على غير عادتها، فما أن وصلت في مكان من البحر فلا تستطيع أن ترجع إلى الميناء الذي انطلقت منه ولا المضي إلى الجهة التي تريدها، فأصبحت تستجدي البقاء على سطح البحر، لكن هذا الاستجداء لا يحصل إلا بتخفيف ممّا تحمل، وهنا تكمن عدة تساؤلات منها:

. ألم تكن هناك بضاعة في السفينة فيرمونها بدلا من أي شيء آخر؟

. ألا يرمون الحيوانات إن كانت هناك حيوانات بدلا من البشر الموجودين على ظهر السفينة؟

. ألا يكون هناك فعل آخر ينقذ السفينة ومن عليها؟

هذه التساؤلات لم تجد لها صدى، فالقرآن الكريم ذكر المساهمة دون أي فعل آخر قد أقبل عليه من كان على ظهر السفينة، وهذا لا يطرح إلا أن المساهمة كانت هي الحل الأمثل لوضع نهاية لبعض من كانوا على السفينة.

أمّا العبد الأبق الموجود على ظهر السفينة، فمن أين جاء هذا الطرح:

---

488 – تفسير أبو السعود، ج 5، ص 454.

. هل هو من المتوارث؟

. هل هو من باب التجربّة؟

. هل هو من باب علم الغيب؟

. هل من باب وقوع الجزاء لتحقّق المعصية؟

إنّ هذه الأطروحات كما نعتقد تلزم النبي يونس صلّى الله عليه وسلّم أن يكون عبدا هاربّا من سيده لفعل ارتكبه لم يأمره به سيده، وهذا محال على الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أن يخرجوا عن أمر الله تعالى حتى ولو مجرد التفكير، فهم من المصطفين، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}489، أمّا أمر العبد الأبق الموجود على ظهر السفينة فثمة بعض التساؤلات:

. هل بوجوده تتعرض السفينة إلى الهلاك؟

. ألا تكون هناك ذنوب أكبر من هذا الذنب كي يتحقّق من خلالها الغرق؟

. هل أفعال النّاس تزيد من حمولة السفينة ويكون برميهم منها هو الإنقاذ؟

. لماذا لم ينادوا منذ بداية حركة السفينة إن كان هناك عبد أبق فليخرج لأنّ السفينة سوف تغرق لا محالة بوجوده، فليبحث له عن وسيلة أخرى للسفر.

---

[489] - آل عمران 33-34.

لم نجد منفذا يمكن الدخول إليه لهذه الرواية، فهي تنزل من قدر نبي الله يونس صلّى الله عليه وسلّم إلا أن السير على النسق العادي لغرق أي سفينة يضفي على وجوده صلّى الله عليه وسلّم اختبارا وامتحانا ليس له فقط، بل لكل النّاس، ففي هذا الموقف الصعب الذي يجتمع فيه الحياة والموت ينبري موقف الإنسان المؤمن بقدره أيا كان؛ مؤمنا برحمة الله تعالى في كل شيء في السراء والضراء، وهذا ما تحقّق لهذا النبي العظيم.

بهت النّاس ممّا رأوه من تحقّق النهاية التي لا يرجونها، فاتكئوا على المساهمة بوصفها الحل الأمثل الذي يرضى به الجميع، إلا أن المشاركة في المساهمة قد لا يدخلها بعض ممن هم على ظهر السفينة من باب الرحمة التي تطغى على النّاس في ذلك الموقف إن تحقّقت من ذلك:

ـ الشيوخ الكبار.

ـ العجائز.

ـ النساء الحوامل.

ـ الأطفال الصغار.

ـ ربّان السفينة.

وما عدى هؤلاء يدخلون في المساهمة.

والمساهمة وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ذلك أن وقوعها كان متحقّقا في أقوام تكون عندهم المعيار الأخير في إسناد أمر ما أو نهاية أمر يكون فيه الخير المنتظر من ذلك، يقول تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ

مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}490، الأقلام في هذه الآية الكريمة تمثل فيه أوجه عدة منها:

. المراد بالأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى، وكان الاقتراع هو أن كل من جرى قلمه على عكس جري الماء فالحقّ معه، فلما فعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك فسلموا الأمر له وهذا قول الأكثرين.

. أنهم ألقوا عصيهم في الماء الجاري جرت عصا زكريا على ضد جري الماء فغلبهم، هذا قول الرّبيع.

. قال أبو مسلم: معنى يلقون أقلامهم ممّا كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر، وقد قال الله تعالى: (فساهم فَكَانَ مِنَ المدحضين)، وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العربّ لحم الجزور، وإنما سميت هذه السهام أقلاما لأنها تقلم وتبرى، وكل ما قطعت منه شيئا بعد شيء فقد قلمته، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلما.

قال القاضي: وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحا نظرا إلى أصل الاشتقاق، إلا أن العرف أوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به، فوجب حمل لفظ القلم عليه.

ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقّاق ذلك المطلوب، وإلا ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء، إلا أنه روي في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم إنه

---

[490] – آل عمران 44.

حصل هذا المعنى لزكريا صلّى الله عليه وسلّم، فلا جرم صار هو أولى بكفالتها491.

هذه المسائل المتنوعة التي تدور حول اختيار شخص واحد لأمر مهم، وذلك بعد أن كان الأمر في:

. الرغبة في تحقّيق ما مراد.

.كبح جماح التفاضل غير المبرر.

. عدم وجود ثغرات يتفاوت فيها أحد حتى تكون مدخلا للتقديم.

. تساوي المجموعة ضمن الشروط المراد منها للمساهمة.

ومن نتائج هذه المساهمة:

. القبول بالنتيجة أيا كانت ولمن.

. تحقّيق ما مراد من المساهمة كي يكون الكسب المتحقّق موفيا بالغرض أو القضية المرادة.

. إنّهاء الأمر بطريقة سلمية لا يكون بعدها أي مشاحنة أو بغضاء.

أمّا قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصّبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}492.

---

491 – تفسير الرازي، ج 4، ص 207.

492 – المائدة 3.

ومن الاستقسام بالأزلام ضربٌ آخر كانوا يفعلونه في الجاهلية يتطلّبون به معرفة عاقبة فعل يريدون فعله: هل هي النجاح والنفع أو هي خيبة وضرّ؟

وإذ قد كان لفظ الاستقسام يشمله، فالوجه أن يكون مرادا من النهي أيضا، على قاعدة استعمال المشترك في معنييه، فتكون إرادته إدماجا وتكون السين والتاء للطلب، أي طلب القِسم. وطلب القِسم بالكسر أي الحظّ من خير أو ضدّه، أي طلب معرفته. كان العربّ، كغيرهم من المعاصرين، مولَعين بمعرفة الاطِّلاع على ما سيقع من أحوالهم أو على ما خفي من الأمور المكتومة، وكانوا يتوهّمون بأنّ الأصنام والجنّ يعلمون تلك المغيّبات فسوّلت سدنة الأصنام لهم طريقة يُموّهون عليهم بها فجعلوا أزلاما"493.

والمساهمة طريقة إقناعية كان البشر يصيرون إليها لفصل التنازع يزعمون أنها دالة على إرادة الله تعالى عند الأمم المتدينة، أو إرادة الأصنام عند الأمم التي تعبد الأصنام تميّزَ صاحب الحقّ عند التنازع، ولعلها من مخترعات الكهنة وسَدنة الأصنام.

فلما شاعت في البشر أقرتها الشرائع لما فيها من قطع الخصام والقتال، ولكن الشرائع الحقّ لما أقرتها اقتصدت في استعمالها بحيث لا يُصار إليها إلا عند التساوي في الحقّ وفقدان المرجِّح، الذي هو مؤثر في نوع ما يختلفون فيه، فهي من بقايا الأوهام. وقد اقتصرت الشريعة الإِسلامية في اعتبارها على أقل ما تعتبر فيه. مثل تعيين أحد الأقسام المتساوية لأحد المتقاسِمين إذ تشاحنوا في أحدها، قال ابن رشد في

[493] – تفسير التحرير والتنوير، ج 4، ص 129 – 130.

المقدمات: "والقرعة إنّما جعلت تطييبا لأنفس المتقاسمين وأصلها قائم في كتاب الله لقوله تعالى في قصة يونس: فساهم فكان من المدحضين.

وعند ابن عاشور: أن ليس في الآية دليل على مشروعية القرعة في الفصل بين المتساويين لأنها لم تحك شرعا صحيحا كان قبل الإسلام إذ لا يعرف دين أهل السفينة الذين أجرَوْا الاستهام على يونس، على أن ما أُجري الاستهام عليه قد أجمع المسلمون على أنه لا يجري في مثله استهام. فلو صح أن ذلك كان شرعا لمن قبلنا فقد نسخه إجماع علماء أمتنا.

قال ابن العربيّ: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز فكيف المسلم فإنه لا يجوز فيمن كان عاصيا أن يقتل ولا أن يرمَى به في النّار والبحر. وإنما تجري عليه الحدود والتعزيرُ على مقدار جنايته. وظَنّ بعض النّاس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضربّ عليهم فيطرح بعضهم تخفيفا، وهذا فاسد فلا تُخفَّف برَمْي بعض الرجال وإنما ذلك في الأموال وإنما يصبِرون على قضاء الله. وكانت في شريعة من قبلنا القرعة جائزة في كل شيء على العموم وجاءت القرعة في شرعنا على الخصوص في ثلاثة مواطن:

الأوّل: كان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

الثاني: أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم رُفع إليه أنّ رجلا أعتق في مَرض موته ستة أعبد لا مال له غيرهم فأقرع بين اثنين وهما معادل الثلث وأرقّ أربّعة.

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث درست، فقال: اذهبا وتوخيا الحقّ واستَهِما وليُحَلل كل واحد منكما صاحبَه.

واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات عند الغزو على قولين: الصحيح منهما الاقتراعُ، وبه قال أكثر فقهاء الأمصار، وذلك لأن السفر بجميعهن لا يمكن واختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة"494.

المساهمة والدحض:

لم نتطرق في حديثنا عن المساهمة إلى الدحض، ذلك أن السياق القرآني الذي ذكر في بعض الآيات لم يرد فيه الدحض ضمن نهاية أي مساهمة تحقّقت أو حتى ليس في نهايتها؛ إنما قد يكون مرحلة تالية للمساهمة؛ إنما تحقّق ذلك مع النبي يونس صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}495، و(دحض) و"الدَّحْضُ الزَّلَقُ والإِدْحاضُ الإِزْلاقُ دَحَضَتْ رِجْل البعير وفي المحكم دَحَضَتْ رِجله فلم يُخَصِّص تَدْحَضُ دَحْضا ودُحُوضا زَلِقَتْ ودَحَضَها وأَدْحَضَها أَزْلَقَها"496.

والإِدحاض: جعل المرء داحضا، أي زالقا غير ثابت الرِجلين وهو هنا استعارة للخسران والمغلوبية 497.

هذه المعاني المتقدمة تفصل ما بين ثلاثة أمور تحقّق فيها المساهمة وهي:

. المساهمة مع يونس صلّى الله عليه وسلّم.

. المساهمة من أجل من يتكفل مريم عليها السلام.

---

494 – تفسير التحرير والتنوير، ج 12، ص 161.

495 – الصافات 141.

496 – لسان العرب، ج 2، ص 288.

497 – تفسير التحرير والتنوير، ج 12، ص 162.

. فِعْل العربّ المشركين وغيرهم حين يريدون المضي لأمر ما وهو الاستسقام.

نجد من خلال هذه المساهمات أنها مختلفة، فلا يمكن تصنيفها كلها ضمن شكل واحد وإطلاق اسم المساهمة عليها إلا من ناحية الآلية التي جرت فيها.

والاختلاف المتحقّق هو من جانبين:

الجانب الأول: إجباري.

الجانب الثاني اختياري.

الجانب الإجباري:

فكفالة مريم عليها السلام ليس من باب الجبر، فالذين أرادوا كفالتها لم يكن هناك أمر فرض عليهم كي يكفلوا مريم عليها السلام؛ إنما كان الواجب الديني وغيره هو الذي دفعهم إلى المضي في طلب كفالتها، أما وقوع أمر الكفالة لزكريا صلّى الله عليه وسلّم، فهذا من حكمة الله تعالى التي اقتضت أن يكون ما كان.

أما الاستسقام الذي كان يفعله العربّ من المشركين وغيرهم، فهذا كان من:

. محاولة معرفة الغيب وهذه طريقة قد يكمن من خلالها الوصول إلى الأمر المطلوب.

. اعتقادهم بالآلهة: ففي عقيدتهم أنها عارفة بالغيب وما يكتنف الحياة من صعوبات وغيرها، فالتقربّ لها والاستسقام عندها يمنحهم الرأي

السديد الذي يكون من خلاله تحقّق ما يبغون وإن كان فيه منعا لأي عمل يقدمون عليه.

وهذان الأمران لا يدخلان باب الإجبار؛ إنما يدخلان باب الاعتقاد الذي يكون من خلاله الإتباع، أما الإجبار فلا يتحقّق فيه لأنه لا توجد للآلهة المزعومة سلطة دنيوية تجبر النّاس على الاستسقام.

الجانب الاختياري:

هذا الجانب لم يجد صداه إلا مع النبي يونس صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان الحل الذي ينقذ السفينة ممّا تعرضت له من علامات النهاية، فلا يكون هناك اختيار في تلك اللحظات الحرجة فالكل يبحثون عن الخلاص بأي ثمن إلا من كانت رحمة الجميع قد غمرته وذلك ضمن استثناءات إنسانية تظهر في الأوقات الصعبة كما ذكرنا:

- كالشيخ الكبير.
- العجوز.
- المرأة الحامل.
- الأطفال.

فالإجبار هو سيد الموقف وان لم يتحقّق فلن تكون هناك مساهمة إنما يكون هناك اقتتال، فالقوي يترصد للضعيف أيا كان ويرمي به إلى البحر.

عليه: يكون دخول النبي يونس صلّى الله عليه وسلّم المساهمة ليس من باب الاختيار إنما الإجبار هذا من جانب، أمّا من جانب آخر فالنبي لا يمتنع أن يدخل المساهمة ذلك أنه عارف أكثر من غيره إنّ سياق الإنسان في كل حياته إنما هو سياق يختاره الله تعالى له لاسيما في مثل

هذه المواقف، فهي مواقف اختبار يُرى من خلالها عزيمة الإنسان وصبره وثباته على عقيدته وان كان الموت هو النهاية التي يجدها أمامه. حتى أن قوله تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}498، تحيل إلى استعارة للخسران والى أنه من المغلوبين، فليس من البديهي أن يكون دخول المساهمة من باب الاختيار وان ما سيقع عليه هو النجاة أو الخسران والخسارة هنا تتمثل فيها الغلبة.

قوم يونس:

يُرسل الله الرّسُل إلى الأقوام هادين ومبشرين ومنذرين، وما كانت من رسالة إلى قوم إلا وقد اختار هؤلاء الخروج عن سنة الفطرة السليمة وهي التوحيد بالله الواحد الأحد بشكل من الا شكّال كاتخاذ الأربّاب، أو الإشراك بالله الواحد الأحد أو الكفر أو غير ذلك من صور الخروج على عباد الله وتوحيده.

من هنا كان لابدّ من رسائل إصلاح قدّر الله أن تكون على يد الرّسُل والأنبياء برسالات ونبوات لاحقّت الأخطاء في العقائد وقامت بتصحيحيها وإعادتها إلى حيث يجب لها أن تكون.

ويونس عليه الصّلاة والسّلام كان من أهل قرية لم نعرف عنها من الإخبار إلا ما جاء في السير ممّا لا دليل على صحته، ولكن مسألة أخرى يمكن أن نستشفها من وصف الله عزّ وجلّ لقومه بأنهم من أهل القرى، والقرية يقصد بها والقَرْية من المساكن والأَبنية والضِّياع وقد تطلق على المدن499.

498 – الصافات 141.

499 لسان العرب، ج 15، ص 174.

فقوم يونس إمّا كانوا من أهل القرى من أبناء الريف، وإما كانوا من أصحاب المدن، هذان الاحتمالان لهما علاقة بما سيذكر القران من العدد الذي أرسل له يونس عليه الصّلاة والسّلام فقد أرسل يونس إلى مائة ألف أو يزيدون مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}500.

وهذا يعني أن يونس أرسل إلى مدينة عامرة وليس إلى قرية في ريف معلوم أن سكانها عدده محدود، ولهذا العدد دلالة أخرى هي أن هذه المدينة لها أثر في مسيرة الإنسانية لذلك خصها الله برسول يبين لها الحقّ ويعلمها إتباعه وها ما كان منهم.

وقوم يونس ذكرهم الله عزّ وجلّ كقوم مخصوصين في قضية عقدية تحكمها قاعدة ثابتة هي (الإيمان يمنع العذاب)، وقوم يونس مروا بمراحل هي:

-التذكير بالعذاب.

-الإيمان.

-النجاة (الكشف).

ونقول أن قوم يونس قوم مخصوصين بالذكر لأنّه لم يرد في قصص الأقوام ممن ذكروا في القرآن الكريم ممن كشف عنهم العذاب ثم رزقوا التمتع بالنعم إلى حين سواهم مصداقا لقوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}501.

---

500 الصافات 147-148.

501 يونس 98.

أمّا الكشف الحاصل عند غيرهم فهو كشف مؤقت تبعه عقاب الله عزّ وجلّ كما في الكشف عن بعض بني إسرائيل مصداقا لقوله تعالى: {وَلما وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا ربّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلما كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِين}502.

وقم يونس كما تدل الآيات الكريمة كانوا من الأقوام التي ترتكب من الذنوب ما يستحقّ عذابا مخصوصا هو عذاب الخزي، والخزي: الإهانة والذل. وإضافة العذاب إلى الخزي يجوز كونها بيانية لأن العذاب كله خزي، إذ هو حالة من الهلاك غير معتادة فإذا قدرها الله لقوم فقد أراد إذلالهم، ويجوز أن تكون الإضافة حقّيقية للتخصيص، ويكون المراد من الخزي الحالة المتصورة من حلوله. وهي شناعة الحالة لمن يشاهدهم مثل الخسف والحرق والغرق، و(في الحياة الدنيا) صفة لـ(عذاب الخزي) للإشارة إلى أنّ العذاب الذي يحل بالأمم الكافرة هو عقاب في الدنيا وبعده عقاب في الآخرة، وأنّ الأمم التي لم تعذب في الدنيا قد أدخر لها عذاب الآخرة503.

وإذا كان فعل قوم يونس غير مذكور بشكل تقريري مباشر في الآية إلا أنه هناك من الآيات ما يدل عليه ويبينه، وهذا يتأتى من خلال البحث عن موجبات عذاب الخزي الذي سيكون بالتأكيد من جنس أفعال قوم يونس قبل إيمانهم، وتجسد في عدة مظاهر منها:

1- محاددة الله ورسوله، حاددته أي خالفته، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة، واشتقاقه من الحد، ومعنى حاد فلان فلانا، أي صار في

502 الأعراف 134 -136.

503 التحرير والتنوير، ج7، ص 71.

حد غيره حده كقوله: شاقه أي صار في شق غير شقه، ومعنى: يُحَادِدِ الله أي يصير في حد غير حد أولياء الله بالمخالفة. وقيل يخالف الله، وقيل يحاربّ الله، وقيل يعاند الله، وقيل يعاد الله504.

والمحاددة توجب عذاب الخزي مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ}505.

2- التكذيب، التكذيب صفة لمن لا يريد التصديق، وهو إما مطلق بمعنى أن يكون السلوك في كل الأمور يتجه نحو تكذيب الآخر وفي ذلك إلغاء له وعدم الاعتراف به ولا بأقواله، وأمّا أن يكون نسبي بمعنى أن التكذيب يختص بقضية محددة، والله عزّ جلّ بين لنا أن التكذيب بالعقيدة هو من موجبات العقاب في الدنيا والآخرة، وحدد جلّ وعلا عذاب الخزي لأصحاب التكذيب مصداقا لقوله تعالى: {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}506.

وقوم يونس كما تدل سياقات الآيات يبدو أنهم كانوا من قبل على التكذيب وذلك أمور:

الأوّل: ما جاء في وصف إيمانهم المتأخر الذي لا شك حصل بعد فترة من التكذيب بدعوة يونس مصداقا لقوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

---

504 تفسير الرازي، ج 8، ص 83.

505 التوبة 63.

506 الزمر 25-26.

الثاني: مغاضبة يونس لهم، فلو كانوا مصدقين بيونس ودعوته لما حصلت المغاضبة منه صلّى الله عليه وسلّم، (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا).

ونؤكد أنّ يونس غاضب قومه ولم يغاضب ربّه، بل نقطع على أنّه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربّه؛ لأنّ ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للأمر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا عن أن يكون نبيا، وأما ما روي أنه خرج مغاضبا لأمر يرجع إلى الاستعداد، وتناول النفل فممّا يرتفع حال الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، لأن الله تعالى إذا أمرهم بشيء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرا أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ}[507].

وإذا ثبت أنّه لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله تعالى، وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضبا لغير الله، والغالب أنه إنما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعا، ومعنى مغاضبته لقومه أنّه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها، وقرأ أبو شرف مغضبا.

أمّا القول بأنّ مغاضبة القوم كانت محظورة لقوله تعالى: {وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت}[508]، قلنا لا نسلم أنها كانت محظورة، فإن الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة إليهم، وما أمره بأن يبقى معهم أبدا فظاهر الأمر لا يقتضي التكرار، فلم يكن خروجه من بينهم معصية، وأما الغضب فلا نسلم أنه معصية وذلك لأنه لما لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن أن ذلك جائز، من حيث إنه لم يفعله إلا غضبا لله تعالى وأنفة لدينه وبغضا للكفر

---

[507] الأحزاب 36.

[508] القلم 48.

وأهله، بل كان الأولى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم509.

الثالث: نوع العذاب الإلهي قبل الكشف (عذاب الخزي).

3- الاستكبار، من موجبات عذاب الخزي الاستكبار في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}510.

وبناء على مجانسة العقوبة النازلة بقوم عاد لعقوبة قوم يونس المنذر بها (عذاب الخري)، لزم أن يكون قد تحصل ذات الذنب، وهي أنهم أو بعضهم استكبروا لما دعاهم يونس عليه الصّلاة والسّلام، فقد يكون كبرائهم استكبروا على يونس ودعوته.

4- خلط الإيمان بالكفر، نبهنا الله عزّ وجلّ إلى مسألة في غاية الأهمية لكل مؤمن بالله ورسله وملائكته، وهي مسألة عامة لا تقتصر على زمن محدد أو قوم بعينهم بل تكاد تكون من المبادئ العامة التي يجب توخيها في العقيدة، وهي أن يكون الإيمان كاملا بكل ما جاء به الله ورسوله، ويجب تجنب الأهواء في الأخذ بالعقيدة فيؤخذ ببعض ويكفر ببعض، بل يجب التسليم إيمانا وطاعة لله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ

---

509 تفسير الرازي، ج 11، ص 64.

510 فصلت 15-16.

مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[511].

وكما هو واضح فإن مثل هذا الانحراف العقدي يوجب عذاب الخزي، ولعل قوم يونس قاموا بذلك أو ببعضه، ومن سياق سيرتهم المنصوص عليها في القران الحكيم من حيث كونهم لم يؤمنوا من أول مرة فإن الاعتقاد أن يكونوا آمنوا ببعض ما جاء به يونس والكفر ببعضه متحقّق عندهم بما يوجب عليهم عذاب الخزي، ولكن تداركهم الأمر وإيمانهم المطلق كشف عنهم العذاب.

5- المجادلة بغير علم، وصف الله عزّ وجلّ من يجادل في الله بغير علم وصفا دقيقا في الدلالة على تكبره على الله ورسله وعلى المؤمنين فقال عز من قائل: {وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ}[512].

وثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد، وقوله: (لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله) فأما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكي يتبعه غيره فيضله عن طريق الحقّ فجمع بين الضلال والكفر وإضلال الغير. وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنّه لما أدّى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح حاله في الدنيا والآخرة[513].

وبناءً على ما تقدم نقول إنّ قوم يونس فعلوا مع نبيهم يونس هذه الموجبات لعذاب الخزي كلها أو بعضها ثم تداركوا ذلك بالعودة إلى

---

[511] البقرة 85.

[512] الحج 8-9.

[513] تفسير الرازي، ج 11، ص 96.

الصراط المستقيم والى الإيمان بدعوة يونس الأمر الذي أوجب لهم كشف العذاب رحمة من الله عزّ وجلّ لان الله جلّ وعلا ليس بظلام للعبيد، {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[514].

هنا تساؤل مهم يطرحه حال قوم يونس ونص ذكرهم في القران مفاده:

هل كان العذاب نازلا بهم ثم كشف إثر إيمانهم؟

نعود إلى قول الله عزّ وجلّ: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

وتفسير ذلك أنّ الفاء لتفريع التغليط على امتناع أهل القرى من الإيمان بالرّسُل قبل أن ينزل بهم العذاب على الإخبار بأن الذين حقّت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا لا يؤمنون حتى يروا العذاب فإنّ أهل القرى من جملة الذين حقّت عليهم الكلمة بأن لا يؤمنوا. والغرض من ذكر أهل القرى التعريض بالمقصود، وهم أهل مكة فإنهم أهل قرية فكان ذلك كالتخلص بالتعريض إلى المخصوصين به، وللإفضاء به إلى ذكر قوم يونس فإنهم أهل قرية.

و(لولا) حرف يرد لمعان منها التوبيخ، وهو هنا مستعمل في لازم التوبيخ كناية عن التغليط، لأنّ أهل القرى قد انقضوا، وذلك أن أصل معنى (لولا) التحضيض؛ فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليط والتنديم والتوبيخ على تفويته.

---

[514] ق 29.

والمستخلص في قوم يونس أنّهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءً منقطعا.

ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثل في أن الله علم أنّ تكذيبهم يونس عليه الصّلاة والسّلام في ابتداء دعوته لم يكن ناشئا عن تصميم على الكفر واستخفاف بعظمة الله، ولكنه كان شكا في صدق يونس عليه الصّلاة والسّلام[515].

ونحن نقول:

إنّ قوم يونس من الأقوام التي احتكمت إلى العقل ميزانا في الحكم على ما جاء على لسان رسولهم يونس عليه الصّلاة والسّلام في زمن الوعيد بالعذاب، بمعنى أن كل ما حصل كان في حدود المهلة الذي بلغهم بها يونس عليه الصّلاة والسّلام، فكان يونس قد بلغهم أن عذاب الخزي نازل بهم في مهلة حددها الله عزّ وجلّ إن لم يؤمنوا، وتأخر القوم في الإيمان إلى زمن قريب من انتهاء المهلة الأمر الذي جعل ترقب وقوع العذاب عند يونس واستشعاره يقينا ففارقهم مغاضبا لأنهم يريدون ترك الحقّ ولما سيصيبهم من العذاب.

هنا نعتقد أنّ موقف يونس المحدد بالغضب له دلالة، فهو لم يدعو عليهم كما دعا نوح، ولكنه غضب ودلالته هي أن يونس استقرأ في القوم إمكان القبول والإيمان لما وجد عندهم من تحكيم العقل في الأمور لذلك فقد كان يونس يتوقع أن يؤمن القوم ولكن تأخرهم هو الذي أوجب غضب يونس عليه الصّلاة والسّلام، فلما عرف هؤلاء عادوا إلى صوابهم

[515] تفسير الرازي، ج 7، ص 71.

فآمنوا ولما تنتهي المهلة بعد، ولو تجاوزوا المهلة لما كشف عنهم العذاب لانّ الله لا يبدل القول عنده وهذا ما حصل مع فرعون الذي آمن بعد أن انتهت المهلة فلم يقبل إيمانه مصداقا لقوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}[516].

ويلاحظ في الآية دلالة واضحة لانتهاء المهلة تتوضح في قوله تعالى (آلْآنَ) وفيها دلالة واضحة بالزمنية.

نخلص إلى القول: أنّ قوم يونس لم يتجاوزوا المهلة المحددة لهم وأنّ الكشف حصل في زمن قريب من انتهاء الإمهال الإلهي، وهذا لا يتعارض أبدا مع حكم الباقي عزّ وجلّ، ووهن ينفي الحدوث والحداثة في أمر الله عزّ وجلّ.

رسالة يونس:

بداية نقول:

رسالة يونس هي رسالة الأنبياء والمرسلين في كل زمان ومكان، ولكنها على وجه التحديد تظهر واضحة المنهج في سورة الصافات لذا يتطلب فهم الآيات الواردة في سورة الصافات بدءا من القسم وجوابه في صدر السورة وحتى الاستفتاء الثاني في نهايتها، وبدءا من القسم وجوابه ممّا يُبيّن رسالة الأنبياء بشكل عام ورسالة يونس بشكل خاص وفقا لقوله تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَواحد ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وربّ الْمَشَارِقِ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى

[516] يونس 90-91.

وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ}517.

وقوله تعالى: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ}518.

لذا، وبعد أن قرأنا سورة الصافات قراءة تحليلية تبين لنا أن:

أنّ يونس من المرسلين ومن الصافين والزاجرين والمسبحين، وهذه صفات تنسحب على كلّ الأنبياء ولا تخص الملائكة كما فهم البعض، وكما امتلأت بذلك صفحات من كتب التفاسير.

وسنؤسّس لما قلناه بناء على القسم وجواب القسم في بداية سورة الصافات والاستفادة ربّطا بين أول السورة وآخرها عبر رؤية تحليلية عقلية لا تتعارض مع أحد وانطلاقا من قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ

[517] - الصافات 1- 19.
[518] - الصافات 139- 151.

كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}519، وقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}520.

إنّ من عجائب ومعجزات القرآن أنه لا يكرر نفسه، فكلّ آية بل كلّ كلمة بل كلّ حرف وحتى كل حركة إذا تكرر أو تكررت كان ذلك إيذانا بأنّ معنى جديدا قد كمن في ذلك الذي نسميه تكرارا وهو ليس تكرار بل نرى أنّه إضافة جديدة حرفا وشكلا ومعنى ومضمونا.

وهذا يبدو جليا من خلال سورة الصافات فعلى سبيل المثال اسم السورة الصافات، فالصافات مؤنث، بينما نجد في نهايتها (نحن الصافون) وهذا مذكر لقوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}521.

وبعد القسم بالتاليات ذكرا والزاجرات زجرا والصافات صفا يأتي جواب القسم الذي هو لب كل دعوة لنبي، ورسالة لرسول ومن بينها رسالة سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم.

ثم يأتي الاستفتاء بأمر من الله للنبي صلّى الله عليه وسلّم، وتختتم السورة باستفتاء استئنافا لقصة سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم.

وهذا النوع من الأسلوب القرآني يمكن أن نسقط عليه لونا بديعيا وهو رد العجز على الصدر كما يرد عجز البيت على صدره يرد آخر السورة على أولها وهو كما قلنا نوع من التكرار في غير القرآن، أما في القرآن فهو إشارة لجديد معنى يتطلب من الباحث رصده وتحليله لا المرور عليه بغض الطرف عنه أو عن بعضه.

---

[519] النساء 82.

[520] محمد 24.

[521] الصافات 165.166.

قال الله تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَواحد ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَربّ الْمَشَارِقِ}[522].

أ قسم الله بخلق من خلقه، فالمقسِم الله، والمقسم به خلق من خلقه، وجواب القسم مؤكد (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَواحد ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَربّ الْمَشَارِقِ).

ولو رددنا آخر السورة على أولها نجد:

-توحيد في أولها (إن إلهكم لواحد).

والتوحيد هو مكمن دعوة يونس صلّى الله عليه وسلّم (لا إله إلا أنت) كما جاء في دعاء يونس ودعوته، فالله أقسم ويونس صدّق، فما علاقة القسم بدعوة يونس (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَواحد ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَربّ الْمَشَارِقِ).

نقول هو علاقة اللاحقّ بالسابق في آيات القرآن فلا انفصال ولا تعارض ولا تكرار بل اتصال وتوافق وتجديد.

ففي بداية السورة نجد الصافات وفي آخرها نجد الصافون.

وقول سيدنا يونس: قال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}[523].

فهنا تأكيد على الموضوعية لا الشخصانية يؤكد أنهم ليسوا الملائكة بل الأنبياء، فالصافات غير (الصافون) وقد ذُكر في بعض التفاسير أنها الملائكة تقف صفوفا أو تؤمر أن تقف صفوفا.

---

[522] الصافات 5.1.

[523] - الصافات 165، 166.

ولو كان الأمر كذلك لكانت مفعول (مصفوفة) لا فاعلة (صافات) ولا (صافون)، لذا؛ فمن باب التدبر والتفكر كان علينا أن نجد تحليلا موضوعيا يتوافق مع نعمة العقل الموهوبة للإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، ولا نترك الأمر لما قيل عنه إن الصافات والتاليات والزاجرات ليست أنواعا للملائكة لأن هذا سيخلق نوعا من التضاربّ بين بداية السورة ونهايتها.

كما أنّ السورة تتحدث عن الأنبياء المرسلين لا الملائكة.

ونتساءل:

هل القرآن فيه أسرار غوامض أم مفاتح آيات معجزات؟

أليس الله القائل في كتابه: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}524.

فوضوح القرآن لا يؤدّي إلى الاضطراب بل إلى التفكر والوصول إلى اليقين، والذي أنزل على نبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وجاء إلينا قرآن بلسان عربيّ واضح فكيف مع هذا الوضوح نقف ونقول هذا سر!، هذا غموض! وهذا لا يعلمه أحد! نقصد الصافات والزاجرات والتاليات.

فبردّ آخر السورة على أولها يتبيّن:

أنّ الصافات والتاليات والزاجرات لا تخص الملائكة ولا بعضا منهم ولا كلهم

لأنّه سيأتي في نهاية السورة آيتان توضحان حقّيقة المعنى في الصافات والزاجرات والتاليات، وهو قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}525.

---

[524] النحل 103.

وهؤلاء عباد الله المخلصين {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}526.

وسبق هذا قول الله عن سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ}527.

فنتساءل:

من هم الصافون والمسبحون؟

هل (من المسبحين) التي تخص سيدنا يونس جزء من (المسبحون) في قوله تعالى (إنا لنحن المسبحون)؟

أم أنهما نوعان مختلفان؟

- أنبياء.

- ملائكة.

نقول:

الآن لدينا خمس مفردات ذات صلة غير منفكة (الصافات التاليات الزاجرات المسبحون عباد مخلصون).

إمّا أنّها للملائكة؟

أو أنها للأنبياء؟

أو للمؤمنين من البشر؟

أهي تعود على مذكر أم مؤنث؟

---

[525] الصافات 166.165.

[526] - الصافات 160، 161.

[527] الصافات 143.

نقول:

القاعدة في العربّية تقوم على تغليب المذكر على المؤنث فلو أردنا أن نصنف هذه المفردات جميعا من حيث التذكير والتأنيث لقلنا إنّها الآن جميعا يطلق عليها صيغة المذكر لا المؤنث.

ولقائل أن يقول: لو أبعدنا الصافات، والزاجرات، والتاليات عن المسبحين لبقيت مؤنثة. وهذه رؤية من يرى أن هذه الألفاظ تعود على الملائكة.

نقول له:

لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة ولأن الذين أشركوا ادعوا أن الملائكة إناثا وقد بين الله كذب القائلين بذلك إذ يقول تعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ ربّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قولا عَظِيمًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآَنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا}528، {وَجعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}529.

فلا نفور من الحقّ.

ولابدّ أن نكتب نحن شهادتنا من قبل أن تكتب علينا، ثم إن في الاستفتاء اليونسي يقول الله تعالى أمرا نبيّه يونس صلّى الله عليه وسلّم: {فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ}530.

---

528 الإسراء 41.40.

529 الزخرف 19.

530 الصافات 150.149.

وعليه: لا يجوز حمل هذه المفردات على أنها للمؤنث، ولا ينبغي حمل هذه المفردات وكونه للمؤنث على الملائكة.

ونقول احتمالا:

إنّ الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات

مثل: رجال ورجالات، وبيوت وبيوتات، فلا تحمل رجالات على أنّها للمؤنث ولا بيوتات، وكذلك في صافات، فالمفرد صاف، والجمع صافون وجمع الجمع صافات وكذلك في الزاجرات والتاليات، والقاعدة تقول: (إنّ العربّ إذا أرادت التعظيم والتكثير أنّثت الخطاب)، وقلنا إنّ القرآن منزل من الله للبشر وليس للملائكة.

وعليه: نتساءل لماذا لا يوجه المعنى على من نزل إليهم القرآن (البشر)؟

فلمن الذكر أليس للإنسان؟!

قال الله تعالى: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ ربّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}[531].

- فالصافات صفا من المؤمنين.

- والتاليات ذكرا من المؤمنين.

- والزاجرات زجرا من المؤمنين.

وهذا لأن الله أعقبها بجواب قسم للبشر وليس للملائكة (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَواحد ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَربّ الْمَشَارِقِ).

[531] - الكهف 27.

فالسؤال:

هل هذا لكلام موجه للبشر أم للملائكة؟

الإجابة واضحة طبعا.

للبشر المستهدفين بالرسالات من الرّسُل والأنبياء جميعا، لذا تحمل هذه الخصائص على البشر المقبلين على عبودية الله تعالى، المؤمنين به من رسل وأتباعهم. (عباد الله المخلصون) كما توجه أيضا من حيث المعنى إلى الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة.

والقرآن زجر للشيطان (فالزاجرات زَجْرا) إشارة إلى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنّهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس في قلوبهم في أثناء الصّلاة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُون}532.

وقوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}533.

وقوله: (فالتاليات ذِكْرا) إشارة إلى قراءة القرآن في الصّلاة ولو اتخذنا بقاعدة التغليب اللغوية لكان المردود للتاليات للمذكر وليس للمؤنث لأن تلاوة القرآن لا تخلو من تال ولو اشترك تال واحد مع جميع الإناث لانصرف المعنى للمذكر وليس للمؤنث.

---

[532] الأعراف 201.200.

[533] النحل 100.98.

ورفع الصوت بالتلاوة يزجر الشيطان فعن أبي قتادة: "أَنَّ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وسلّم خَرَجَ لَيْلَةً فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي يَخْفِضُ مِنْ صَوْتِهِ قَالَ وَمَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ قَالَ فلما اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ قَالَ قَدْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَقَالَ لِعُمَرَ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ قَالَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُوقِظُ الْوَسْنَانَ وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ زَادَ الْحَسَنُ فِي حَدِيثِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم يَا أَبَا بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا وَقَالَ لِعُمَرَ اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا"[534].

ويمكن إسقاط هذه الصفات الثلاثة على المجاهدين وعلى العلماء وعلى الأنبياء.

وعلى ما تقدم فيونس من التالين الزاجرين الصافين المسبحين من البشر.

كما أنّ الرّسالة المكلف بها كل نبي متضمنة في جواب القسم لذا سنعود لجواب القسم بعد أن اقسم الله بمن اقسم بهم.

قوله تعالى: (إِنَّ إلهكم لَواحد) ذكر الله بعده ما الدليل اليقيني في كون الإله وأحدا، وهو قوله تعالى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)،

فهو الله واحد أحد فرد صمد يحفظ خلقه لأنه العليم به القدير عليهم

---

[534] سنن أبي داود، ج 4، ص 100.

ومن أدلة التوحيد الذي ورد في جواب القسم ما قاله جلّ وعلا: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا}535.

فانتظام أحوال السماوات والأرض يدل على أنّ الخالق المدبر واحد لا شريك له واحد وهنا تبدو الصلة بين قوله تعالى في جواب القسم: (إِنَّ إلهكم لَواحد) وبين ما أردفه دليلا على ذلك بقوله تعالى: (ربّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَربّ المشارق).

والتدبر أمرٌ من الخالق جلّ وعلا بالنظر في انتظام الكون الذي نرى منه أرضا وسماءً لأدل دليل على كون الإله وأحدا، والتأمل في هذا الدليل الكوني يتحصل بمقتضاه التوحيد اليقيني بالدليل الدامغ.

الاستفتاء الأوّل:

إن الخطاب الإلهي مع الملائكة يأتي تقريري في مسألة التوحيد، أما مع البشر يأتي استفهامي استنكاري من مثل قوله تعالى: {أَأَربّابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحد الْقَهَّارُ}536.

وقوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}537.

والملائكة في حال جوابهم يأتون بالتقرير من مثل قول الله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}538.

يتضح من قولنا الاستفتاء الأوّل أنّ هناك استفتاء آخر وهذا الاستفتاء الآخر قد جاء في نهاية السورة استئنافا أو عطفا على قصة سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم، وفي الأوّل يكمن ما عاند به الكفار

---

[535] الأنبياء 22.

[536] - يوسف 40

[537] - النحل 17

[538] - البقرة 32

سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم في مسألة الخلق البعث والنشور وتعدد الآلهة، فطلب الله من النبي استفتاء هؤلاء وموضوع الاستفتاء حول هذه الأمور ليصل بهم إلى أن الخالق القادر المر هو الله تعالت قدرته، {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أم من خلقنا خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ}539.

وقد افتتح الله هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الخالق وعلى واحديته من خلال الدليل الذي قدمنا له وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغاربّ.

قال الله تعالى للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم: (فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقا) استفت يا محمّد هؤلاء المنكرين الساخرين أهم أشد خلقا من خلق السماوات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغاربّ وخلق الجن الشياطين وغير ذلك، ونتيجة الاستفتاء بأنهم سيقرون بأن خلق هذا القسم من الخلق ـ السماء والأرض وما بينهما ـ أشق وأشد من خلقهم اعتماد على فتواهم.

ولما ثبت بالدليل الدامغ إثبات التوحيد وكون الله تعالى قادرا على هذا الخلق الذي هو أشد وأكبر مصداقا لقوله تعالى: {لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاس}540.

كان لابدّ أن نعرف أنّ رسالة كل نبي تقوم على إثبات الوحدانية لله وأنه تعالى الخالق المدبر للكون الذي لا معبود غيره، وقد ذكرت السورة عددا من الأنبياء كانت دعواتهم تتضمن الأس الأوّل (التوحيد) بالإضافة

---

539 الصافات 11

540 غافر 57.

للقضايا الآنية التي عالجوها من خلال رسالاتهم وصولا إلى سيدنا يونس ورسالته واستفتائه لقومه

الاستفتاء اليونسي:

كما قلنا إنّ لبّ كل رسالة هو التوحيد نقول أيضا إنّه ليس من الصدفة أن يأتي تسلسل الأنبياء في سورة الصافات دون علائق ودون روابط بينهم.

ومن بين تلك العلائق:

هدف كل رسالة.

الوسيلة في الدعوة.

المشكلات المستهدف علاجها.

ومن الروابط:

تتضح الروابط بين سيدنا يونس وبين من سبقه بالذكر في سورة الصافات من خلال تساؤلات منها:

ما الصلة بين سيدنا يونس وبين سابقيه من الأنبياء بالذكر؟

أهذه الصلة في القوم المستهدفين؟

أفي نوع المشكلة وعلاجها؟

أفي غرض الرسالة؟

نقول:

تبدو هذه الصلة من خلال موضع ذكر قصة سيدنا يونس عليه الصّلاة السلام فكونه قد ختم الله به عددا من الرّسُل في هذه السورة فإن

ذلك له كبير مغزى، وهذا المغزى ينكشف عنه ولا شك طبيعة رسالة سيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم.

ومضمون رسالة سيدنا يونس وما عالجته من قضايا لابدّ أنّها ذات صلة بمن سبقه من الأنبياء، ويظهر جليا من خلال استفتائه لقومه.

الاستفتاء لغة: "طلب الفتوى طلب الإخبار بالحكم الشرعي لتصرف من التصرفات"541، "وأفْتاهُ في الأمْرِ: أبانَهُ له"542.

"استفتى فلانا: سأله رأيه في مسألة"543، وفي القرآن الكريم: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}544.

فالاستفتاء تمكّنهم من أن يقفوا على أخطائهم ويترتب عليه حل لهم.

فيونس لم يطلب منهم فتوى شرعية ولا بيان مسائلة بل أراد أن يدمغوا أنفسهم بالحجّة التي سيقرونها هم بأنفسهم على أنفسهم.

ومن سيرته إجمالا قبل الاستفتاء:

{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}545.

---

541 معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 63.

542 القاموس المحيط، ج 3، ص 460.

543 القاموس الفقهي، ج 1، ص 281.

544 النساء 127.

545 يونس 148.139.

فمتى بدأت رسالة يونس؟

من ظاهر الآيات إنّه من المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}546، فهو رسول الله من قبل الأبق إلى الفلك المشحون وهذا الذي نراه يقينا.

الأبق: أبق من إباق العبد وهو هربّه من سيده.

وإنّ أثبتنا صفة العبد ليوسف فهي في الجانب الإيجابي وأعلى صفة وصف بها النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}547.

وقد اختلف المفسرون فقال بعضهم: إنه أبق من الله تعالى، وهذا لا يليق في حقّ رسول من رسل الله تعالى لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة الله، وذلك لا يجوز على الأنبياء.

وقد أورد المفسرون أسبابا لهروبه المزعوم منها:

. أنّه أمر بالخروج إلى بني إسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبا لربّه.

وقد بينا معاني مغاضبا وذكرنا فيها أن هذا بعيد عن الأنبياء والرّسُل بهذا المعنى السلبي.

كما أنّ ذلك ينقض عصمة الأنبياء سلام الله عليهم جميعا، فإذا قلنا بعصمة نبي وجب علينا أن نشمل كل الأنبياء بالحكم طاعة لقوله تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

---

546 الصافات 139، 140.

547 – الإسراء 70.

وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}548.

. وقيل: إنّ ذنبه يتمثل في ترك دعوة قومه، ولم يصبر عليهم.

وهذا مردود عليه أيضا وهو بعيد عن الحقّيقة لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يمكن أن يتركه ويعصي الله.

إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك (أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة، فذلك هو قوله: (إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك) وبيان ذلك في قوله تعالى: {وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ}549، فكان لظن ظن خير بان الله لن يضيق عليه وليس بمعنى نفي القدرة لله على يونس حاشا لله.

لذا فرسالة يونس تتضح من خلال قوله تعالى:

- (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ).

- (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ).

- (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

الأولى توكيد:

توكيد من الله إن يونس رسول من الله لا من غيره كما ورد في بعض التفاسير المعتمدة على الإسرائيليات.

الثانية بيان:

---

[548] البقرة 285.

[549] الأنبياء 87.

بيان التسبيح يظهر حقّيقة رسالته وهي الدعوة إلى التوحيد الخالص من خلال التوحيد (لا إله إلا أنت).

التنزيه (سبحانك).

الإقرار بالعجز أمام قدرة الخالق (إني كنت من الظالمين).

الثالثة تشريف وتكليف: لقوله تعالى: (وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ).

الاستفتاء وتفاصيل الرسالة:

{فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفي الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنّة نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنّة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}550.

الاستفتاء الذي جاء في صدر السورة لا شك أنه مخصوص بالنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا الاستفتاء الثاني فهو على احتمالين:

الأوّل: للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهذا ما سنحاول الرد عليه لإثبات الاحتمال الثاني: فقوله تعالى: (فاستفتهم الرّبكَ البنات وَلَهُمُ البنون) قيل وهذا معطوف على قوله تعالى في أول السورة: (فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقا أم مِن خَلَقْنَا)، وذلك لأنه تعالى أمر رسوله صلّى الله عليه وسلّم باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا

[550] الصافات 149.160.

بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم في أنهم أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين، ثمّ أنّهم أثبتوا الملائكة لله سبحانه وتعالى وزعموا أنّها من جنس الإناث لا من جنس الذكور.

والردّ على ذلك:

إنّ قريشا والعربّ قالوا كما رأى المفسرون: إنّ الملائكة بنات الله، وهذا لكلام باطل لأسباب منها:

إنّ إثبات العربّ البنات لله مزعوم على العربّ لأنّ العربّ كانوا يستنكفون من البنات، والشيء الذي يستنكف منه المخلوق كيف يمكن إثباته للخالق.

وكما أنّ من آمن بالرسالات من العربّ لم يقل ذلك القول لا من نصارى العربّ ولا من يهودهم، وإن قاله العربّ فهو تأثر بغيرهم ممن سبقهم، وهذا من التراث الثقافي على مستوى البشرية.

كما إن إثبات أن الملائكة إناث، لابدّ له من دليل حسي أو نقلي، أو عقلي:

. الدليل الحسي: فمفقود لأنهم أي العربّ ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة ولا الملائكة أصلا مصداقا لقوله تعالى: (أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا وَهُمْ شاهدون).

. الدليل النقلي: ليس هناك كتاب لدى العربّ يقول بهذا الرأي وعليه لا يوجد دليل نقلي فكيف يقولون بما لا يعلمون عمّا لا يعرفون، أما قوله تعالى: (أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لكاذبون) فهو للنصارى واليهود وليس للعربّ وللأمم السابقة.

وعليه يضعف الحكم بأن الاستفتاء الثاني للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم مع بقائه قائما.

. الاحتمال الثاني أنّه لسيدنا يونس صلّى الله عليه وسلّم.

لدليلين لغوي ومفهومين:

1. قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَم فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالتقمهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يزيدون فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَي الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}551.

الفاء في قوله تعالى فاستفتهم،

- أهي استئنافية؟

- أم عاطفة؟

فلو كانت للاستئناف فهي ليونس صلّى الله عليه وسلّم لكون قصة يونس تسبقها فيكون ما بعدها استئنافا لما قبلها، وإن كانت عاطفة كان وجهان:

الأوّل: عاطفة على الاستفتاء الأول في بداية السورة.

الثاني: على الكلام السابق عليها مباشرة.

---

[551] الصافات 153.139.

فلو قلنا بالأول لكان هناك فاصل من الحكي يصعب معه عطف ما بعد الفاءِ عن بعيد عنها، وهذا لا يستقيم لغة.

وإن قلنا بالثاني أنّه عاطفة لما بعدها على ما قبلها مباشرة لوجب أن يكون الاستفتاء ليونس صلّى الله عليه وسلّم وهذا لم يقل به أحد، وهنا يأتي الخوف من التجديد.

ولكن نتساءل:

على من يعود الضمير في استفتهم على القريب الملاصق أم البعيد جدا؟

هل من مخالفة أن يكون الأمر بالاستفتاء سنة إلهية مع رسله عليهم السلام؟

هل من مانع أن تكون الأمور المستفتى حولها حاصلة في قوم يونس ولو على الاحتمال؟

نقول:

الضمير من حيث اللغة يعود على الأقربّ وهو يونس صلّى الله عليه وسلّم، وليس بدعا أن يكون الاستفتاء سنة لبعض الأنبياء في رسالاتهم مع أقومهم، ولا مانع أن تكون الأمور المستفتى حولها حاصلة في قوم يونس صلّى الله عليه وسلّم لأنها لصيقة بسيرته، والذي نراه أن الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم كما طلب الاستفتاء من يونس صلّى الله عليه وسلّم.

يونس نبيا رسولا:

النبي بصفة عامة: مخبر عن ربّه نبأ عظيم، يهدف إلى تغيير في المجتمع على صعيد من الأصعدة، قال الله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}552.

لذلك فقد وصف الله ما جاء النبي ليخبر به بالنبأ بالعظيم، والنبي يكون مرسلا برسالة ذات شريعة وأحكام، أو يرسل برسالة رسول آخر على شريعته يدعو إلى ما دعا إليه، يرشد النّاس إلى الحقّ الذي اختلفوا فيه أو بدلوه، ليعالج نقصا ما طرأ على المجتمع.

ويونس ذكر على أنه نبيا رسولا، فقد ذكر الله عزّ وجلّ يونس في سياق الحديث عن الوحي لأنبيائه مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}553.

ثمّ جاء النصّ على أنه من المرسلين ولكن دون ذكر محدد لمن كانت رسالته سوى أنه لقرية ما، ولكن هناك تخصيص مذكور في سياق ذكر رسالة يونس نعتقد لأنه لابدّ أن يكون له دلالة في قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}554.

---

[552] النبأ 1.

[553] النساء 163.

[554] الصافات 139-148.

فما هي دلالة العدد في الرسالة؟

والمرسل إليهم: اليهود القاطنون في القرية التي ذكرت كتب التفاسير على أنهم اليهود الذين سبتهم الدولة الأشورية في نينوَى. والظاهر أن الرّسول إذا بعث إلى قوم مختلطين بغيرهم أن تعم رسالته جميع الخليط لأن في تمييز البعض بالدعوة تقريرا لكفر غيرهم. ولهذا لما بعث الله موسى عليه السلام لتخليص بني إسرائيل دعا فرعون وقومه إلى نبذ عبادة الأصنام، فيحتمل أن المقدرين بمائة ألف هم اليهود وأن المعطوفين بقوله: (أَوْ يَزِيدُونَ) هم بقية سكان القرية (نينوَى).

فحرف (أو) في قوله: (أَوْ يزيدونَ) بمعنى (بل) على قول الكوفيين والمعنى إذا رآهم الرائي تخير بين أن يقول: هم مائة ألف، أو يقول: يزيدون[555].

ونحن نقول أن أو هنا جاءت بمعنى بل يزيدون وهكذا يكون السياق ويَزِيدُونَ، وهذه الزيادة متحقّقة في الواقع لا على سبيل التخمين ولو أخذنا بمقياس حسابي واحد لثبت زياد هذا العدد، فلو سألنا:

كم من مؤمنة آمنت من المائة ألف كانت تحمل حملها؟

وأي تقدير حسابي لهذا التساؤل سيثبت أن الزيادة متحقّقة في الواقع.

كما إنّ الاتصال الإنساني من ناحية النسب أو المكان أو العمل يمكن أن يكون من عوامل تحقّق الزيادة المذكورة.

من هذا يتبين أن يونس كان:

- رسولا.

[555] التحرير والتنوير، ج 12، ص 165.

- نبيا.

قبل البدء بالحديث عن رسالة يونس نتوقف مع بعض ما اتفق عليه علماء العقيدة عن الفرق بين النبي والرّسول:

- الرّسول هو الذي حُدّث وأرسل.

- والنبي هو الذي لم يرسل ولكنّه ألهم أو رأى في النوم.

- وإنّ كلّ رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

- أنّ اشتقاق لفظ النبي إمّا من النبأ وهو الخبر

وذكروا في الفرق بين الرّسول والنبي أمورا منها:

- أنّ الرّسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه.

والنبي غير الرّسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنّما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

أنّ من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرّسول، ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي غير الرّسول.

أنّ من جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو الرّسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولا، أو أخبره أحد من الملائكة بأنه رسول الله، فهو النبي الذي لا يكون رسولا[556].

من ذلك كله ننطلق إلى بيان تفصيل رسالة يونس بتساؤلات الآتية:

لمن كانت الرسالة؟

هل كانت بكتاب أو صحف أو ألواح؟

---

[556] تفسير الرازي، ج 11، ص 133.

لمن كانت الدعوة:

بما أنّه رسول فلا بد أن كانت له رسالة يدعو النّاس إليها، فما هي هذه الرسالة.

هل كانت رسالة يونس بكتاب أو صحف أو ألواح؟

هناك أمور يجب تقريريها وهي:

إنّ الرّسُل عموما يوحي الله إليهم ما يريد أن يبلغ به النّاس مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}557.

إنّ وحي الله ليونس هو على درجة واحدة من وحيه لرسل الكتب السماوية، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}558.

انتبه المفسرون إلى ما في الآية من ذكر لأنبياء ورسل وتنبه بعضهم إلى المغايرة بين النبي والرّسول فحاول تفسير ذلك كما فعل ابن عاشور: "عدّ الله هنا جمعا من النبيين والمرسلين وذكر أنّه أوحي إليهم ولم يختلف العلماء في أنّ الرّسُل والأنبياء يُوحى إليهم.

وإنّما اختلفت عباراتهم في معنى الرّسول والنبي. ففي كلام جماعة من علمائنا لا نجد تفرقة، وأنّ كلّ نبي فهو رسول لأنَّه يوحى إليه بما لا يخلو من تبليغه ولو إلى أهل بيته، وقد يكون حال الرّسول مبتدأ بنبوّة ثمّ يعقبها

557 – الأنبياء 25.

558 – النساء 163.

إرساله، فتلك النبوّة تمهيد الرسالة كما كان أمر مبدأ الوحي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنَّه أخبر أهله، ونزل عليه قوله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربّين}559.

والقول الصحيح: أنّ الرّسول أخصّ، وهو من أوحي إليه مع الأمر بالتبليغ.

وقد أشار الله عزّ وجلّ في سياق ذكر عدد من الأنبياء والرّسُل مجتمعين إلى أنّ هؤلاء أوحي إليهم بالكتاب مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ}560.

ونحن نقول: إنّ هذه الآية تحتمل عدة أمور منها:

أن يكون لكل هؤلاء المذكورين من الرّسُل المصطفين كتب.

أن لا يكون لجميعهم كتب.

أن يكون لبعضهم كتب وبعضهم لم يكن له كتاب.

واضح أنّ الاحتمالين الأوّل والثاني لا يتفقان مع المعطيات القائمة لأننا لا نعرف فيما نعرف مثلا أن يونس له كتاب هذا بالنسبة لنفي الاحتمال الأوّل، أما نفي الثاني (ألا يكون لجميعهم كتب) فواضح من خلال وجود كتب التوراة والإنجيل والقران.

---

559 الشعراء 214.

560 – الأنعام 86-89.

بقي الاحتمال الثالث وهو (أن يكون لبعضهم كتب وبعضهم لم يكن له كتاب) وهذا هو الواقع كما نعلم، هنا يأتي التساؤل:

لماذا إذا اجتمعوا في مقام واحد؟

الجواب على ذلك هو إنّ المقصود هنا مقام الكتب السماوية، بل فعل الوحي الإلهي لهؤلاء وعلى ذلك فكل المذكورين في الآية على درجة واحدة في تلقي الوحي الإلهي، ولو عدنا إلى القرآن الكريم كلام الله الموحى إلى رسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم وتتبعنا مراحل وحيه نصل إلى حقّيقة أنه لم ينزل مكتوبا وإنما نزل وحيا محفوظا على الرّسول الأكرم وإنما تمت كتابته فيما بعد خوفا من المسلمين على ما جاءهم من هدى، وقد ينزل الوحي مكتوبا كما تشير الآيات الواردة عن التوراة مصداقا لقوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقوّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}561.

فالوحي ينزل مكتوبا كما في ألواح موسى أو ملفوظا كما في قرآن محمّد صلوات الله وسلامه عليهم إلا أنّ الوحي يبقى من الله.

الذي نريد أن نقوله هو أن وحي الله هو هو لا درجات فيه ومتغيرات تجعل بعضه أفضل ليدون وبعضه أقل (حاشا لله) ليترك، فكل ما أوحي إلى النبيين والرّسُل واجبه التدوين في الصدور قبل السطور ثم العمل به منهجا وسلوكا لذلك نعتقد أن قاعدة جديدة يمكن أن تؤسس على ذلك هي:

كلّ الرّسُل أوحى الله لهم وحيا على درجة واحدة من الأهمية لان الوحي من الله مع إقرارنا باختلاف كم هذا الوحي من رسول إلى آخر، وأنّ ما جاء في وحي الله ليونس هو بنفس مرتبة ما جاء من وحي على

---

[561] الأعراف 145.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم، إذا لم يكن هو ذاته مع تغير في صيغ التعبير من قوم لآخر تبعا للسانهم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}562.

هنا وبعد هذه الحجّة الإلهية نصل إلى عدة حقّائق منها:

-الموحي واحد (الله جلّ جلاله).

-الوحي واحد.

-الموحى إليه متعدد.

-التبليغ مختلف.

وإذا أردنا تأكيد هذه الحقّائق نقول إن الموحى إليه (الإنسان) متغير لذلك فإنّ من الطبيعي أن تتغير طريقة الوحي (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)، أمّا الموحي فهو الله عزّ وجلّ لا يتغير وحيه، وذلك لأنّه الواحد، والأحدية موجب لبقاء المطلق، ومعنى الواحد يعني: التفرد في الذات أو الصفة، والله واحد، أي أنّ ذاته منفردة عن المثل والشبه.

فما هي مضامين رسالة يونس؟

وصلنا فيما سبق بعد مناقشة مستفيضة إلى نتيجة التي جزمنا بها هي أنّه ما من رسالة أو نبوة ناسخة لما قبلها في المضمون، فالمضمون واحد ولكن المتغير يحصل في المتغير ذاته وليس في الثوابت.

فما هي الثوابت؟

وما هي المتغيرات؟

---

562 إبراهيم 4.

لا شك أنّ الثابت الذي هبط به آدم ومن بعده تترى الأنبياء والرّسُل إلى الرسالة الخاتمة برسالة سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وسيبقى إلى يوم البعث وما بعد هو:

(لا إله إلا الله)

هذا هو الثابت الأول الذي تركز على العقيدة في كل زمان ومكان لذلك لا شك أن تكون رسالة يونس تحمل هذا المضمون كأول ما تقول به في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ.

أما الثابت الثاني فهو

محمّد صلّى الله عليه وسلّم خاتم الأنبياء والمرسلين.

هنا نتساءل:

هل كان يونس يعلم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم؟

هل كان يونس يعلم عن النبي الخاتم؟

نعتقد أنّ يونس وكل الأنبياء والمرسلين يعلمون برسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم الخاتمة، بل نعتقد أنهم كانوا يعرفونه، وربّما يمكن إذا أتينا بالحجّة وحاورونا بالمنطق أن نؤكد اعتقادنا في ذلك، وليكن ذلك في ضوء طرح عدة مسائل للنقاش على النحو الآتي:

المسألة الأولى: هي أن آدم نزل من السماء إلى الأرض مُنبّا من الله عزّ وجلّ بالأسماء كلها ودلالتها، أي العلم بها مصداقا لقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}563.

---

563 - البقرة 31.

نقول إن الألفاظ القرآنية هي ألفاظ قاطعة في دلالتها فلفظة كلها تدل ولا شلك على العموم الذي يفضي أن يكون آدم أُنبأ بكل اسم سمي به مسمى، ومنها اسم الرّسول الأكرم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فلابدّ بعد ذلك أن يكون آدم أخبر بالاسم لأهمية دلالته فيس مسيرة الإنسانية التي هو أبوها الذي سيخطو خطواتها الأولى على الأرض.

المسألة الثانية: هي أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام دعا ربّه جلّ وعلا فقال كما يخبرنا العليم الخبير: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}564، هنا نعتقد أن الإجابة المتحقّقة على أرض الواقع أوحي بها لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، إذ العلاقة بين الله عزّ وجلّ وبين أنبيائه ورسله علاقة حتمية التصديق لا احتمالية المصداق، بمعنى أن كل خطاب من الله عزّ وجلّ لرسول أو نبي يقابله تصديق مطلق من الرّسول أو النبي المخاطب، وكل دعاء من الرّسول أو النبي يقابله إخبار من الله عزّ وجلّ بالإجابة أو غيرها على القطعية المطلقة لا على الاحتمال وذلك مؤكد بالكثير من الآيات.

المسألة الثالثة: أنّ الرّسول الكريم مذكور في بشارات الرسالات السابقة كمثل رسالة موسى وعيسى مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}565.

المسألة الرابعة: الميثاق المأخوذ من الأنبياء والمرسلين.

[564] - البقرة 129

[565] الأعراف 157.

يقينا أنه ما من نبي أو رسول يكلف بنبوة أو رسالة إلا ويأخذ منه ميثاقا بالتصديق بالنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}[566].

هذا الميثاق ليس ميثاقا سريا بين الله وأنبيائه، بل هو جزء من العقيدة التي كلف الأنبياء والمرسلين بتبليغها، لذلك نعتقد أنّ في رسالة يونس تبليغ بالرّسول الخاتم وبالرسالة الخاتمة.

لذلك كله كان اعتقادنا أنّ يونس كان يعلم عن محمّد صلّى الله عليه وسلّم بوحي من الله عزّ وجلّ وميثاقه، فأمر رسالته من الأمور المهمة في العقيدة ولا يمكن تصور ألا يكون للأنبياء والرّسُل علم بسيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبرسالته الخاتمة.

هنا نتساءل:

هل هناك مضمون محدد لرسالة يونس؟

نقول نعم فقد أشار إلى سبحانه وتعالى في سياق ذكر رسالة يونس عليه الصّلاة والسّلام إلى مسألة عقدية مهمة تحمل عدد من الأمور تتوضح في قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ}[567].

---

[566] آل عمران 81.

[567] الصافات 147-153.

نقول: أوّلا أنّ المفسّرين أجمعوا أن الخطاب هنا من الله عزّ وجلّ لنبيه محمّد صلّى الله عليه وسلّم مستندين في ذلك إلى تحول الخطاب من الغائب إلى الحاضر مثلما يقول ابن عاشور: "ففرع عليه أمر الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم بإبطال ما نسبه المشركون إلى الله من الولد. فضمير الغيبة من قوله: (فاستفتهم) عائد على غير مذكور يُعلَم من المقام"568.

وهذا لا نختلف عليه لان الخطاب في القرآن الكريم كله هو للنبي الأكرم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولكن لنا إضافة على ما قال المفسرون، فسياق الآية يشير إلى مضمون سابق وآني، سابق لما حصل في رسالة يونس وآني لما يحصل مع الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهذا لا يخالف شيء من ثوابت العقيدة، فكل ما حصل مع الأنبياء والمرسلين وما جاء في كتبهم وألواحهم وصحفهم هو في القران المنزل على الرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم هيمنة مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}569، فهذا القرآن هيمن على الكتب السابقة والرسالات والنبوات فمن الطبيعي أن نجد في القرآن ممّا في الكتب السابقة، وسياق الآيات التي جاءت بعد ذكر رسالة يونس عليه الصّلاة والسّلام تشير إلى صور من صور هيمنة القران على الكتاب، وكذلك تلك التي سبقتها كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ}570.

هنا نسأل:

---

568 التحرير والتنوير، ج 12، ص 166.

569 المائدة 48.

570 الصافات 15-17.

هل المضامين الموجودة في هذا الآية - والخطاب للنبي صلّى الله عليه وسلّم- خاصة بالرسالة الخاتمة؟

الإجابة بالتأكيد لا. لانّ السحر وصف به موسى وعيسى، وإنكار البعث كان قولا للأقوام السابقة واعتقادا جاءت الرسالات لتصحيحه، وكذلك الأمر تكرر مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في الرسالة الخاتمة فجاء الخطاب سابق وآني في الوقت ذاته، وهكذا فسياق الآيات لاسيما فيما يتعلق باعتقادات الأقوام قبل الإيمان تشير إلى هذه العقائد التي سيطرت على عقول النّاس فترة طويلة وجاءت الرسالات لتصحح هذه العقائد.

فالمضامين الواردة في الآية موجودة في رسالة يونس، وطلب الاستفتاء هنا هو ربّط ما كان في تلك الرسالة مع الرسالة المهيمنة الكافة التي هي للعالمين جميعا، ولكن رسالة يونس كانت للمائة ألف أو يزيدون، والتأكيد هنا جاء لانّ المائة ألف أو يزيدون ليسوا هم المقصودون فقط بهذا المضمون، بل العالمين كلهم مقصودون بذلك، وذلك لظهور هذا الاعتقاد من جديد فكان لابدّ للكتاب المهيمن أن يعيد التذكير بهذا المضمون العقدي.

وهنا، وجب طرح التساؤلات الآتية:

- ما كانت الاعتقاد المسيطر على قوم يونس؟

- كيف عالج يونس هذا الانحراف العقدي؟

المعتقدات المسيطرة هي:

1- (فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ).

2- (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ).

3- (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

4- (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ).

هذه المعتقدات لا شكّ أنّه موجودة في أذهان قوم يونس وجاءت رسالة يونس لتبين للناس طبيعة الخطأ الذي وقعوا فيه وتصحح اعتقادهم بطريقة سماها الله عزّ وجلّ الاستفتاء (فَاسْتَفْتِهِمْ) وهو مصطلح عربّي إسلامي صرف وليس لأحد أن يدعيه لنفسه، المصطلح والمضمون عربّيان إسلاميان، وهو صورة من صور المودة في الدعوة ونفي الإكراه عن طرق التبليغ النبوية.

فالطريقة التي كلف الله يونس باستخدامها في تبليغ الدعوة كان بالمحاورة القائمة على المشاركة في حوار مستديم هو في صورة استفتاء فكري قائم على العرض والتفنيد لما هو غير منطقي ولا عقلي بالحجج المنطقية والعقلية، لان هذه المضامين لا يمكن الإتيان بحجّة مادية لتفنيدها فهي اعتقادات فكرية فلزم أن يكون التفنيد فكري، لذلك كان الاستفتاء بمعنى استخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يوجب الوصول إلى الحقّيقة، وهذا ما كان في أسلوب يونس الذي يتجلى في ما حصل مع القوم، فبعد أن استفتى يونس أفكارهم فيما يعتقدون احتاج قومه إلى زمن ليداوروا الأفكار مع بعضهم بطريقة الاستفتاء وصولا إلى قرار الأغلبية الذي نتج فيما بعد بالإيمان التام لقومه.

ظنّ يونس:

لا شكّ أنّ ظنّ يونس يحتاج إلى بيان، فهو في اعتقادنا ظن موجب، وهذا أمر لم يقل به أحد فقد أشارت التفاسير إلى غير ذلك من قريب أو بعيد، لذلك فإن الأمر يحتاج إلى تحليل دقيق.

ونبدأ من حيث يجب أن نبدأ وهو قوله تعالى: (فظنّ أن لن نقدر عليه).

هذه الآية هي المرتكز الذي تقوم عليه فكرة الظن الموجب.

ونريد قبل إقرار الفكرة أن نذكِّر ببعض حقّيقة لازمة هنا مفادها من المحال أن يكون في ظن يونس تحد لله عزّ وجلّ، فهو من المصطفين المجتبين والأنبياء الرّسُل الكرام، ولا شكّ أن الله لا يصطفي ولا يجتبي ولا يكلِّف بالنبوّة أو الرسالة من يظن أن يمكن له أن يتحدى الله عزّ وجلّ.

ونبدأ التحليل ونقول إنّ جملة (نقدر عليه)، ليس المقصود فيها يونس إنسانا جسدا لأنّه محال بحقّ الله القادر، ومحال بحقّ يونس صلّى الله عليه وسلّم، عليه يجب أن يكون (نقدر عليه) لغير الإنسان الجسد، وهو على وجه التحدي فعله (ذهب مغاضبا)، فنقدر عليه تعود على فعل يونس، وهو فعل موجب لان يونس غضب من قومه وعليهم لأنهم تأخروا في إعلان إيمانهم فغضب غضبة حقّ لله، فهو فعل موجب، وبعد الغضب حصل تقدير من يونس هو الظن المتعلق بالذهاب، فقد ظن يونس ضنا يقينا أن العذاب واقع لا محالة بقومه إن لم يؤمنوا وهذا ظن يقين، وقّدر أنه بذهابه عنهم سينجو من العذاب، ولكن الله أراد أن يبيِّن ليونس تفيهما وتعليما لا عقابا بأنّ المنجي هو الله وليس الظن بالذهاب فكان الحوت لتحقّيق هذه الإرادة الإلهية التي تحقّقت بفهم يونس فكان من المسبحين ولو لم يسبح لبقي الظن بالذهاب وبقي يونس في بطن الحوت ولكن التسبيح هو إقرار بالتسليم أنّ المنجي هو الله عزّ وجلّ وليس تقدير طني بالذهاب عن العذاب.

النبذ ومراحله:

(نبذ) النَّبْذُ طرحك الشيء من يدك أَمامك أَو وراءك نَبَذْتُ الشيء أَنْبِذُه نَبْذا إِذا أَلقيته من يدك، ونَبَّذته شدد للكثرة ونبذت الشيء أَيضا إِذا رميته وأَبعدته، وانتبذ فلان إِلى ناحية أَي تنحى ناحية قال الله تعالى في قصة مريم فانتبذت من أَهلها مكانا شرقيّا والمنتبذ المتنحي ناحية، والانتباذ تحيز كل واحد من الفريقين في الحربّ571.

{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}572.

ليس في النصّ القرآني المتعلق بسيدنا يونس عليه الصّلاة والسّلام نبذ غير النبذ الإلهي المذكور في قوله تعالى (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ)، ولكن هذا الفعل الإلهي أوحي بدلالة الحركة التي اختارها يونس في مسيرة الدعوة حتى لكأن كل حركة قام بها هي نبذ لشيء مخصوص، ولذلك سنحاول أن نتتبع هذه الحركة ونفهم دلالاتها.

تبدأ الحركة الأولى التي قام بها يونس من:

دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن صار رسولا، لأن قوله: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك)، معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك،

أبق من إباق العبد وهو هربّه من سيده، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم: إنّه أبق من الله تعالى، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن

---

571 لسان العرب، ج 3، ص 511.

572 الصافات 139-149.

يتعمد مخالفة ربّه، وذلك لا يجوز على الأنبياء واختلفوا فيما لأجله صار مخطئا، فقيل: لأنّه أمر بالخروج إلى بني إسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبا لربّه، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر، وقيل: إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه، ولم يصبر عليهم. وهذا أيضا بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه، والأقربّ فيه أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لا محالة، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله، وهذا هو الأقربّ لأنّه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمدا للمعصية، وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظن، لأجل أنّه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله: (إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك) ما ذكرناه573.

عليه: يكون الخروج مغاضبا بمثابة النبذ، والتساؤل هو:

من ماذا نبذ؟

ولماذا نبذ؟

نقول: أنّه لم تظهر حقّيقة قرآنية تبين أنّ يونس قبل ركوبه السفينة فارق قومه، ولكن السياق الإيحائي المجازي يدل على أن يونس فارق مغاضبا إمّا لشيء يمس عقيدته، أو لأناس خالفوا عقيدته الصحيحة التي جاء يدعوهم إليها، في كلا الحالتين نبذ يونس ورائه نِبذا، وهو على الأرجح قومه الذين نبذ فيهم إصرارهم على ما كانوا فيه وبالتالي نبذهم لأنه لا يريد أن يكون من الذين لا يؤمنون، فهو نبذ موجب قصد به يونس

573 تفسير الرازي، ج 13، ص 149

عليه الصّلاة والسّلام الحقّ ولم يقصد فيه المفارقة لأجل المفارقة، فليس من كره في نبذه وليس من بغض أو عداوة أنما هو غضب لله عزّ وجلّ.

والنبذ في الغالب يحدث افتراق بين النابذ والمنبوذ، وكذلك يؤدّي إلى انفصال النابذ عن المنبوذ وهذا ما كان مع يونس عليه الصّلاة والسّلام وقومه.

أمّا النبذ الثاني فكان نبذا موجبا بكل ما فيه، فقد تحول يونس من مكان ما ذبن سابقا إلى مكان آخر ذكره الله عزّ وجلّ هو الفلك التي ركبها قاصدا وجهة قدّر أنها تنجيه من القوم الظالمين مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}574، لكن يونس نبذ هذه السفينة نبذا موجبا، فقد كان يونس راضيا بحكم الجماعة التي معهم ولم يتردد في نبذ السفينة إلى مستقر النجاة، {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}575، ولا يمكن تصور إنسان يلقي بنفسه في البحر بمجرد أن وقعت عليه القرعة لولا أنه يملك يقينا راسخا بأن الله معه وأن الله سينجيه.

لذلك نبذ يونس السفينة ومن عليها إلى مكان اختلى فيه يونس بنفسه مسبحا لربّه عزّ وجلّ، فالمنبوذ في هذه الحالة هو السفينة ومن عليها.

نأتي الآن إلى مستقر التسبيح المفضي إلى النجاة، {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}576، الحوت الذي لا تعنيننا حيوانيته حيث لا دور لها هنا، لانّ الحوت لو تصرف بهذه الحيوانية لأكل يونس وانتهى الأمر، فالحوت

[574] الصافات 140.

[575] الصافات 141.

[576] الصافات 142.

هنا وفي هذا الموضع من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ ربّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}577.

فما هي واجبات هذا الجندي؟

التقام يونس

منعه من الخروج

المحافظة عليه من كل سوء

التوجه به إلى مكان مخصوص

نبذه

نناقش مسألة الالتقام، اللفظ في غاية الدقة عن الواجب الذي كلف به الحوت، فاللَّقْمُ سُرعة الأَكل والمبادرةُ إِليه578، هذا المعنى يشير على: احتمال أن يكون الحوت لقم يونس قبل أن يسقط في البحر وفي ذلك دلالة مهمة هي: أنّه لا تهديد لحياة يونس من الغرق بعد الإلقاء وهذا يؤكد قولنا السابق أن يونس ألقى بنفسه من السفينة وهو على يقين مطلق أنّ الله منجيه وهذا يقوي الرأي أن الحوت التقم يونس قبل أن يمس الماء.

المهمة الثانية هي المنع من الخروج وهذه المسألة تؤكد أنّ الحوت مكلف بدور محدد موقوت بزمن مخصوص، والمنع هنا لا يمثل سجنا ليونس لأن الغاية هي تعليم يونس سبيل النجاة الخالص من أي شوب، وهذا التعليم وارد بحقّ الأنبياء لأنهم سيكونون أسوة لغيرهم، وهي سنة الله مع أنبيائه ورسله ومن ذلك تفهيم الله لسليمان مصداقا لقوله تعالى:

577 المدثر 31.

578 لسان العرب، ج 12، ص 546.

{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}579.

عليه: فلقم الحوت ليونس لم يكن عقابا بل كانت تفهيما كتفهيم سليمان وتعليم عيسى.

الدور الثالث للحوت كان المحافظة على يونس ممن دون أن يمسه سوء بسبس من أسباب حيوانية الحوت، فالحوت حيوان يأكل ويشربّ بطريقة يعلمها كثير وملخصها أن الحوت يدفع كمية كبيرة من المياه إلى جوفه ثم يستخلص منها الغذاء ويدفع بالماء إلى الخارج، هذه العملية ممكن جدا أن تؤثر على ما في الجوف أو الحلق، ولكن المهمة الموكلة لهذا الجندي هي أن يقوم بهذا كله دون أن يمس يونس.

ويخيل لنا أنّ الحوت حتى في حركته كان يراعي وجود يونس في بطنه، والمفارقة المعجزة تكمن في هذا التجانس المعجز بين كون يونس في بطن الحوت وبين عدم أكل الحوت له، فيونس لم يكن في فم الحوت بل كان في بطنه حيث تجري عملية الهضم ولكن ذلك لم يجعل الحوت إلا محافظا على يونس كما أمره الله بذلك.

ثم توجه الحوت بعد ذلك إلى مكان مخصوص وهذا يدل مرة أخرى إلى أنّ بطن الحوت كانت مكانا عاد فيه يونس إلى الله عزّ وجلّ خالصا من أي تهديد، وكأن الله أنجاه في بطن الحوت من الغرق الذي كان يحوط بمن في السفينة إلى مكان آمن يقله إلى حيث يريد الله له أن يبدأ رسالته من جديد.

هنا نتساءل:

---

[579] الأنبياء 79.

ما الذي كان في بطن الحوت؟

1-لبث (لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ).

2-ظلمات (فِي الظُّلُمَاتِ).

3-غم (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ).

4-نداء (فَنَادَى).

تسبيح (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ).

نأتي إلى المسألة الأولى وهي اللبث في بطن الحوت، وفيها دلالة إيحائية عن زمن بقاء يونس في بطن الحوت، فلبث لا تدل بالتأكيد على السرعة بل هي أكثر دلالة على البطيء منها إلى السرعة، ومعناه في اللغة: اللَّبْث: المكْثُ، ولَبِثَ لَبْثا. واللَّبِثُ: البطيءُ[580].

والنصّ القرآني يؤكد أن في اللبث بطأً كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}[581]، وهي تدل على زمن مخصوص كما في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}[582]، أو قوله تعالى: {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ}[583]، أو تدل على زمن طويل كما في قوله تعالى: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحقَابًا}[584]، ولم تدل لبث على السرعة،

---

[580] العين، ج 2، ص 162.

[581] هود 69.

[582] - الكهف 19.

[583] البقرة 259.

[584] النبأ 23.

ومعنى ذلك أن يونس استغرق في بطن الحوت زمنا ولم يكن نبذه من بطن الحوت سريعا، ولعل ذلك هو زمن التفهيم والتعليم استغرق الفترة التي أراد الله عزّ وجلّ أن يبقى يونس في بطن الحوت.

أمّا الظلمات فهي لفظة تدل على الجمع وليس على الإفراد، بمعنى أن هناك أكثر من ظلمة، وقد ذكر المفسرون أنواع الظلمات فقالوا: "أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت جعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات، وأنشد السيرافي:

وليل تقول النّاس في ظلماته... سواء صحيحات العيون وعورها أو الجمع على ظاهره والمراد ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، وقيل: ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل"585.

ونحن نقول: إنّ دلالة الظلمات لا شكّ لها معنى أوسع من الدلالة الحقّيقة للظلمة، فالظلمة المقابلة النور متحقّقة في بطن الحوت وهذا لا شكّ فيه، ولكن ظلمة أخرى هي بمثابة ظلمات عند المصطفين المجتبين الأنبياء الرّسُل، إنها ظلمة الخوف من الابتلاء بالعقيدة، فقد كان يونس يخشى أن يكون قد أذنب وابتلي بذلك من جراء ذنب اقترفه فقال كما يخبرنا العليم الخبير: (إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين)، ففي هذه الآية نشعر وكأنه خطاب من مقر بذنب (كنت من الظالمين) لكن المعهود عن الأنبياء رفعة درجة علمهم بما يجب على العبد تجاه ربّه، فخطاب يونس ليس هو خطاب المذنب وإنما خطاب العارف بالله عزّ وجلّ ن ويذكرنا هذا بصلاة الليل التي كان الرّسول الكريم يصليها حتى تتفطر قدماه في كل يوم وكانت تسأله عائشة رضي الله عنها ألم يغفر الله لك فيقول إلا أكون عبدا

---

585 تفسير الآلوسي، ج 12، ص 453.

شكورا، "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى الله عليه وسلّم– إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"586.

فإقرار يونس هو تعبد لله عزّ وجلّ وتسبيح للمولى جلّ وعلا.

ويونس الموقن بالله وملائكته ورسله يشعر أنه في ظلمة عقدية وهو بعيد عن نور التبليغ امتثالا لأمر الله عزّ وجلّ.

ثم كانت الاستجابة والنجاة، والاستجابة: مبالغة في الإجابة. وهي إجابة توبته ممّا فرط منه. والإنجاء وقع حين الاستجابة إذ الصحيح أنه وبقي في بطن الحوت زمنا، وعطف بالواو هنا بخلاف عطف (فكشفْنا) على (فاستجبنا)، وإنجاؤه هو بتقدير وتكوين في مزاج الحوت حتى خرج الحوت إلى قربّ الشاطئ فنبذه إلى الشاطئ.

وجملة (وكذلك ننجي المؤمنين) تذييل. والإشارة ب (كذلك) إلى الإنجاء الذي أُنجي به يونس، أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين من غُموم بحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة587.

ويشير قوله تعالى: (وكذلك ننجي المؤمنين) إلى أنّ يونس لم يكن من الظالمين، بل كان من المؤمنين.

وقد كان النداء إلى الله عزّ وجلّ صورة من صور عقيدة يونس القوية، فقد كان ينادي ربّه، ويطلق النداء كثيرا على الكلام الذي فيه طلب إقبال

---

586 صحيح مسلم، ج 8، ص 141.

587 ابن عاشور، ج 9، ص 199.

الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلام، فلذلك سميت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال حروف النداء588.

فالنداء هنا ليس المقصود به علو الصوت، بل يقصد دلالة إقبال الذات وانصرافها إلى المدعو وهو الله عزّ وجلّ، وفي ذلك بينا حقّيقية شعور يونس داخل ظلمات بطن الحوت، لقد كان موقنا بالله عزّ وجلّ ومتمسكا بطريق الحقّ والإخلاص لله الواحد الأحد.

أمّا قوله: (أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ)، فالمعنى بأنه لا إله إلا أنت، أو بمعنى أي، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له"، أما قوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز، وهذا يدل على أنه ما كان مراده من قوله: (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) أنه ظن العجز، وإنما قال: (سبحانك)، لأن تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جورا أو شهوة للانتقام، أو عجزا عن تخليصي عن هذا الحبس، بل فعلته بحقّ الإلهية وبمقتضى الحكمة.

وهو أنه عليه الصّلاة والسّلام وصفه بقوله: (لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ) بكمال الرّبوبية ووصف نفسه بقوله: (إِنّي كُنتُ مِنَ الظالمين) بضعف البشرية والقصور في أداء حقّ الرّبوبية589.

روى سعد بن أبي وقاص عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيء قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ"590.

---

[588] – التحرير والتنوير، ج 8، ص 446.

[589] تفسير الرازي، ج 11، ص 67.

[590] سنن الترمذي، ج 12، ص 492.

وهكذا فإن حركة الحوت كانت نبذا لكل ما سوى ما أمره الله أن يتوجه إليه، وإذا تساءل متسائل:

إلى أين ذهب الحوت بيونس؟

نقول إن دلالة المكان من حيث الجغرافيا لم تكن محددة في نص القرآن الكريم ولكن إشارة من الله عزّ وجلّ إلى ذلك المكان ورد في قوله تعالى: {فنَبَذْناه بالعَراءِ وهو سَقيمٌ}591، فالنبذ كان في العراء، والعَراء ممدودا هو ما اتَّسَع من فضاء الأرض وقال ابن سيده هو المكانُ الفَضاءُ لا يَسْتَتِرُ فيه شيءٌ وقيل هي الأرضُ الواسعة592.

هذا المكان الواسع يتناسب مع العدد المذكور في رسالة يونس عليه الصّلاة والسّلام، فقد أرسل عليه الصّلاة والسّلام إلى مائة ألف أو يزيدون مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}593.

وهنا نتساءل:

من الذي نَبذ؟

كيف نَبذ؟

ماذا حصل بعد النبذ؟

نقول إن الذي نبذ هو الحوت بأمر الله عزّ وجلّ لذلك قال الله تعالى (فنبذناه) ناسبا فعل النبذ لذاته الكريمة، وفي ذلك إشارة أخرى إلى أن الحوت لم يكن إلا جنديا ينفذ ما يأمره خالقه عزّ وجلّ.

---

[591] الصافات 145.

[592] لسان العرب، ج 15، ص 44.

[593] الصافات 147-148.

أمّا الكيفية فهي منسجمة مع الكيفية التي كان فيها يونس عليه الصّلاة والسّلام في بطن الحوت، بمعنى أن النبذ كان بهدوء وبنفس شرط المحافظة على يونس من الأذى، فالنبذ كان على درجة عالية من الرعاية بأن لا يصيب يونس أي مكروه.

ماذا بعد النبذ؟

يقول الحقّ جلّ وعلا عن ذلك واصفا وصفا دقيقا: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}594.

وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مّن يَقْطِينٍ أي أنبتناها مطلة عليه مظلة له كالخيمة فعليه حال من شَجَرَةٍ قدمت عليها لأنها نكرة، واليقطين يفعيل من قطن بالمكان إذا قام به، وهو الدباء وهو القرع المعروف، وأنبتها الله تعالى مطلة عليه لأنها تجمع خصالا برد الظل والملمس وعظم الورق، وكان عليه الصّلاة السلام لرقة جلده بمكثه في بطن الحوت يؤلمه حر الشمس ويستطيب بارد الظل فلطف الله تعالى به بذلك، وذكر أن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده595.

النبذ في العراء:

قال الله تعالى: {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}596.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يُنبذ يونس صلّى الله عليه وسلّم في العراء، مع العلم أنه كان من الممكن في أمر الله تعالى أن يُنبذ في مكان مؤنس من قرية أو مدينة فيها من البناء والعمران والظل والأُنس ما لا

[594] الصافات 145-146.

[595] – تفسير الآلوسي، ج 17، ص 242.

[596] – الصافات 145، 146

يستوحش به إنسان، ويستطيع النابذ بالأمر وهو الحوت أن ينبذه فيها، ولكن لما كان النبذ بالعراء، فقد اقتضت الحكمة الإلهية ذلك النبذ في ذلك المكان لسبب.

سنحاول قدر المستطاع من خلال الآيات الوقوف على حكمة النبذ في العراء دون أي مكان آخر، وبداية نحاول فهم دلالات العراء وظلال معانيها التي تخيّم عليها أو تكوّن امتدادات لها حيث دعت الحكمة الإلهية إلى اختيارها دون غيرها من أنواع أخرى من الأرض، فقد جاء من معاني العراء في لسان العربّ قوله: "وأما العراء ممدودا فهو ما اتسع من فضاء الأرض وقال ابن سيده هو المكان الفضاء لا يستتر فيه شيء وقيل هي الأرض الواسعة وفي التنزيل فنبذناه بالعراء وهو سقيم وجمعه أعراء.

وقال أبو عبيدة: إنما قيل له عراء لأنّه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه وقيل إن العراء وجه الأرض الخالي وأنشد:

ورفعت رجلا لا أخاف عثارها..... ونبذت بالبلد العراء ثيابي.

وبلد عارية أعراؤه، والعرى الحائط وقيل كل ما ستر من شيء عرى، والعرو الناحية والجمع أعراء والعرى والعراة الجناب والناحية والفناء والساحة ونزل في عراه أي في ناحيته"597.

وعلى ما جاء في تعريف العراء، فإنّه لا يقتصر على معنى واحد، وإنّما هي معانٍ متداخلة تعطي اللفظة أبعادا كثيرة ومتسعا من الظلال التي تغطي أبعاد اللفظة.

فيونس صلّى الله عليه وسلّم نُبذ في هذه الأرض العراء الفسيحة المستوية المنبسطة، والممدودة الواسعة، وهي خالية من النبات والجبال

[597] – لسان العرب، ج 15، ص 44.

والأشجار، ولما كان حال العراء وصورتها ووصفها على هذه الحال، فإن حكمة الله تعالى اقتضت أنه لا يناسب يونس صلّى الله عليه وسلّم في الوقت الذي نُبذ به من بطن الحوت حال من المحيط الخارجي الذي لفظه به الحوت إلا هذه العراء التي تتناسب مع السقم الذي انتاب يونس صلّى الله عليه وسلّم أثناء لبثه في بطن الحوت، حيث أصابه السقم، والسقم الذي أصاب يونس صلّى الله عليه وسلّم، ليس مرضا عضويا ناتجا عن وباء أو جرثومة أو عدوى تصيب الإنسان، وإن كانت هذه الأشياء تؤدّي بالنتيجة إلى السقم، إلا أن يونس صلّى الله عليه وسلّم لم يصبْ بأيٍّ منها، لأن السبب في سقمه كان نتيجة التقام الحوت له، واللبث في بطنه، فأصابه السقم جراء ذلك اللبث. ومع إقرارنا بعدم معرفة المدة التي أمضاها يونس صلّى الله عليه وسلّم لابثا في بطن الحوت، إلا أنّ اللبث ذكر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم يتكلم فيها عن الدنيا والآخرة، غير أننا نستطيع أن نعرف عن اللبث مبداه ومنتهاه بالنسبة للحياة الدنيا التي ذكرها القرآن الكريم في حقّ الذي مرّ على قرية، وفي حقّ أصحاب الكهف.

فقال في حقّ الذي مرّ على قرية: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ}598.

وقال في حقّ أصحاب الكهف: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}599.

---

[598] – البقرة 259.

[599] – الكهف 19.

ثمّ أخبر الله تعالى بما لبثوا بقوله: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا}[600].

فاللبث في الحياة الدنيا لمن ضربّ الله تعالى بهم مثلا في اللبث، تراوحت مدته ما بين بعض يوم في حدّه الأدنى إلى ثلاثمائة وتسع سنين في حدّه الأقصى، وبصرف النظر عن مدّة لبث يونس صلّى الله عليه وسلّم على وجه التحديد، إلا أنّ نبذه في العراء وهو سقيم الحال، يدلّ على أنها مدة ليست قصيرة، لاسيما أنّ السقم يحمل معانٍ كثيرة منها:

. الضعف.

. الوهن.

. الهزال.

. الاصفرار.

. الشحوب.

وهذه الأوصاف التي تصيب السقيم تحتاج لأكثر من يوم وليلة على الأقل كي يتصف بها، وخاصة أن أولى علامات السقم تأتي من الجوع، أو بعبارة أدق من عدم الرغبة في الطعام لا عن مرض عضوي مثل حال يونس، وإنما لأسباب نفسية وذهنية فكرية تسيطر على داعي الجوع وغريزته، ممّا يُظهر السقيم بالوهن والضعف والهزال وتغير اللون وشحوبه، وهذا لا يكون بين يوم وليلة أيضا.

وعلى ما تقدم: فإنّ نبذ يونس صلّى الله عليه وسلّم بالعراء مقصود لذاته بحكمة إلهية يريد الله تعالى أن نقف على الغرض من تلك الحكمة، لاسيما وأنّ القرآن الكريم في آياته من:

---

[600] – الكهف 25.

. المحكم.

. المتشابه.

. العبادات.

. العقائد.

. القصص.

. الأخبار.

. الردع.

. الزجر.

. الترغيب.

. الترهيب.

يكون منها على مواقف مختلفة في إيصالها إلى النّاس منها:

. التبيين والتفصيل في الآية وإظهار الجزئيات وهذا ما نلاحظه في آيات الأحكام والعبادات والفرائض.

. ذكر القضية مجملة في بعض الآيات دون تفصيل مثل الآيات التي تتعلق بالعقائد والغيبيات.

. الإخبار والقصص في بعض الآيات التي لا تفصّل كثيرا في القضية، ويكون ذلك لأسباب منها:

أحدهما: أن ما ذكر في الآية قد استوفى الغاية من إيرادها.

الثاني: فسح المجال للذهن من أجل إعمال العقل وصولا إلى استنتاج العبرة. والعبرة المستنتجة لا يمكن أن تكون واحدة لدى المفكرين، مع أنّ استنتاج العبر المختلفة لا يخرج عن حيّز القضية التي ضربّها الله مثلا.

النبذ إعجازي واقعي:

لقد قضت حكمة الله سبحانه وتعالى نبذ يونس صلّى الله عليه وسلّم في هذه الأرض العراء لأسباب إعجازية وأسباب واقعية.

فمن الأسباب الإعجازية نقف عليها آية من خلق الله تعالى من خلو هذه العراء من أي نوع من أنواع النبات أو الأشجار، أي أنّ هذه العراء قاحلة تماما بحيث لا تساعد على نمو أي نوع من أنواع النجم أو الشجر، لأنّ النبات يحتاج إلى عناصر أساسية منها: التربّة الصالحة والماء والهواء، فلما كانت التربّة غير صالحة والماء غير متوفر انعدمت حياة النبات فيها على الإطلاق حتى للأنواع التي لها قدرة كبيرة على مقاومة الجفاف والحر في ظروف صحراوية قاسية، ولما كان نبات اليقطين (نجم كما هو معلوم لنا) أو (شجر كما ذكره الله تعالى) من أضعف أنواع النبات على مقاومة الظروف البيئية التي أنبتها الله بها على يونس صلّى الله عليه وسلّم فهنا يتبدّى الوجه الإعجازي حيث تعطلت القوانين الطبيعية كيميائية كانت أم فيزيائية وتحول إنبات اليقطين في هذه البيئة إلى أمر خارج عن المألوف خارق للعادة. ولذا كانت شجرة اليقطين آية من آيات الله تعالى.

ومن جهة ثانية فإنّ هذه العراء يمكن أن تكون ـ وهذا حالها ـ مشفى متخصص بعلاج الأمراض الجلدية.

ولسائل أن يقول: كيف تكون هذه العراء مشفى مختص بعلاج الأمراض الجلدية؟

نقول: إنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم في لبثه في بطن الحوت بالمدة التي لبثها، طالت تلك المدة أم قصرت على الوجه الذي توصلنا إليه من الحكم على مدة اللبث، في المكان الذي لبث فيه، فإنه ترتب على لبثه سقم أصابه بما وصفه به الله تعالى.

وهذا السقم كان له أسباب كثيرة منها:

. التقام الحوت له.

. دخوله في الظلمات التي حجبت عنه الضوء والنور.

. انقطاعه عن الطعام والشراب.

. المعاناة في المحيط الذي لبث فيه من حركة الحوت وابتلاعه كميات كبيرة من الماء أثناء الطعام والتنفس.

وقبل ذلك كله عندما كان في بطن الحوت فقد انشغل بذكر ربّه أكثر من انشغاله بنفسه.

وهذا الانقطاع عن الحياة الطبيعية للبشر، والمعاناة البدنية التي عاشها مدة اللبث، أدت إلى إصابته بالسقم الذي وصفه به الله تعالى من الحالة التي أصبح عليها.

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد اصطفى يونس واجتباه مثله مثل الأنبياء والمرسلين، فمعنى ذلك أنه ميّزه عن بقية خلقه، وهذه الميزة كانت أحد الأسباب الطبيعية في أن ينبذه الحوت في تلك العراء بعيدا عن أعين البشر حتى لا يظهرون على ضعفه وسقمه، لأن أنبياء الله تعالى عندما اصطفاهم لرسالاته، لا شك أنهم أشد خلق الله في أمر الله من حيث العزيمة والحزم في الجانب النفسي، ومن حيث القدرة والتحمل في الجانب البدني، ولما كان يونس سقيما، أراد الله تعالى أن يستر ضعفه والوهن الذي

أصابه فلا يطلع عليه أحد، لأنه من الممكن في أمر الله تعالى لولا مشيئته أن ينبذه الحوت في مدينة أو قرية آهلة، ولو حصل ذلك لاطّلع النّاس على حال يونس وهو سقيم، وهو ما لا يرضاه الله تعالى لأنبيائه، لأن التقام الحوت له إن كان نوعا من العقوبة أو العتاب، فقد حصل ذلك بينه وبين ربّه جلّ وعلا، وبقيت مكانة يونس في أعين النّاس أو في أعين قومه، ذلك الرجل الشديد في أمر الله والحريص على دعوتهم إلى طريق الهدى، والمثابر على الأخذ بأيديهم إلى سبيل النجاة، فهذا الوجه الأول من الحكمة الإلهية لنبذ يونس في العراء فكانت هذه العراء سترا له.

وأمّا الوجه الآخر من حكمة الله تعالى، فهو متمم للوجه الأول في البعد عن البشر لأنّه دخل مرحلة نقاهة من الاستشفاء في مكان مخصص للسقم الذي أصابه. فهذه العراء ليس فيها أي نوع من أنواع النبات غير ما أنبت الله تعالى شجرة من يقطين، وسنأتي عليها عندما نتكلم عن الشجر.

إنّ العقل والمنطق يقول إن يونس صلّى الله عليه وسلّم عندما نبذه الحوت لابدّ أنّ جسمه واهن من مدة اللبث في مكان واحد محظور فيه عليه الحركة، وهذا يؤدّي إلى وهن عظيم يحتاج إلى مدة من الراحة والحركة البطيئة المتنامية وصولا إلى الوضع الطبيعي لجسم الإنسان.

ثمّ إنّ انقطاعه عن الحياة الطبيعية وحجب الضياء والنور والهواء عنه في الظلمات التي كان فيها، لابدّ أن ذلك أدى إلى تقشر في الجلد وقروح في الجسم، وهذا التقشر والقروح تحتاج إلى علاج في بيئة تناسب حالته في الاستشفاء.

إنّ التقرح وتقشر الجلد كان نتيجة البيئة التي لبث فيها وهي بطن الحوت، حيث الرطوبة العالية من جانب وانعدام الضوء والهواء من جانب

آخر جعل يونس صلّى الله عليه وسلّم واهنا ضعيفا، نعتقد أن مواضع كثيرة من جسمه قد تأثرت وخاصة أنه في مكان لا يستطيع الإنسان أن يعيش به، ويكفي بذلك معجزة.

إنّ أوّل علاج يكون مدعاة شفاء هذه الحالات وأمثالها هو تعرض الجسم لنور الشمس وإلى هواء نقي، ذلك أن نور الشمس يكسب الجلد السلامة التي يحتاجها، والهواء يجفف ما يطرحه الجسم من سوائل تلك القروح، وهنا تظهر الحكمة البالغة من نبذه بالعراء مرة أخرى، إذ لو لم تكن هذه الأرض عراءً، وكان فيها أشجار ونباتات، لحمل الهواء الذي كان يلف جسم يونس ويجففه حبات الطلع من أزهار تلك الأشجار والنباتات، ما يمكن أن يؤدّي إلى مضاعفات من وأسقام، فمن تمام الحكمة الإلهية واستكمالا لشفاء يونس، أنه ليس هناك حبوب طلع في هذه العراء إلا حبوب شجرة العلاج التي أنبتها الله عليه، فإذا أراد يونس صلّى الله عليه وسلّم نور الشمس وضوؤها الذين يحتاجهما خرج من ظل تلك الشجرة إلى هذا الفضاء الرحب من العراء وهو آمن من الجراثيم أو ما تسببه حبوب الطلع واللقاح من حساسية لجلد هش، وإذا اكتفى من النور وأخذ حاجته أوى إلى ظل شجرة العلاج التي تنفعه ولا تضره، وهذا على ما نعتقد أبعاد العبرة من حكمة الله تعالى في نبذه في العراء وهو سقيم فكانت العراء بشجرة اليقطين وحدها دون غيرها، مشفى مختص بما أصاب يونس من سقم.

شجرة من يقطين:

قال تعالى: {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}601.

601 - الصافات 146.

من المعلوم المشاهد والواقع المعاش والخبرة والتجاربّ وما أخبر به من سبقنا وما وقفنا عليه من معلومات من علماء النبات أن اليقطين نجم وليس شجر، مع العلم أن النجم والشجر من النبات، فالنجم ما لا ساق له وهو ما التصق بالأرض أو تمدد عليها، وأمّا الشجر فهو ما قام على ساق وارتفع عن الأرض قال تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}[602].

ومع أنَّ اليقطين من نبات النجم، فقد ذكر الله تعالى هذه النبتة التي أنبتها على يونس صلّى الله عليه وسلّم أنه (شجرة من يقطين) وهنا وجب علينا النظر والتدقيق والمقارنة بين ما لدينا من معرفة عن اليقطين، وبين الآية التي نصت على أنه شجر، وطالما ورد ذكرها على أنها شجرة، فلا مجال للاجتهاد والبحث من أجل إخراجها من شجرة إلى نجم، حيث لا اجتهاد بوجود النصّ ووضوحه.

وعليه: فإنّ جملة (شجرة من يقطين) جملة كاملة يفهم منها المتلقي معنىً معيّنا، غير أننا إذا جزأنا هذه الجملة إلى كلمات، كل كلمة على حدة، سوف نقف على دلالات ربّما لم يقف عليها المتلقي.

ولتقريب تفصيل المعاني التي يمكن أن تفهم، يجب أن نبين معنى (من) التي تحتمل أربّعة عشر معنى في سياق الكلام بدلالة القرائن وعلاقتها بسابقتها ولاحقّتها ذلك أن:

(شجرة من) لها معنى مخصوص بعلاقتها بالشجرة.

(من يقطين) تعطي معنى آخر من علاقتها باليقطين.

ولذا، نقول:

شجرة من:

---

[602] – الرحمن 6.

هي شجرة من بعض أنواع الشجر الذي ينبته الله تعالى وقد بيّنت النوع.

(من) في هذا السياق حملت أكثر من معنى، فهي تبعيضية مع الشجرة، جنسية مع اليقطين.

من يقطين:

أبانت جنس هذا النبات من الشجر الذي ينتمي إلى فصيلة اليقطين.

ونعتقد أن النظم القرآني مراعاة للمعنى المألوف من اليقطين على أنه نجم، جاء النظم بهذا السياق مقصودا لذاته لإزالة هذا الفهم المألوف من المعنى، فحسم بذلك قصد المعنى وحوله من النجم إلى الشجر فجاءت (من) تحمل معنيين التبعيض على النوع والجنسية على فصيلة النبات.

وقد خص الله تعالى يونس صلّى الله عليه وسلّم بيقطينة تمييزا لأسباب منها:

الأوّل: وجه تكريمي.

الثاني: وجه إعجازي.

الوجه التكريمي:

إنّ الله سبحانه وتعالى ما ذكر شجرة من أشجار الدنيا في القرآن الكريم إلا بخير، ويجب أن يكون كذلك لأن الله تعالى ما كان ليذم شجرة من أشجار الدنيا وسبق قوله تعالى في علمه: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ

شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}603.

فقد ضربّ المثل بأن لو كل شجرة من أشجار الأرض أقلام والبحار الموجودة يمدها سبعة أبحر وهذه الأقلام تكتب ما يأمر به الله لما نفدت كلماته تعالى، فبعد أن ذكر شجر الدنيا وخصها بكتابة كلماته ما كان الله تعالى ليذكر شجر الدنيا إلا بخير.

فقد وحد الشجرة على أنه جنس استغراقي بمعنى ما من شجرة إلا وهي أقلام، وجمع الأقلام، لأنّ أقلاما كثيرة تخرج من الشجرة الواحدة وهذا دلالة على تكثير الشجر وتكثير الأقلام على حدٍّ سواء.

ولذا: لم يقل ولو أنّ ما في الأرض من الأشجار أقلام.

ولم يقل ولو أنّ ما في الأرض من شجرة قلم.

وبهذا فقد أبان أنّ الأقلام الموجودة أكثر من الأشجار وخصها بكتابة كلماته والقلم من أشرف ما خلق الله تعالى، ولذا أقسم الله تعالى بالقلم الذي هو مصدره وأصله الأساس من الشجر فهذا أرفع تكريم من الله تعالى لشجر الدنيا.

ولقائل إنّ يقول: إنّ الله تعالى ذكر الشجرة الخبيثة في قوله تعالى: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}604.

---

603 - لقمان 27.

604 - إبراهيم 26.

إنّ هذه الشجرة أوقع عليها الفعل الماضي المتحقّق (اجتثت) للدلالة على القطعية باجتثاثها من فوق الأرض فما لها من وجود حتى لا تدخل في زمرة الأقلام.

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يقربّ لنا معنى نور السماوات والأرض، اختزل لنا صورة يستوعبها العقل البشري ممّا هو مألوف في تفكيره بأفضل مصدر لأنواع الإنارة فضربّ شجرة الزيتون مثلا لذلك حيث قال تعالى: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ}605.

فهي شجرة مباركة زيتونة من الأشجار التي نعرفها، ولكن هذه شجرة خاصة لا هي شرقية ولا هي غربّية لنفي الأوصاف عنها وتقريب الصورة إلى الذهن، فكانت الشجرة مضربّ مثل لاستيعاب معنى أن الله نور السماوات والأرض، وهذا تكريم عظيم للشجرة من الله تعالى، ولهاتين الآيتين ما نجد في القرآن الكريم شجرة من شجر الدنيا إلا وخصها الله بخير أو منفعة مادية أو معنوية ولم يذكر شجر الدنيا بسوء على الإطلاق.

فكان شجر الدنيا للبركة والظل والدفء والنفع ولمقاصد إلهية لا نعلم منها إلا قليل.

ففي ندائه لموسى صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى: {فَلما أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ}606.

605 – النور 35.

606 – القصص 30.

فكان النداء عند الشجرة في البقعة المباركة، فإذا علمنا أن (من) هنا تفيد ابتداء الغاية فإن الشجرة سمعت ذلك النداء، أو لنقل كانت ضمن حيز النداء من بدايته.

وكذلك فإنّ الشجرة قد نالت الرضا من الله تعالى لما رضي عن المؤمنين المبايعين تحتها لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}607.

وقد ذكر الله تعالى الشجر بالنفع والفائدة في مواطن كثيرة منها:

قال تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ}608.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}609.

وقال تعالى: {وَأَوْحَى ربّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَممّا يَعْرِشُونَ}610.

وقال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ}611.

وأمّا تكريمه تعالى للشجر فقد ورد في أكثر من آية عندما خصّه بالسجود لجلال الله تعالى وما استثنى من الشجر شيئا إلا ويسجد له:

---

[607] – الفتح 18.

[608] – المؤمنون 20.

[609] – النحل 10.

[610] – النحل 68.

[611] – يس 80.

قال تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}612.

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاس}613.

فالشجر يسجد لله دون استثناء، ولكن كثير من النّاس يسجد، وكثير منهم لا يسجد مع أنه مكلّف بالسجود ومأمور به.

ومن أجل هذا كان تكريم يونس صلّى الله عليه وسلّم بالشجرة وكان تكريم الشجرة بيونس، فكانت يقطينته شجرة وليست نجمة، فما يليق بالكريم إلا الكريم.

الوجه الإعجازي:

من المعلوم أن نبات اليقطين المعروف لنا، هو نبات واهن ضعيف لا يقوى على مقاومة الظروف الجوية القاسية من حرّ الشمس والجفاف والعطش، ذلك انه نبات ينمو في بيئة معتدلة تميل إلى البرودة أكثر ما تميل إلى الحر، ولاسيما أنّ اليقطين من نباتات البساتين التي يكثر فيها الظل والماء الذي يساعد هذا النوع من النبات على الحياة، وليس من نبات الصحراء والعراء، ومع أنَّ العراء التي نُبذ فيها يونس صلّى الله عليه وسلّم كما أشرنا سابقا، وكما بيّناه في معنى العراء، أن هذه الأرض ليس فيها أي نوع من أنواع النجم أو الشجر، حيث نجد نباتات الصحراء والعراء وأشجارها على العكس من شجرة اليقطين، ذلك أنها تستطيع أن تقاوم الظروف البيئية والمناخية وتصمد أمام موجات الجفاف والحر لأن بعضها لا تحتاج إلى كثير من الماء، والبعض الآخر يختزن حاجته في أوراقه مثل

612 - الرحمن 6.

613 - الحج 18.

الأنواع الكثيرة من الصبار والشوكيات، وكذلك أشجار الصحراء مثل السرح والطلح والعضاة التي ربّما يمر عليها سنين دون أن يصيبها ماء فتصمد وتبقى على الحياة.

إنّ شجر اليقطين تكون أوراقه رقيقة وعيدانه ضعيفة وجذوره سطحية وفصيلته بشكل عام ليس لديها القدرة على النمو والحياة في ظل البيئة التي نُبذ بها يونس صلّى الله عليه وسلّم. وأمّا اليقطينة اليونسية؛ فهي غير ذلك، فهي شجرة وآية من آيات الله.

فأوراقه الرقيقة لا تستطيع أن تحتفظ بكميات كبيرة من الماء، وقد ترى بعض أوراق اليقطين عند النظر فيها تشاهد من خلالها ما وراءها أو ما الأشياء التي تظلها تلك الأوراق من رقتها ودقتها قياسا على النباتات الأخرى، لأن نبات البيئة التي نبتت فيها شجرة اليقطين، إن كانت موطنا للنبات فهي موطن النباتات الصحراوية التي تحتفظ بالماء لمدة طويلة، أو تطلبه بجذورها العميقة لتسعف نفسها بها عند الحاجة في أوقات القيظ والجفاف والعطش.

وأمّا عيدانها فهي اسطوانية مفرغة لا تتمتع بالصفات الخلقية للنباتات الأخرى التي تتكون عيدانها من القشرة واللحاء والألياف، في هذه الطبقات التي بعضها فوق بعض يساعدها على الاحتفاظ بالماء ويمنعه من التبخر لاستدعائه عند الحاجة.

وأمّا عيدان اليقطين فنَصِفها لمن لم يرْها ونعرّفها لمن لم يعرْفها، فهي عيدان اسطوانية الشكل دقيقة رقيقة، مفرغة من الداخل، ومخددة من الخارج، نرى هذه الأخاديد بالعين المجردة ونتحسسها باللمس، ثمّ أنّه يكسو هذه العيدان زغب أشبه ما يكون برؤوس الإبر يتراوح طوله ما بين مليمتر واحد إلى ثلاثة مليمترات.

فهنا يكمن ضعفها ووهنها:

. فهي لما كانت مفرغة من الداخل فهذا الفراغ حلّ محله الهواء.

. ولما كانت محددة كانت بنيتها أضعف من غيرها وتأثير الهواء عليها أكبر بوجود هذه الأخاديد.

. الزغب الذي يكسو عيدانها لا يسمح للهواء أن ينزلق عنها بسهولة لأنّه يتعرض إلى انكسارات شديدة عندما يصطدم بها.

إنّ هذه الصفات الخلقية لشجرة اليقطين تجعلها عرضة لتبخر مائها أكثر من أي نبات آخر، ولا تحتفظ أوراقه وعيدانه بالماء إلا ريثما يأخذ حاجته منها.

وكذلك فإنّ جذور نبات اليقطين فإنها سطحية قريبة لا تمتد عميقا في الأرض، لأنها تعتمد على الري المستمر المتواصل، وعلى ذلك فإن هذه الجذور ضعيفا بشكل يناسب أرواق النبتة وعيدانها.

اليقطينة:

إنّ الوجه الإعجازي في شجرة اليقطين أنها نبتت في موطن وبيئة أقل ما يقال فيها أنها خالية من النبات حتى تلك التي لها قدرة كبيرة على مقاومة العطش والجفاف، حيث أن هذه العراء لم يكن فيها من النبات غير شجرة من يقطين أنبتها الله تعالى على يونس صلّى الله عليه وسلّم، ولو لم تكن هذه الشجرة آية معجزة لما خصها الله تعالى بإضافة (يقطين إلى شجرة) توسطهما الحرف (من) على ما بيّناه، ولو كان القصد غير الإعجاز

. لما كانت تنبت في العراء.

. ما كانت يقطينة شجرة.

. ما كانت مرتبطة بيونس النبي المرسل.

ونحن لا نعتقد ما ذهب إليه كثير ممن عرّج على هذه القضية بأن كل ما له أغصان وعيدان فالعربّ تسميه شجرا، وعلى هذا فالشجر لا يختص بما له ساق دون غيره من النبات، إذ لو كان الأمر كذلك لقال:

. وأنبتنا عليه يقطين.

. أو وأنبتنا عليه من اليقطين.

فهذا القول يسد ثغرة المعنى ويكفيه، لأنّه يصرف الذهن إلى جنس اليقطين المعروف لدى النّاس وإن تعددت أنواعه وكثرت، ولكن هذا القول لو جاء فهو يغني المعنى الذي فهمه هؤلاء البعض، ولكن عندما أفرد الشجرة وجاء (بمن) التبعيضية مع الشجر، والجنسية مع جمع اليقطين، فإنّ المعاني الأخرى التي تنتج عن تركيب الآية في سياقها الذي جاءت به لم يعرّج عليه هؤلاء.

ونحن لا نخالف من يقول إنّ كلّ نبات يمتد وينبسط على وجه الأرض، ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين، هذا إذا لم تذكر الشجرة فهو من المسلمات، ولكن الله تعالى عندما أراد أن يخرجها عن المألوف إلى الإعجاز جعلها شجرة بمشيئته، ثمّ إن الذي يقول بهذا الرأي، قد غاب عنه أن هذه الأنواع لا تنبت في الموطن التي نبتت فيه شجرة من يقطين، وهذا يخرجها من فصيلتها إلى فصيلة أخرى تدخل ضمن أنواع الشجر.

ولذا، يجب أن لا يكون هناك مقارنة بين يقطينة يونس صلّى الله عليه وسلّم وبين اليقطينة المعروفة إلا من باب الإعجاز، ذلك أن يقطينة يونس هي معجزة نبي، وبقية اليقطين هو ممّا رزقه الله تعالى للناس، وعليه تنتفي المقارنة والمقابلة، لأن هذا النوع من المقارنة والمقابلة سيدخل الباحث

في متاهات عقدية هو في غنى عنها، والذي ينحو هذا النحو سيقف حائرا لا يحرى جوابا عندما يقف أمام أشجار أخرى مضروبة مثلا أو عبرة أو معجزة في القرآن الكريم ممّا اختص الله تعالى به الأنبياء مثل الشجرة التي نهى آدم صلّى الله عليه وسلّم عن القربّ منها حيث قال تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْربَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}614.

فبأي شجرة يمكن أن تقارن هذه الشجرة التي نُهِيَ آدم صلّى الله عليه وسلّم عنها. وقوله تعالى للصدّيقة مريم بنت عمران عليها السلام: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}615.

فهل تستطيع امرأة، أي امرأة وهي في حالة النفاس من الوضع والولادة أن تهز نخلة ليتساقط عليها من رطبها وثمارها، كما فعلت مريم عليها السلام وهزت بجذع النخلة، فلو هزّته من نفسها لما استطاعت فعل شيء، ولما لما أمرها الله تعالى بذلك وهو خارج قدرتها واستطاعتها، فخرج ذلك الفعل من الطبيعي إلى الإعجازي. وهنا تظهر المعجزة.

ثمّ أعظم من ذلك إذا وقفنا على قوله تعالى: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}616.

فبأيّ شجرة يمكن أن تُشبّه هذه الشجرة أو تقارن بها، وهي تنبت في أصل الجحيم مع أنها شجرة، فهي تُخرج من ثمرها طعام الأثيم، ولا تستطيع نار الجحيم أن تأكلها.

614 – الأعراف 19.

615 – مريم 25.

616 – الصافات 62- 65.

ولذا، نقول هذه أشجار مخصوصة هي معجزة وآية من آيات الله تعالى، وهكذا كانت الشجرة من يقطين أنبتها الله تعالى على يونس صلّى الله عليه وسلّم للوجه الإعجازي في خلق الله تعالى، وليس لمجال المقارنة والتشبيه والمقابلة بأشجار أخرى أو نبات آخر.

ثُمّ أنّ الوجه الإعجازي لليقطينة اليونسية أنها شجرة أنبتت إنباتا، ولم تمرّ في مراحل البَذْر والشتل والغرس، لأنّه من المعلوم أن النبات يستغرق زمنا ليتحول إلى مستوى شجرة، ولكن الله تعالى أرادها معجزة، وهو قادر على أن ينبذه تحت شجرة مباشرة (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ). ولكن الله تعالى أراد أن تكون شجرة اليقطين معجزة مخصوصة من معجزات الله تعالى ليونس صلّى الله عليه وسلّم، فكان الإنبات شجرة مباشرة دون استغراق للزمن.

اليقطين:

ينتمي اليقطين إلى فصيلة النباتات العشبية الزاحفة التي تتمدد على الأرض وتفترشها، وبعضها له القدرة على التسلق بما يمتلك من حلقات ملتوية تثبت النبات عند التسلق وتخرج من جوانب أعناق الأوراق، وهي ذات عيدان عشبية وتمتاز بالأوراق الكبيرة، وهذه الأوراق مفصصة مقصصة لها أعناق طويلة، وتمتاز بالوبر الكثيف الذي يغطي العيدان والأوراق. هذه النباتات تنتمي إلى عائلة واحدة تعرف باسم العائلة اليقطينية أو القرعية، وتعرف باسم اليقطينيات أو القرعيات، وتضم أنواعا كثيرة كلها تتمدد على الأرض.

فلما كانت فصيلة اليقطينيات من النباتات العشبية، فإن وصفها بالشجر خارج عن المألوف المعروف، لأنّه من المتعارف عليه أنّ الأشجار لها سيقان خشبية قوية قائمة بذاتها، منتصبة في الفضاء، وأمّا اليقطينيات فسيقانها أو أعوادها على ما وصفناها أنها هيّنة ليّنة طرية، لا تقوم بذاتها

ولا تنتصب مثل الشجر، ولذا فإن الشجرة التي أنبتها الله تعالى على يونس صلّى الله عليه وسلّم، كانت شجرة خاصة تجمع بين صفات اليقطينيات وصفات الشجر.

فإن كان في المنظور العلمي وجود عامل ما، يمنع اليقطينيات من إمكانية الوجود على هيئة شجر، فهذا لا يمنعها ضمن دائرة الممكن غير المتوقّع، على الرغم من ضخامة ثمارها.

ولكن من المسلّم به لدينا أن (شجرة من يقطين) التي أنبتها الله تعالى على يونس صلّى الله عليه وسلّم ليستظلل بها، ويستتر بأوراقها الكبيرة، ويتداوى من سقمه بما في أوراقها وأزهارها وثمارها وأغصانها وسيقانها وعصائرها وما تحتوي من عناصر غذائية ودوائية هي شجرة معجزة من يقطين، أنبتها بأمره (وأنبتنا عليه).

ولما جاء قوله تعالى (شجرة من يقطين) فإن ذلك يوحي إلى جنس اليقطين من جانب، ويخرجه من الشجر في معرفتنا وإدراكنا من جانب آخر.

ولما كانت شجرة من يقطين وليست من زيتون أو ليمون، فإن اليقطين له خصوصية في الحال التي نُبذ بها يونس صلّى الله عليه وسلّم على ما أشرنا إليه من علاج.

وهنا يبرز التساؤل المنطقي: ماذا في اليقطينيات من علاج للحالات المماثلة للحالة التي مرّ بها يونس صلّى الله عليه وسلّم بعد أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم؟

وهنا لابدّ أن تكون الإجابة علمية دقيقة مصدرها من المتخصصين في هذا النوع من علماء النبات، ولذا استعنّا بنصٍ علمي بحت للاستشهاد ممّا نشره الدكتور زغلول النجار في مقال جاء فيه: "وقد حاول الأخ الكريم

الدكتور كمال فضل الخليفة (الأستاذ المشارك لعلم النبات بجامعة الخرطوم) الإجابة عن هذا السؤال في رسالتين جامعيتين تمتا تحت إشرافه للحصول علي درجة الماجستير في العلوم، وأعد موجزا عن نتائجهما في مقال بعنوان: اليقطينيات وقاية وعلاج وغذاء، نشره في العدد الرابع عشر من مجلة الإعجاز العلمي الصادر بتاريخ الأوّل من ذي القعدة سنة 1423 هـ.

وفي هذا المقال ذكر الباحث أنّه اختار أربّعا من اليقطينيات المشهورة في البلاد العربّية وهي: قرع الأواني، والقرع العسلي، والعجور، والحنظل، وقام بزراعتها وتعهدها حتى أثمرت وجني ثمارها، وفي هذه المراحل المختلفة قام بتحضير مستخلصات من مختلف أجزاء هذه النباتات الأربّع مستخدما كلا من الماء والكحول الميثانولي والكلوروفورم في كل حالة، وتم له اختبار تلك المستخلصات ضد أربّعة أنواع مختلفة من البكتيريا فأظهرت جميعها فعالية واضحة في مقاومتها مع اختلاف درجة تلك المقاومة باختلاف نوع النبات، واختلاف الأجزاء المختارة منه، والسائل المستخدم في عملية تجهيز المستخلصات ونوع البكتريا، وكانت أعلى درجات المقاومة من المستخلصات المستمدة من الزهور بصفة عامة، ومن زهور وثمار الحنظل بصفة خاصة، ثم من أوراق القرع العسلي، وكان الكحول الميثانولي أفضل سوائل الاستخلاص. كذلك أثبت الباحث الأثر الواضح لليقطينيات الأربّع قيد الدراسة في مقاومة وطرد بعض الحشرات من مثل الذبابة المنزلية، وآفات المخازن، وفي الوقاية من الأمراض التي يمكن لهذه الحشرات أن تنقلها.

وقد ثبت أن هذه المقدرة على مقاومة الحشرات مردها إلي وجود العديد من المركبات الكيميائية المهمة التي لها تأثير وقائي وطبي واضح في مقاومة وعلاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرحاتها والأمراض التي

يمكن أن تنتج عن ذلك وقد ثبت بالفعل أن هذه المركبات الكيميائية لها تأثيراتها الفاعلة في علاج عدد من أمراض الجهازين الهضمي والبولي، وفي مقاومة بعض الأمراض السرطانية"617.

هذا من الجانب العلاجي، أضف إلى ذلك القيمة الغذائية العالية لثمار اليقطينيات التي تؤكل، والقيمة الطبية للثمار التي لا تؤكل مثل ثمار الحنظل.

وهنا نقف من جديد على الحكمة الإلهية التي أنبتت شجرة من يقطين على يونس صلّى الله عليه وسلّم دون غيرها من الأشجار على كثرتها وتنوعها، وإنبات شجرة اليقطين على يونس صلّى الله عليه وسلّم في الحالة التي كان عليها حين النبذ جعلت الباحثين والعلماء يربّطون بين نوع الشجرة وبين السقم الذي أصاب يونس صلّى الله عليه وسلّم وإنبات تلك الشجرة من أجله، وهنا نعود مرة أخرى لنذكّر أن الله سبحانه وتعالى ترك في بعض الآيات المجال مفتوحا للإعمال العقل من أجل الوقوف على الحكمة الإلهية فيها ومن ثَمّ استخلاص العبرة في الوقوف على الدواء الذي يعالج حالات كالتي مرّ بها يونس صلّى الله عليه وسلّم.

ومن الالتفات اللطيف في المناسبة بين شجرة اليقطين والقاطن الذي هو يونس صلّى الله عليه وسلّم حيث قطن تحتها وأقام، فأصبح مكان شجرة اليقطين مقطنا له فقد جاء في لسان العربّ: "القطون الإقامة قطن بالمكان يقطن قطونا أقام به وتوطن فهو قاطن وقال العجاج:

وربّ هذا البلد المحرّمِ

والقاطنات البيت غير الريّمِ

---

617 - د. زغلول النجار، مقالات 2003، ج 19، ص 16.

قواطنا مكة من ورق الحـمي

والقطان المقيمون والقطين جماعة القطان اسم للجمع وكذلك القاطنة وقيل القطين الساكن في الدار والجمع قطن عن كراع والقطين المقيمون في الموضع لا يكادون يبرحونه والقطين السكان في الدار ومجاورو مكة قطانها، وفي حديث الإفاضة نحن قطين الله أي سكان حرمه والقطين جمع قاطن كالقطان،"

وعلى هذا فإن يونس صلّى الله عليه وسلّم كان قاطنا في مقطن أظلته شجرة من يقطين، فكان ذلك المكان مقام نزوله وإقامته، فهو قطين شجرة من يقطين.

النبي

يونس من السنّة

يونس عليه الصّلاة والسّلام نبيا لقوم محدّدين يسكنون مدينة نينوى بالموصل العراقية، وسمي يونس ابن مَتَّى بِذِ النُّونْ (الحوت) أو صاحب الحوت، وعدد الشعب الذي أرسل إليهم نبي الله يونس ابن متّى يزيدون عن مائة ألف، وجميعهم كافرون كونهم يعبدون ما يعبد من دون الله.

حاول النبي يونس عليه السّلام ما استطاع إليه سبيلا أن يدعوهم إلى التوحيد وترك ما يعبدون من أصنام شركا بالله تعالى، ولكنّ قد صعب الأمر عليه؛ فلم يؤمن معه أحد منهم؛ وهكذا كانت العصبية على الكفر؛ فهم قوم تعصّبوا جميعا على أن لا يؤمنوا بماء يهدي إليه ذو النون عليه السّلام. وهذا الأمر استغضب النبي المكلّف بالتبشير والدّعوة؛ فغضب منهم جميعا كونهم جميعا لم يؤمنوا؛ ومع ذلك أعطاهم الفرصة ثلاثة أيّام، وهو كما يراها للضرورة إنذار؛ فكان الإنذار ثلاثة (أيّام الإيمان أو العذاب الشديد) من الشديد الأعظم جلّ جلاله.

تركهم وقرّر الهجرة بدينه لعلّه يجد قوم يؤمنون بالحقّ الذي بأسباب التمسّك به غضب يونس بمن لم يأخذ به؛ فتوجّه إلى البحر مهاجرا لِيُبلغ دين الله عزّ وجلّ أينما وجد في المعمورة من يستمع إليه ويأخذ بما أنبأه الله به.

ولأنّ يونس شديد الحرص على أن يؤمن القوم، يبدو كما قيل أنّه قد استعجل شيء ما؛ فذهب إلى البحر، وركب الفلك مع الرّاكبين الذين امتلأت السّفينة بهم؛ ثمّ انطلقت السّفينة الممتلئة ركّابا، ولكن لسوء الحظ أظلمت والأمواج تكاد أن تغرقهم والحيثان تحوطهم بين الحين والآخر،

فكان الخوف يملأ الأنفس، فاقترح الجميع أن يتمّ التخفيف عن السّفينة لتنجو بمن كتب الله لهم النجاة، وحتى لا تكون المظلمة بينهم؛ فقد اتفقوا على إجراء القرعة؛ ومن جاءت عليه لابدّ أن يقفز من الفلك في البحر. ولكن كما يقولون: كلما أجريت القرعة جاءت على صاحب الحوت (يونس) عليه السّلام؛ فقز، ولكن رعاية الله وحفظه التقمته حوتة قبل أن يسقط في الماء.

وهناك في بطن الحوت بقي يونس وكأنّه قد ركب قاربًا لوحده؛ فكانت السرعة به منطلقة حتى اليابسة حيث النجاة، وهناك في اليابسة أيضا كانت رعاية الله وحفظه ليونس عليه الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}618.

وبالرّغم من كلّ ما جرى مع يونس عليه السّلام فهو رسول ولابدّ للرّسول أن يتمّ رسالته؛ فذلك الإنذار الذي وجّهه يونس لأهل نينوى جعلهم على الخوف والقلق، خوفا من عذاب الله وشدّة العقاب؛ ولهذا ندم الجميع وأعلنوا في أنفسهم وبين بعضهم أنّهم قد تهيؤا للإيمان بما جاء به النبي يونس الذي ذهب عنهم مغاضبا منهم. وأنّهم يتعذّرون عمّا جرى منهم مع ذلك النبين العظيم الذي لا يدعوهم إلّا لخير وحقّ.

الله تعالى يعلم بحالهم وما هم عليه، ويعلم بحال يونس وما هو عليه من ضعف حال، ولهذا كان أمر الله نافذا في نجاة النبي المرسل، وكذلك في

---

618 الصافات 139 . 138.

أهل نينوى الذين اعلنوا الاستعداد للأخذ بما جاءهم به يونس وإن سبق لهم السخرية منه وإنكار ما جاءهم به ودعام إليه.

قال ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: "فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحقّقوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان من نبيهم فكشف الله العظيم بحوله وقوّته ورأفته ورحمته عنهم العذاب"[619]؛ وهنا جاء قوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[620]، سبحان الله القرية كاملة كفرت، والقرية كاملة جحدت، والقرية كاملة أغضبت يونس عليه السّلام، والقرية كاملة استغفرت ثمّ أمنت. {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}[621]. إلّا قوم يونس لما أمنوا أمنوا جميعا وبلا استثناء، ولهذا جاء الاستثناء هنا إلّا قوم يونس، أي: ثمّ استثناء قوم يونس من كلّ الأقوام التي لم تؤمن كلّها كما أمن قوم يونس كلّهم.

تسبيح يونس:

يونس نبي الله ورسوله لقومه، مع كلّ ما وجّه له من سخرية واستهزاء من قومه؛ فلم يغضب، ولكنّه غضب من عدم إيمانهم بأنّ الله واحد أحد لا شريك له سبحانه جلّ جلاله.

وهنا غضب يونس لدينه ولم يغضب لنفسه، ولما غضب واتخذ قراره مهاجرا وراكبا البحر، لا لشيء إلّا لعلّه يجد قوم آخرين يؤمنوا بما أرسله الله به، وهنا أقول: غضب يونس كان بين أمرين اثنين:

---

[619] مختصر التحفة الاثني عشرية، 1، ص 107.

[620] يونس 98.

[621] سبأ 34.

الأمر الأوّل: أنّ غضب يونس في مكانه لأنّه لم يكن غضب متعلّق بخصوصيّة يونس، بل من أجل الدين وتوحيد الله تعالى، وهذا من حقّه.

الأمر الثاني: أن يهاجر يونس ليبحث عن قوم آخرين؛ فهنا تكمن العلّة وهي أنّ يونس يعرف أنّه قد أرسل إلى قوم نينوى، فكان لا وجوب للبحث عن قوم لم يبعث لهم.

قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[622].

يفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أنّ يونس عليه السّلام قد أدرك أنّه لا منقذ له من الغرق ومن الخروج من بطن الحوت إلّا الله الذي أرسله ليدعو قومه إلى توحيده وعدم الشّرك به، ولهذا ألهمه الله إلى ما ينقذه وهو: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) أي أدرك يونس أنّ التسبيح بوحدانية الله تعالى هو دعاء الله بكلّ صفاته. ذلك لأنّ اسم الله هو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر على صفة أو خاصية واحدة، بل هو الذي تتعدّد فيه الصّفات التي يتضمّنها ويحتويها في أسمائه الحسنى، والتي إن نعدّها لا نحصيها، {وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تُحصُوها}[623] وهذا لا يعني أنّ نعمة الله غير محصية، بل تعني أن قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدّها، مع أنّ الله أحصى كلّ شيء وعدّه عدَّ {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}[624].

إذن بالنسبة لله كلّ شيء مسجل إحصاءً وتعدادا، أمّا بالنسبة لنا نحن بنو الإنسان فغير قادرين على ذلك، وإلا هل هناك من يستطيع أن

---

[622] الأنبياء 88، 89.

[623] إبراهيم، 34.

[624] مريم، 93 . 95.

يحصوا ما تراه العين أو يُحسُّ به وما لا تراه العين ولا يُحسُّ به مع أنّه موجود من حولنا وعلى مقربّة منا، وكذلك يمتدّ إلى ما يبعد عنّا إلى مالا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالى، (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ومن ثمّ فإنّ في هذا التسبيح ينتفي التماثل مع الله في الفعل والاسم والمضمون والصورة، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}625. لا إله نفي، لاعتقاد ظنّي في إله يفيد ويضر، أو يقربّ من ويبعد عن، مع تأكيد على الوحدانية (هو الله). واستثناء الإله الذي ينسب إلى الذين ألّهوه باختياراتهم أو لرغباتهم وحسب ظنونهم، وهذا ما حدث مع قوم يونس الذين سخروا منه وهو يدعوهم إلى الله تعالى ولا إله غيره.

ولذا فإنّ اسم الإله يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير الله. أمّا اسم الله تعالى الذي سبّحه يونس فلا يرتبط بالإله إلا لسبب تقريب المعنى والدلالة للذين يظنون باعتقاداتهم في الآلهة حتى يتبيّن لهم المعنى المرشد إليه وهو الله (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

إذن لا إله إلا الله، تعني أنَّ الإله ليس هو الله، وبما أنّه ليس هو الله. إذن لا يُمكن أن يكون من اشتقاقاته، (ليس من اشتقاقات اسم الله). الإله مسمى بشري أطلقه البشر على ما يعبدون، أمّا اسم الجلالة (الله) فمسمى ذاتي مصداقا لقوله تعالى في سورة الشعراء: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصّلاة لِذِكْرِي}626، ولهذا اسمه غير مشتق، ولا يُشتق منه مسمى؛ فلو سلّمنا بأنّه بالإمكان أن يشتق منه مسمى نسلّم أيضا في الوقت ذاته بالتعدد، وهذا أمر مستحيل حيث الله واحد لا يتعدد ولا شريك له (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

---

[625] الحشر، 22.

[626] طه 14.

ولذلك جاء اسم الله اسم علم ليدلّ على ذاته، ومجموع صفاته الحُسنى التي احتواها دعاء يونس المنقذ من الهلاك (أقصد الدّعاء المنقذ). وهذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالى إلى اشتقاق من (ألَه) التي تعني التحيّر في وعدم الاهتداء إلى، ويقال أنّه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل والحبّ الشديد، الذي قد يؤدّي إلى ذهاب العقل من التعقّل. ويقال أنّه مشتق من (لاه) ولهذا جاءت (أله وألوهة) وهذه تدلّ على أنّ الإله هو المعبود بحقّ أو بباطل، كما ورد في كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للسيد مجدي منصور627. ولذلك يتمّ الاتفاق في هذا الأمر مع ابن القيم رحمه الله تعالى قال: "زعم السهيلي وشيخه ابوبكر ابن العربّي أنّ اسم الله غير مشتق؛ لانّ الاشتقاق يستلزم مادّة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادّة له، فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنّه أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنّه مستمدّ من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنّما أرادوا أنّه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرّحيم والسميع والبصير وبقية صفاته الحسنى"628.

ولنا تعليق، وهو أنّ اسم الله لم يسمه أحد، بل سمى نفسه به (أنا الله) إذا فلا يليق أن يجرّد أو ينسب إلى تجريد يقودنا بحكم أنّ اسم الله قديم؛ فلا قديم للحي القيّوم جلّ جلاله، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

---

[627] مجدي منصور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة العلم، 1999م، ص 29.

[628] المرجع السابق، ص 30.

يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}629.

ولأن الإله تؤلهه اختيارات بشر، لذا يرتبط الإله بالبشر لأنّه منهم، أمّا الله تعالى الذي سبّح اسمه يونس فلم يؤلهه أحد، بل ألهى ذاته، حيث {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}630. وبما أنّ ليس كمثله شيء. إذن لماذا المقارنات والاشتقاقات من آخرِ لا يساويه في شيء؟ وهل الله في حاجة لأن يُعرِّف بغيره؟

أقول:

الذي يُعرّف بغيره يمكن أن يكون نكرة، والله تعالى لم يكن ولن يكون نكره. ولهذا يُعرّف الله جلّ جلاله بذاته العلية (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ). وهو ليس بناقص حتى يُعرَّف بآخر ليستدلّ عليه. ولهذا فالله تعالى يُستدلّ به فلا يُستدلّ عليه بآخر.

وعليه فإنّ قوله تعالى (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ). تنفي الألوهية عن غير الله وتثبتها لله وحده دون غيره. ولأنّ الإله ما دون الله عزّ وجلّ، حيث لم يبلغ الكمال كما هو الله تعالى، لذا فإنّ الآلهة التي هي من دون الله صفتها القصور، أمّا الله تعالى وبلا مقارنة فصفته الكمال، ولهذا فإنّ الإله هو الدون (الأقل)، والله هو (الأعلى)، {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}631.

---

629 الحشر 22 . 24.

630 الشورى 11.

631 مريم، 81.

ولأنّنا نعلم أنّ العزّة لله فكان من الواجب علينا أن نقول لا عزّة لآلهة من دون الله، ولهذا يقول تعالى: {فَإِنَّ العزّة لِلَّهِ}632. إذن الكفار الذين يعتقدون في أنّ العزّة للآلهة كان اعتقادهم في غير محله. حيث محل العزّة لله جلّ وعلا.

ولأنّ للزمان حجّة، فلا ينبغي أن نغفل عن تقديمها، في التساؤل التالي:

هل الله سابق على المسمى أم المسمى سابق على وجود الله تعالى؟

بالنسبة لله فالزمن مخلوق منه، أمّا بالنسبة للإله فهو المخلوق في الزّمن.

وبما أنّ الله هو الأوّل والآخر وهو الخالق لكلّ شيء، إذن كلّ المخلوقات هي بفعل الفاعل وهو الله الخالق تعالى.

وبما أنّها من فعله أو بفعله عزّ وجلّ، إذن بطبيعة الحال يترتّب وجودها على وجوده تعالى.

ولهذا فالمسمى الإله هو مسمى بشري. أمّا اسم الله تعالى فلم يكن مسمى بشري ولا من بقية المخلوقات. وذلك وفقا للقاعدة التي تنصّ على أنّ (وراء كلّ مخلوق خالق).

ولأنّ الآلهة اختلقها البشر ليعبدوها من دون الله، لذا فهي لم تكن بخالقة، والفرق كبير بين خالق عظيم وبين مخلوق يفتقر للعظمة، {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}633. العابد مخلوق من عند الله والمخلوق (البشر) الذي بعضه يعبد بعض من المخلوقات التي هي

632 النساء 139.

633 النحل، 20.

الأخرى من عند الله، ويعبد البعض الآخر منهم ما خلقوا بأيديهم (كالأصنام التي يصنعونها بأيديهم)؛ فالله يقول: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}634. في هذه الآية الكريمة النصّ صريح على أنّ أسماء الآلهة التي اتخذها بعض البشر للعبادة هي التي سُميت من قِبلهم وليس هي التي تستوجب العبادة، فالذي يستوجب العبادة الذي خلق كلّ شيء بما فيها ما اختاره البعض إلها له (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)..

الذين اتخذوا آلهة لهم من دون الله هم الذين يعتقدون أنّها ستقربّهم إلى الله زلفى، {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}635. فالنّاس تبحث عن المنزلة الرّفيعة وهم يعتقدون أنّ ما يعبدون من دون الله هو القادر على تقريبهم من هذه المنزلة، في حين لو أنّهم تساءلوا: آلا يكون من صنعناه بأيدينا هو تحت سيطرتنا، وأنّ ما يظهر ويغيب أو يشرق ويغربّ، هو الآخر تحت سيطرة غير سيطرتنا؟ وبما أنّه غير مسيطر على ثباته ووجوده آلا يكون تحت سيطرة من هو أكثر منه ومنّا مقدرة وقوّة؟ ومن يا ترى هذا الذي يتحكّم في أمرنا وأمرهم؟ آلا يكون هو الأولى بالعبادة؟

ولو تساءل الإنسان، لوجد الإجابة، أو كانت له الإجابة مباشرة بلا وسطاء يتخذهم ليقربّوه لله زلفى. إنّه الله جلّ جلاله الذي جعل في الأرض خليفة، خلقها فسواها فعدلها في إي صورة ما شاء ركّبها، إنّه الإنسان الواعي المؤمن بخالقه تعالى.

ولأنّه الله الذي لا شريك له في الملك كان له الخليفة، ولهذا ليس من باب المقارنة ولكن للتوضيح فقط، يتّضح أمر من يخلق ومن يُخلَق،

---

634 يوسف، 40.

635 الزمر، 3.

فالمخلوق سيضل هو المخلوق إلى النهاية، ولن يستطيع أن يترك له خليفة، فالقمر لم ولن يترك له خليفة، والشمس هي الأخرى لم ولن تترك لها خليفة، والأصنام التي اتخذها البعض من الكافرين آلهة لهم لم ولن تترك من بعدها خليفة. وهكذا الإنسان لم ولن يترك له خليفة من أمره، بل الإنسان يخلف بعضه البعض كغيره من الكائنات الأخرى بأمر التكاثر الذي صدره الله لخلقه.

وعليه: من يستطيع أن يخلق خليفة، فهو أحقّ بالعبادة، ولهذا الإنسان الذي ميّزه الله بأحسن تقويم هو المؤهل قبل غيره بالإيمان والعبادة لله تعالى. {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}636. هنا يقصد آدم وجنسه حيث اعلم الله تعالى الملائكة بالقرار (إنّي جاعل في الأرض خليفة) أي قُضى الأمر في هذه القضية وهو استخلاف آدم وجنسه لعمارة هذا الكون، حتى ترتّب عليها أمر آخر في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}637. وطاعة لأمر الله عزّ وجلّ سجد الملائكة لآدم لا لعبادته، ولكن لعبادة الله الذي أصدر لهم أمر السجود، ولذا فكان سجودهم طاعة لله تعالى، وكانت المعصية ممّن لم يطع الأمر وهو إبليس أعوذ بالله منه.

إنَّ سجود الملائكة لآدم يوم أن استخلفه الله تعالى على إدارة الشؤون الإنسانية في الكون يُعد التقدير الأوفر لمن خُلق في أحسن تقويم. إنّه اليوم الذي تحدّد فيه من يكون الخليفة على الكون، ولذلك لما أنبأهم آدم بأسمائهم وعلّمهم ما لم يعلموا، أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم اعترافا به،

[636] البقرة، 30.

[637] البقرة، 34.

وتقديرا له، واعتذارا عمّا قالوه فيه. ويشير هذا الأمر أيضا إلى أنّ آدم عليه السّلام هو نبيا مرسلا للملائكة والجنّ والإنس (إنّه نبي الكافّة).

وقد يتساءل البعض: هل آدم وجنسه هم خلفاء الله على الكون؟

بالتأكيد لا، الله واحد أحد لا يخلفه أحد.

إذن آدم وجنسه خليفة مَن؟

آدم وجنسه استخلفهم الله في الكون، أي تركهم يُنظمون شؤون حياتهم فيه، ولم يتركهم ليحلّوا محله، فهذا الأمر استغفر الله ليس من مهام الخلافة التي كلّفهم بها الله تعالى.

ولهذا لا يمكن أن يخلف الله أحد في ذاته، بل الله استخلفهم، في تنظيم حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والإنسانية.

ولأنّ الله حي قيّوم إذن لا محل في أن يحلّ المستخلف محلّ من كلّفه بالاستخلاف. فالإنسان يمكن أن يكلّف أحد من بني جنسه في استخلافه، أن يحل محله في غيابه، ولكن الحي القيوم {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}638 لن يغيب حتى يخلفه أحد، ولكنّه صاحب القوّة وعلّام الغيوب قد استخلف آدم عليه الصّلاة والسّلام وأنبأه بما لم تعلم الملائكة حتى كانت المعجزة التي انتهت بالسجود لآدم عرفانا به وبما قدّره الله تعالى له من أسرار.

ولذا جاءت في لسان العربّ المحيط كلمة "خلائف في الأرض بمعنى يخلف بعضكم بعضا"639، حيث ينتهي السّابقون ويأتي من بعدهم

[638] البقرة، 255.

[639] لسان العرب المحيط، العلامة ابن منظور. بيروت: دار لسان العرب، المجلد الأول، ص 883.

اللاحقّون. "فالخَلَفُ كلّ من يجيء بعد من مضى"640. ومن هنا يتّضح الفرق بين الخَلَفُ وبين الاستخلاف، فالخلف يتعاقب من ورأى بعضه البعض، أمّا الاستخلاف هو تمكين من يودّ أن يكون خليفة في مهمته التي تناط به حتى يؤدّيها.

وفي حديث أبن عباس "أنّ أعرابيا سأل أبا بكر، رضي الله عنه، فقال له: أنت خليفة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقال: لا، قال: فما أنتَ؟ قال: أنا الخليفة بعده"641.

ماذا تعني إجابة سيدنا أبا بكر رضي الله عنه؟

تعني أنّه لا يمكن أن يخلف أحد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالرّسول لا يخلفه إلا رسول، وهكذا خلف عيسى موسى عليهما الصّلاة والسّلام، وهكذا خلفهما سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم. الرّسول لا يخلفه إلا رسول، ولهذا كان محمّد صلّى الله عليه وسلّم خاتم الأنبياء والمرسلين. {مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}642.

إذن فلا نبي من بعده، ولهذا لا يمكن أن يحلّ محلّه أحد. ولكن بطبيعة الحال سيخلفه من بعده من يؤمن برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام. ليقوم بدوره تجاهها ولكنّه لا يمكن أن يقوم بدور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فالرّسول يصطفيه الله تعالى، وتكون له رسالة من عند الله تعالى، وله تكليف في حدود المستهدف بالرّسالة، سواء أكانت خاصّة أم عامّة (للناس كافّة) كما هي رسالة خاتم النبيين عليهم جميعا الصّلاة والسّلام. وفي مقابل ذلك الخلفاء من بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،

640 المصدر السابق، ص 884.

641 المصدر السابق، ص 885.

642 الأحزاب، 33.

لم يصطفيهم الله تعالى، ولم تكن لهم رسالة، وليس لهم تكليف من السّماء. ولهذا لا يخلف الرّسول إلا رسول من عند الله. وما أمر صحابة رسول الله رضوان الله عليهم إلا أمر صحبة على كلمة سواء (لا إله إلا الله محمّدا رسول الله). ولذا خلف الصحابة بعضهم بعضا ولم يخلف أحد منهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ولهذا فالخلافة توالي عبر الزّمان والمكان مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}643 وقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ}644. هنا جاءت الخلافة عامة للمؤمن وغير المؤمن، أما في الآية {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}645. هنا الوعد مقصور على الذين امنوا وفي هذه الآية يوجّه الكلام للرسول صلّى الله عليه وسلّم، والذين امنوا، ليجعلنهم خلفاء متصرفين في شؤون الحياة البشرية بما أمر الله تعالى، أي أن الرسالة سيبلغ مداها إلى أن تعمّ المعمورة، لتكون عليها الخلافة الإلهية، وأعني ما يريده الله أن يكون على الأرض، فسيكون على أيدي المؤمنين به الطائعين لأمره، وفي هذا استثناء من الخلافة، حيث استثنى الله غير المؤمنين من الخلافة بقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) فقوله تعالى: قال: (الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يدل على أمور ثلاثة:

الأوّل: استثناء غير المؤمنين من الاستخلاف.

---

643 الأعراف، 69.

644 الأعراف، 74.

645 النور، 55.

ثانيا: تعميم الاستخلاف للمؤمنين منهم.

ثالثا: تخصيص الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهنا يتضح التميّز بين من آمن ولم يعمل عملا صالحا، وبين من آمن وعمل عملا صالحا.

ولهذا سيُبدّل الله تعالى خوف المؤمنين من الأعداء أمنا، وبما أنّ هذا الأمر وعدُ من الذي وعده الحقّ، وهو لا يخلف وعده. إذن فاليُرمى الخوف في غيابات الجبّ ولنعمل صالحا حتى نكون من المستخلفين في الأرض، وأن نسبّح الله كما سبّحه يونس عليه الصّلاة والسّلام إن أردنا النجاة ونحن صادقين (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ومن الآية السابقة يتضح أمر الخليفة بأنّه ليس الإنسان المطلق، بل الإنسان المؤمن الذي يعمل صالحا. وهذا لا ينفي الوجود والعيش على الأرض للكلّ دون استثناء، بل يعني: أنّ مستقبل الأرض سيكون بين أيدي آمنة، وليس بين أيدي عابثة، ولهذا لا إكراه في الدّين، بل في الدّين الحجّة التي تحمل في مضامينها الحقّيقة التي تتطلب مؤمنين بها حتى يتمكّنوا من تسويقها بقواعد ما يجب، دون إكراه للآخرين.

ولذا فإنّ أمر الخلافة يتعلّق بصناعة المستقبل. وهذا المستقبل لن يتحقّق إلا بما يتركه الإنسان من أثر طيب في القول والفعل والسّلوك؛ فعندما استخلف موسى أخاه هارون عليهما الصّلاة والسّلام لم يكن موسى صلى الله عيه وسلم قد أنهى رسالته، بل لأنّه سيكون في مهمّة إلهية، والإلهية هنا لا تعني الاشتقاق من إله، بل مدد من عند الله، أي انتساب المهمّة الموسوية إلى الله تعالى. ولهذا فإنّ الإلهية صفة من صفات الله تعالى، والإلهية نسبة إلى إله.

ولأنّ قول الله حقّ، لذا لا يمكن أن يكون إلها، فالآلهة التي اتخذوها لتقربّهم لله زلفى، هي غير قادرة على القول، حقّا أو حتى باطلا. ولهذا فهي قاصرة عن القول، ولأنّها كذلك: أيكون اتخذها آلهة مناسبا للعبادة أو حتى للتقريب زلفى؟

ولو سلمنا بأنّ اسم الله تعالى هو اسم الإله، فلنسلم أيضا بأنّ اسمه يُجمع. ولأنّه لم يكن كذلك فيجمع اسم الإله على آلهة، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام هو (الله). ولهذا في الجمع التعدد، وفي اسم الله تعالى الوحدانية.

في عقول الخلق الذين يسبِّحون بحمد الله وشكره، ويسبّحونه باسمه موحّدا ولا منقذ لهم من همٍّ وغمٍّ إلّا هو هم المنقذون من كلّ همّ وغمّ كما هو حال يونس وتسبيحه باسم الله تعالى (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ). حيث لا إله إلّا هو جلّ جلاله. وهذا يدلّ على انتزاع الظنون الباطلة من العقول المؤمنة.

ولهذا كان للطير منطقا، وكان للنملة لغة لتسبح جميعها بسم لله تعالى دون أن تتخذ آلهة من دونه. وهنا يحدث الاستغراب، طائر ونملة ومخلوقات متعدّدة لم تصل إلى الرّقي الذي عليه خُلق الإنسان، لم تتخذ آلهة من دونه، ويتّخذ البعض من بني الإنسان ما دون ذلك من دون الله تعالى! لقد اتخذها الإنسان أنّه كان عجولا {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}646. ولهذا جاءت السّور القرآنية التي تتضمن في آياتها العظام، ألا يكون الإنسان عجولا. قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}647. فاللين في هذه

---

[646] الإسراء، 11.

[647] الشورى، 159.

الآية الكريمة لا يتمّ إلا بمقدرة على الاستيعاب فحيث من يخالفك أو يعصيك أمرا قد يجعلك في حالة عدم توازن وقد يؤدّي بك إلى اتخاذ مواقف استعجاليه ممّا يجعلك على أخطاء لا يحمد عقباها، ولهذا الاستعجال يُضيع الصوابَ. ومع أنَّ المشورة تحتاج إلى وقت أطول إلا أنّها تؤدّي إلى قرار أصوب، ولهذا لا داعي لأن تكون أيّها الإنسان عجولا. وإن قبلت بذلك فأنت لن تكون خليفة في الأرض، التي في حاجة لمن يَعمُرها، وليس في حاجة لمن يسفك فيها الدّماء ويهلكها. ونحن المؤمنون جميعا نحمد الله تعالى على نعمه التي أنعم بها علينا حتى لا نُسهِم في إهلاك الأرض وهتك العرض وسفك الدّماء بغير حقّ. ونحن بالمشاورة نكون خير خليفة، وبدونها لن نتمكّن من بلوغ الخليفة. ولهذا أكّد الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[648]. أكّد في مجمل هاتين الآيتين وما سبقهما وما لحقّهما من آيات عظام في سورة الشورى على الامتناع والابتعاد عن ارتكاب السلوكيات والأفعال الناقصة ما ظهر منها وما بطن، والإقدام على كلّ ما من شأنه أن يرضي الله تعالى، لأجل أن يصبح الإنسان خليفة منه تعالى على الأرض.

ومع أنَّ أمر الخليفة قد صدر من الله عزّ وجلّ للمؤمنين الذين يعملوا الصالحات، إلا أنّه من باب التقدير للخليفة أن يكون قد أدرك هذه المسؤولية حتى يَقدِمَ على حملها بإرادة. ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تتم سيطرة الإنسان على الأرض ويُتوج عليها خليفة. {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلما يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا

[648] الشورى، 37 ـ 38.

اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}649. هذه الآية الكريمة نزلت في نفر من بني أسد، الذين قدموا إلى المدينة في سنة جذبة وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا بمؤمنين فقد أعلنوا إسلامهم لغاية في أنفسهم وهي الحصول على الصدقات، ولأنّهم لم يؤمنوا بثقة ورسوخ، لذا فهؤلاء ومن هم على شاكلتهم يعدوا مسلمين حيث نطقهم وقولهم بالشهادتين دون الإقدام على أداء بقية الواجبات وخاصة مجاهدة النفس في سبيل الله عزّ وجلّ. (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وحتى يأتي الوقت الذي يدخل فيه الإيمان قلوب المسلمين حينها يكون الاستخلاف سيد الموقف، وحينها يعرف المسلمون أنفسهم بأنهم على الحقّ مؤمنون.

ولأنّ القضية الأساسية في الدين تكمن في قوله تعالى: {وإلهُكُم إلهُ واحِدُ لا إله إلا هُوَ الرّحمن الرّحيم}650، لذا جاء نفي أن يكون أو يتخذ من غير الله إلها، ولهذا فكلمة إلهكم تعود على الله تعالى، حيث (إلهكم) جاءت مطلقة، ولأنه لا مطلق إلا الله أو ما يأتي منه تعالى، لذا تعود (إلهكم) عليه دون غيره، حيث لا وجود لمطلق سواه. ولهذا يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم} 651 "إنّ الله لا ينفى ويقول (لا إله إلا هُوَ) إلا حين توجد غفلة تعطي الألوهية لغير الله ولشركاء معه، إنّ القرآن ينفي ذلك ويقول (لا إله إلا هُوَ الرّحمن الرّحيم) وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة منه سبحانه أو منعم عليه"652 وفي هذه الآية الكريمة خاطب الله تعالى من يتخذوا آلهة غيره أو يفكروا أن يتخذوها باللغة المعرفية التي سادت بينهم، اللغة التي تعترف بوجود الآلهة من دونه، وحتى يبدأ معهم

---

649 الحجرات، 14.

650 البقرة، 163.

651 البقرة 163.

652 تفسير الشعراوي، القاهرة: أخبار اليوم، المجلد الثاني، ص 682.

من حيث هم خاطبهم بإلهكم، لعلهم يفطنوا من غفلتهم ويتساءلوا: ما هذا الأمر؟ ألا ما نحن عليه ليس بآلهة؟ أم أنّ في القضية أمر يتطلب التعرُّف عليه؟ ولهذا بدأ الله معهم من حيث هم لغرض أن ينقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه.

وعليه يتضح الفرق بين من تؤلهه العباد، وبين الذي تألهه العباد. فالتأله يدل على عشق وتعلق المخلوق بالخالق، والتأليه يدلّ على من يوضع في مكانا أكبر منه، أو ينظر إليه كذلك وهو عن غير حقّ. حيث تأليه البعض لبعض الحكام وكأنهم لم يكونوا من العباد. وهؤلاء كمثل من جعل له النّار إلها أو أختار له القمر أو الشمس إلها، هذه تدل على التأليه، أمّا التعلق بالله تعالى فهو تأله أي تعلق متين بالواحد الأحد. وفي هذا الأمر يقول ابن تيمية "أنّ الله هو من تألهه العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له، وهو الذي تألهه القلوب"653.

فالله سبحانه هو الاسم الأعظم الذي سمى به نفسه حين قال تعالى: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ}654 وهو الاسم الذي سبّحه يونس فنجاه من الهلاك ويسّر له إيمان قومه بعد تعسّر ولهذا قال يونس عليه الصّلاة والسّلام (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ). في هذه الآية الكريمة وآية التي سبقتها تحديد قاطع بأنّ المسميات التي خاطب بها العباد لتتخلوا عمّن هم دونه من آلهة ليس هي بأسمائه، ولهذا اسم الله لا يتعدّد برغم تعدّد صفاته التي بها يوصف أو يسمّى.

---

653 منهج الإمام ابن قيم الجوزية، في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 2005، ص 268.

654 القصص، 30.

فالله اسم مطلق للبقاء، وما دونه أسماء فانية، لا يكتب لها البقاء، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ ربّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}655. ولأنّ الأسماء والأجسام التي لا تبقى لا تليق أن تكون معبودات جاء قوله تعالى: {فَلما جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا ربّي فَلما أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلما رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا ربّي فَلما أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي ربّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلما رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا ربّي هَذَا أَكْبَرُ فَلما أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ ممّا تُشْرِكُونَ}656.

ولأنّ كلّ ما نشاهده بأعيننا ليس له صفة البقاء والاستمرارية وله صفة التبدل، لذا جميعها لا تليق بأن يتمّ اختيارها آلهة، ولذا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يقبل بأن تكون النجوم أو القمر أو الشمس آلهة تستحقّ العبادة حيث فقدانها لصفة الديمومة والبقاء بدون تبدل. ولأنّه لا بقاء إلا لله تعالى، لذا فلم يكن مثله شيء، ولهذا فهو الذي يستحقّ العبادة.

وقد يتساءل البعض: لِماذا جعل الله على الأرض خليفة؟

ليُريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحقّ من الباطل، ويكونوا الخليفة التي يُطمئن لها وتُصلح الأرض ولا تفسد فيها وتسفك الدماء، وتعلم أن الحقّ من عند الله تعالى فتزداد تعبدا له دون غيره. {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِربّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}657 ولهذا يُريهم الله من فضله ونعمه عليهم بداية من أنفسهم وما خُلقوا عليه وما يحيطهم عن القربّ والبعد حتى السماء، ولهذا من حقّ الخليفة أن يبحث وينهل من العلم في الأرض

655 الرحمن، 27.

656 الأنعام، 76 ـ 78.

657 فصلت، 53.

وفي الآفاق حتى يزداد يقينا بنعمه وفضله الواسع. ولذا يقول تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}658. إذن جعل الله الخلائف على الأرض لينظر كيف يعملون، هل سيعملون خيرا أم سيعملون شرا، بعد أن بين لهم كل شيء تفصيلا. فهل سيكونون على واحديته وطاعته، أم أنهم سيكونون على معصية وكفر. ولأن الخلائف تتوالى عبر الزمن حيث سابقون ولاحقّون، حتى كانت آخر الخلائف بعد القرون التي هلكت. والتي فيها يقول القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن "كلّ من جاء من بعد من مضى فهو خليفة، أي جعلكم خلفا للأمم الماضية والقرون السالفة"659.

وبناء على تفسير السيد القرطبي، إذن لا خليفة إلا وسابق عليها. وفي هذا الشأن قد يكون استخلاف الإنسان على الأرض على أنقاض السابقين له، {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قوّة وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ ممّا عَمَرُوهَا}660 هذه الآية دليل إثبات على أنّ أناس كانوا من قبل، وقد انتهوا، وجيء بخلق من بعدهم، وأولئك كانوا على حضارة راقية في البناء والأعمار حتى وُصِفوا بأنهم أكثر قوّة من الذين خلفوهم.

ولأنّه الله الذي لم يشتق اسمه وفعله وصفاته من أحد، جعل في الأرض خليفة، ولأنّ الآخر إله فلم ولن يستطيع أن يترك له خليفة. فالشمس هي الشمس على ما خُلقت أو فُطرت عليه، فمن يتخذها إلها فليتخذها، ولكن لن تترك له خليفة. وذلك لأنها غير قادرة على ذلك، فالقادر وحده الله تعالى. وهكذا حال أي إلهٍ يمكن أن يُتخذ كما سبق

---

658 يونس، 14.

659 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي، المجلد السابع، ص 158.

660 الروم، 9.

وأن اتخذت القمر والنّار والأصنام المتعددة آلهة، فهي جميعها لا تستطيع أن تترك خليفة.

فالذي يترك خليفة في الأرض خلقا هو الله تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}[661]. الله الذي بدأ الخلق ممّا لم نعرف، ويستمر به إلى نهاية ما لن نعرف، فبداية الخلق منه ونهايته إليه، ولذا لن يكون هناك دور لمن لا يؤخر أو يُقدم في الأمر شيء، الدور والملك لله الواحد القهار.

ولأنّ الله هو الخالق، وكل ما غيره مخلوق، فهل من الأفضل للخلافة التي تركها الله لخلقه أن تتخذه معبودا وتخلص له الدين، أم أن تتخذ من هو مخلوق مثلها إلها؟ وهل من اللائق بنا نحن بني الإنسان أن نعبد الله الذي ليس كمثله شيء؟ أم نعبد غيره من الذين هم في أحسن تقويم أو من الأقل منهم تقويم؟ تكمن الإجابة على هذه الأسئلة في قوله عزّ وجلّ: {وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}[662].

وقد يتساءل البعض: ما هذا الشيء الذي استخلفنا الله فيه؟ الخيرات والنعم التي انعم الله بها على الذين من قبلنا، وعلينا، وعلى الذين سيأتون. لقد خلق الله النعم والخيرات سابقة على خلقنا، حيث خلق آدم في الجنّة، أي خلقه في وسط النعيم، وإلا لو لم يخلق الله النعيم سابق علينا هل يمكن لنا أن نحيا ونعيش من غير مصدر رزق؟ ولهذا أمر الله عباده بأن ينفقوا ممّا جعلهم مستخلفين فيه من خيرات.

---

[661] الروم، 12،13.

[662] الحديد، 7.

وحتى لو كان فينا ضعف، وعرفنا هذه الحقّيقة أن الله خلق النعم سابقة على خلقنا وهي من أجلنا، من أجل أن نعيش دون عوز أو فاقة، آلا يكفي هذا الأمر لأن يجعلنا نقول بإرادتنا (لا إله إلا الله) ثمّ ألا يكون هو المبرر ذاته الذي جعل يونس يقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

بناء على ما تقدم فإنّ الخليفة ليس له بدّا إلا أن يقول: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}663 ولأنّ الأمر بيد لله. لذا لا شريك له. (لا إله إلا ألله) {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}664.

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يكن له صاحبة ولا ولد، ولم يكن له شريك في الملك ولا له ند، والصّلاة والسّلام على من لم يعبد سواه ولم يجعل سواه ضد، وعلى من سار على نهجه ونجا يوم الجد.

اسم الله هو المستحقّ للعبادة؛ لأنّه هو المتصف بصفات الكمال والجلال، ولذا على الخليفة أن يحسن عبادة ربّه، وأن يحسن التوكل عليه، وحقّيقة التوكل على الله جلّ جلاله: أن يعلم العبد أن هذا الملكوت إنما هو بيد الله جلّ وعلا يصرفه كيف يشاء، فيفوض الخليفة الأمر إليه، ويلتجئ بقلبه في تحقّيق مطلوبه وفي الهربّ ممّا يسوءه، ويلتجئ في ذلك ويعتصم بالله جلّ جلاله وحده، فينزل حاجته بالله، ويفوض أمره إلى الله، ثم يعمل السبب الذي أمر الله به من حيث التوكل عليه، فحقّيقة التوكل في الشرع تجمع تفويض الأمر إلى الله جلّ جلاله، وذلك بفعل الأسباب، فالإيمان سبب من الأسباب التي يفعلها الخلفاء المتوكلون على الله، بل إن نفس التوكل على الله جلّ وعلا سبب من الأسباب؛ لأن التوكل حقّيقته

663 المائدة، 18.

664 الحديد، 2.

في الشرع تجمع عبادة قلبية عظيمة، وهي تفويض الأمر إليه، والالتجاء إليه، والعلم بأنه لا أمر إلا أمره، ولا شيء إلا بما قدره وأذن به كونا، ثم فعل السبب الذي أوجب الله جلّ وعلا فعله أو أمر بفعله، فترك فعل الأسباب ينافي حقّيقة التوكل، كما أن الاعتماد على السبب وترك تفويض الأمر إلى الله جلّ وعلا ينافي حقّيقة التوكل، فالمتوكل هو من عمل السبب، وفوض الأمر إلى الله جلّ وعلا في الانتفاع بالسبب، وفي حدوث المسبب من ذلك السبب، وفي توفيق الله وإعانته فإنه لا حول ولا قوّة إلا به جلّ وعلا، فالتوكل عبادة قلبية محضة؛ ولهذا كان إفراد الله جلّ وعلا بها واجبا، وكان صرفها لغير الله جلّ وعلا شركا"[665]، قال تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}[666].

ولذلك على الخليفة أن يعتقد أن الله جلّ جلاله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سبحانه جلّ جلاله، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[667]، رتّب الحسب (وهو الكفاية) على التوكل عليه، وهذا فضيلة التوكل، وفضيلة المتوكلين عليه، ومن هنا اختلف العلماء في أيهما يغلب: الخوف أم الرجاء؟ هل يغلب العبد جانب الرجاء أو يغلب جانب الخوف؟ في الحقّيقة أن ذلك على حالين:

ـ الأولى: إذا كان الخليفة في حال الصّحة والسّلامة فإنّه إمّا أن يكون الخليفة مسددا مسارعا في الخيرات، فهذا ينبغي أن يتساوى في قلبه الخوف والرجاء، فيخاف ويرجو؛ لأنه من المسارعين في الخيرات، وإذا كان في

---

[665] التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج 2، ص 27، ص 28.

[666] يونس 84.

[667] الطلاق 3.

حال الصحة والسلامة وكان من أهل العصيان، فالواجب عليه أن يغلب جانب الخوف حتى ينكف عن المعصية.

. الحال الثانية: إذا كان في حال المرض المخوف فإنه يجب عليه أن يعظم جانب الرجاء على الخوف، فيقوم في قلبه الرجاء والخوف ولكن يكون رجاؤه أعظم من خوفه، وذلك لقول النبي عليه الصّلاة والسّلام: "لا يمت أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بربّه تعالى"668، وذلك من جهة رجائه في الله جلّ جلاله؛ ومن هنا اختلفت كلمات أهل العلم، فتجد بعضهم قال: يجب أن يتساوى الخوف والرجاء، وبعضهم قال: يغلب جانب الخوف على جانب الرجاء، وبعضهم قال: يغلب جانب الرجاء على جانب الخوف، وهي أقوال متباينة في ظاهرها، ولكنّها متفقة في الحقّيقة669. ومع ذلك فمن يخاف الله يتقيه ومن يرجو الله يتقيه، وفي كلتا الحالتين كل ما من شأنه أن يزيد التقوى هو مُفضَّل عند الله تعالى، ولهذا فالخوف يؤدّي إلى التجنب والابتعاد عما نهى الله عنه، والرجاء تضرع لا تمد فيه الأيدي إلا لله تعالى، وفي كلتا الحالتين يتحقّق الرضا من الله الواحد القهار، ولأنّه الواحد القهار فمخافته ضرورة واتقائه واجب والحمد لله ربّ العالمين.

ولذلك على الخليفة أن يرضى ويُسلِّم، فالرضا بالمصيبة اعتراف بكمال القدرة لله تعالى واعتراف بنقصها عند من سواه؛ ولهذا يختلط على كثيرين الفرق بين الرضا والصبر، فالصبر على المصائب واجب من الواجبات؛ لأن فيه ترك السخط على قضاء الله وقدره، والرضا له جهتان:

. الجهة الأولى: راجعة إلى فعل الله جلّ وعلا، فيرضى بقدر الله الذي هو فعله، ويرضى بفعل الله، ويرضى بحكمة الله، ويرضى بما قسم الله جلّ

---

668 أخرجه مسلم رقم 7229.

669 التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج 2، ص 41.

وعلا، وهذا الرضا بفعل الله جلّ جلاله واجب من الواجبات، وتركه محرم ومناف لكمال العقيدة.

. والجهة الثانية: الرضا بالمقضي، أي بالمصيبة في نفسها، فهذا مقبول، وليس واجبا على الخلفاء أن يرضوا بالمرض، وأن يرضوا بفقد الولد، وأن يرضوا بفقد المال، لكن هذا مقبول وهو رتبة الخاصّة من خلفائه، لكن الرضا بفعل الله جلّ وعلا بمعنى الرضا بقضاء الله من حيث هو واجب، أمّا الرضا بالمقضي فإنه في دائرة القبول حيث لا مجال للرفض فالأمر واقع بالفعل (كن) الذي لا يملكه إلا هو جلّ جلاله، وأمره لا مرد له سبحانه ما أعظم شأنه، إنّه ربّي، ربّ العالمين عزّ وجلّ.

وفي معرفة اسمه (الله) جملة من الفوائد والثمرات التي يجنيها المسلم بتحقّيقه لهذا الاسم العظيم من ذلك:

– أنّ العبد ينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة، بل إنّ السعادة في الدارين متوقف الحصول عليها على الإيمان بالله، فحظ الخليفة منها بحسب حظه من إيمانه بربّه وأسمائه الحسان.

– أنّ إيمان العبد بربّه واسمه هو أعظم أسباب خوفه سبحانه وخشيته وتحقّيق طاعته، فكلما كان العبد بربّه أعرف كان إليه أقربّ، ومنه أخشى، ولعبادته أطلب، وعن معصيته ومخالفته أبعد[670].

– أنّ العبد ينال بذلك طمأنينة قلبه، وراحة نفسه، وأنس خاطره، والأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[671].

[670] أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 118.

[671] الرعد 28.

- أنَّ نيل ثواب الآخرة متوقف على الإيمان بالله، فبتحقّيقه وتحقّيق لوازمه ينال العبد ثواب الآخرة، فيدخل جنة عرضها السماء والأرض فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وينجو من النّار، وعذابها الشديد، وأعظم من ذلك كله أن يفوز برضى ربّه سبحانه فلا يسخط عليه أبدًا، ويتلذذ يوم القيامة بالنظر إلى وجهه الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

- أنّ الإيمان بالله هو الذي يصحح الأعمال ويجعلها مقبولة، فبفقده لا تقبل بل ترد على صاحبها وإن كثرت وتنوعت، قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}672، وقال تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}673.

- أنَّ الإيمان بالله ملجأ الخلفاء في كل ما يلم لهم من شرور وحزن وأمن وخوف وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها، ففي السرور يلجأ الخلفاء إلى الإيمان بالله فيحمدون الله ويثنون عليه ويستعملون نعمته فيما يحب، وعند المكاره والأحزان والمخاوف يلجؤون إلى الإيمان بالله فيتسلون بإيمانهم وما يترتب عليه من الأجر والثواب، فتطمئن قلوبهم ويزداد إيمانهم وتعظم ثقتهم بربّهم، وعند الطاعات والتوفيق للأعمال الصالحات يلجؤون إلى الإيمان بالله فيعترفون بنعمته عليهم، ويحرصون على تكميلها، ويسألونه الثبات عليها والتوفيق لقبولها، وعند الوقوع في شيء من المعاصي يلجؤون إلى الإيمان بالله فيبادرون إلى التوبة

---

672 المائدة 5.

673 الإسراء 19، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 119.

منها والتخلص من شرورها، فالخلفاء في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان بالله وحده674.

- أنّ معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته توجب محبة الله في القلوب إذ أنّ أسماء الله وصفاته كاملة من كلّ وجه والنفوس قد جبلت على حب الكمال والفضل فإذا تحقّقت محبة الله في القلوب انقادت الجوارح بالأعمال وتحقّقت الحكمة التي خلق العبد من أجلها وهي عبادة الله.

- أنّ العلم بالأسماء والصفات يورث قوّة اليقين بانفراد الله تعالى بتصريف شؤون الخلق وانفراده بذلك لا شريك له وهذا ممّا يحقّق صدق التوكل على الله في جلب المصالح الدينية والدنيوية وفي ذلك فلاح العبد ونجاحه فمن توكل على الله فهو حسبه.

- إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم لكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا، وهي إما علم بما كونه، وإما علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فمن أحصى أسماء الله كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم675.

فعلى الخليفة أن يعلم أنّ اسم (الله) جلّ جلاله مستغرق لكل أسمائه بما اشتملت عليه من الكمال والجلال، فيحذر غضب الجبار، فالخليفة يعلم أنّ اسم الله (السميع) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة السمع، وكذلك اسم الله (البصير) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة البصر، فالواجب على الخلفاء أن يعلموا أن الله جلّ جلاله متصف بالأسماء الحسنى وأن لا يجحدوا شيئا من أسمائه الحسان، فمن جحد شيئا من أسماء

[674] أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 121.

[675] الإسراء 19، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 122.

الله فهو كافر؛ لأن ذلك من صنع الكفار والمشركين، والإيمان بالأسماء والصفات يقوي اليقين بالله، وهو سبب لمعرفة الله، والعلم به، بل إن العلم بالله ومعرفة الله جلّ وعلا تكون بمعرفة أسمائه المستوجب دعاءه بها، وبمعرفة آثار الأسماء في ملكوت الله تعالى، وهذا شيء عظيم يتضح في قوله الله عزّ وجلّ: {وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}676، فنحن بحاجة ماسة لمعرفته جلّ جلاله وبخاصة في هذا الزمن؛ لشدة الحاجة إليه، ولا نكون كالكفار فقد وصفهم جلّ جلاله في سورة النحل بأنهم ينكرون نعمة الله وهم لها عارفون، وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها وهو الله جلّ جلاله، قال تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا}677.

وعليه فالخليفة يعلم أنّ كلّ النعم من الله جل في علاه، وأنّ كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله جلّ جلاله، وأنّ إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال العقيدة، قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}678، فدلت الآية على أنّه لا يخرج شيء من النعم أيا كان ذلك الشيء صغيرا أو كبيرا عظيما أو حقّيرا لا يكون إلا من الله جلّ جلاله، فكل النعم صغرت أو عظمت هي من الله جلّ جلاله وحده، وأمّا الخلفاء فإنما هم أسباب تأتي النعم إليهم وتأتي على أيديهم، وأسباب في إيصال النعمة إلى النّاس، فمن كان سببا في معالجتك، أو سببا في نجاحك في مادّة، أو نحو ذلك لا يدل على أنه هو ولي النعمة، أو هو الذي أنعم، فإن ولي النعمة هو الله جلّ وعلا، وهذا من كمال اليقين، فإن القلب الموحد يعلم أنه ما ثَم شيء في هذا الملكوت إلا والله جلّ وعلا هو

676 الأعراف 180.

677 النحل 82.

678 النحل 53،54.

الذي يرسله، وهو الذي يمسك ما يشاء كما قال سبحانه: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}679، فكل النعم من الله عزّ وجلّ، والعباد أسباب في ذلك، فالواجب إذًا أن تنسب النعمة إلى المسبب لا إلى السبب؛ لأنّ السبب لو أراد الله جلّ وعلا لأبطل كونه سببا، وهذا السبب إذا كان آدميا فقلبه بين إصبعين من أصابع الله جلّ وعلا لو شاء لصده عن أن يكون سببا، أو أن ينفعك بشيء، فالله تعالى هو ولي النعمة، وما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل، وذلك لأن الواجب على المسلم أن يعلق قلبه بالله جل في علاه، وهذا هو حقّيقة التوحيد، ومعرفة تصرف الله جل في علاه في ملكوته680؛ ولذلك نجد من قوّة اسم (الله) جلّ جلاله أن لا يستطيع أحد أن يُسمي به نفسه أو أحدا من خلقه، وكل من حاول أن يفعل ذلك قهر وغلب وأُخِذ من حيث لا يدري، بل ومن مأمنه، ومن حيث لا يحتسب، كما فعل بفرعون قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّار وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ}681، فأسماء الله جلّ وعلا يجب على الخليفة تعظيمها، وألا يسمي بها البشر، لأنّ هذا الفعل راجع إلى تعظيم شعائر الله جلّ جلاله، قال سبحانه: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}682. فالواجب على

---

679 فاطر 2.

680 التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج 2، ص 137.

681 القصص 38-42.

682 الحج 32.

الخليفة أن يتحرز في ألفاظه وبخاصة فيما يتصل بالله تعالى، أو بأسمائه الحسنى أو بأفعاله وإنعامه، أو بعدله وحكمته، وأن يعلم أن الله جلّ جلاله مطلع عليه، وأنه سبحانه هو ولي الفضل، وهو ولي الإنعام، وهو الذي يستحقّ أن يجل فوق كل جليل، وأن يحب فوق كل محبوب، وأن يعظم فوق كل معظم، والخليفة يعلم أنه فقير لله جلّ جلاله، وأنه لا مغني له إلا هو، وأن الله هو الرّب المستحقّ على العبد أن يشكره وأن يذكره، وأن ينسب النعم إليه، والخليفة ليس مستحقّا في الدنيا بحقّ واجب على الله جل في علاه إلا ما أوجبه الله جلّ جلاله على نفسه.

وحاول أهل العلم توضيح قيمة أسمائه وتفسيرها، ولكن وإن حاول أهل العلم ذلك فإنما هو من باب التقريب، ليدلوا النّاس على أصل المعنى، أما المعنى بكماله فإنه لا يعلمه أحد إلا الله جلّ جلاله؛ ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم في دعائه: "لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"683. فالنّاس حين يفسرون أسماء الله جلّ وعلا فإنهم يفسرون ذلك بما يقربّ المعنى إلى الأفهام، أما حقّيقة المعنى على كماله فإنهم لا يعونه؛ لأنّ ذلك من الغيب والله أعظم من كل تفكير في العظمة، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها؛ لأن ذلك من الغيب، فالله جلّ وعلا له الأسماء الحسنى. وتعظيم أسمائه يكون بتعظيمه كأن لا يسأل بوجه الله إلا المطالب العظيمة التي أعلاها ممّا خلق وهي الجنّة.

ومن تعظيم الخليفة لأسمائه أن لا يجادل في كيفيتها وكنهها وحال وجودها بل يسلم في ذلك تسليما واعيا بأنها الحقّ المطلق الذي لا يردك بالعقول كما هو عليه، ودون الولوج في ما لا يحمد عقباه من الجدال العقيم الذي لا يليق بالخليفة ألفهيم، فكيف لعاقل أن يجادل فالله جل في علاه وهو شديد المحال، قال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ

683 أخرجه الترمذي 3566، وابن ماجه 1179.

خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}684، هذه الآية الكريمة نزلت في من جادل في الله جلّ جلاله بغير الحقّ فكانت عاقبته أن باء بغضب الله تعالى في علاه فنزلت به صاعقه في يوم صائف صاف، بقي آية لغيره يدل بها على عظمة الله تعالى، وبقي برهانا لصدق رسالة رسولنا الكريم صلّى الله عليه وسلّم، فقوله تعالى: (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) يدل على شدة القوّة والكيد، فالله جلّ جلاله يظهر لنا بعضا من قوته وجبروته في قوله تعالى: {هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفا وَطَمَعا وَيُنْشِئُ السحاب الثقال}685، وظهور آثار قدرةِ الله في الكون ظاهرة، والبرقُ من هذه الظواهر الكونية العجيبة، فالله جلّ جلاله الذي يسخّر البرقَ فيخافه بعضُ النّاس خشية الضرر على نفسه أو محصوله من نزولِ المطر أو ما يترتّب عليه من الصواعق، ويطمع فيه بعضُهم رجاءَ نزول الغيث لسقي الزرع، فبعضهم يخاف وبعضُهم يطمع في الخير من ورائه، والله تعالى هو الذي ينشئ السحابَ المملوءة بالأمطار فيغيث بها الزرعَ والضرع، ويسبِّح الرعدُ بدَلالتِه على وحدانية الله بحمدِه وتقديسه، فهذا الصوتُ المدوِّي في السماوات إنما هو حمدٌ وتسبيحٌ بالقدرةِ التي صاغت هذا النظام، ويسبّح الملائكةُ الكرامُ من هيبته وجلالِه، ثم تتم الصورةُ الرهيبة المشمولة بالرهبة والانبهار والرعدِ والسحابِ الثقال، بإرسال الصواعق، فيُصيب الله بها من يشاء رادعا لمن يكذب أو يشرك به غيره جلّ جلاله.

ومع كلّ هذه الآيات والظواهر الكونية العجيبة يجادلُ الكفّار في شأن الله ووحدانيته وتفرُّدِه بالمِلْك، وهو سبحانه لا يغالب، فهو شديدٌ في عقوبة من طغى عليه وتمادى في كفره، روى عن ابن عمر: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

---

684 الرعد 13.

685 الرعد 13.

صلّى الله عليه وسلّم كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ"686، فالمشركون المعاندون يجادلون في الله وينسبُون إليه شركاءَ يدْعونهم معه، ودعوةُ الله هي وحدَها الحقّ، وما عداها باطلٌ ذاهب، ما يدعونهم من الآلهة المزيَّفة من دونِ الله لا يَستجيبون دعاءَهم ولا يُنجِدونهم بشيء، ومثلُهم في ذلك كَمَن يبسُط كفّيه ليأخذَ بهما ماءً إلى فمه، وهيهاتً أن يحصَل على شيء منه، قال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحقّ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعاء الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}687، أي في ضياعٍ وخسارة بدون فائدة.

وعظمة اسمه جلّ جلاله تظهر في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}688، ففي الوقت الذي يتّخذ الجاحدون آلهة من دون الله، ويتوجَّهون إليها بالرّجاءِ والدّعاء، نرى كلَّ من في هذا الكون يخضعُ لإرادته ويعنُون لعَظَمته من أناس وجِنّ وملائكةٍ طائعين أو كارهين، حتى ظِلالُهم خاضعةٌ لأمرِ الله ونَهْيِهِ في جميع أوقات النهار، وفي هذا تعميم لكل شيء، وتظهر قوّة هذه الآية في جعلها ممّا يسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند سماعها أو قراءتها.

فالقارئ يجد عند قراءة قوله تعالى: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}689 من الرّهبة والخوف من عقابه بما يظهر في ألفاظها من قوّة وسطوة وجبروت في كونه تعالى في علاه شديد حالما يريد أن يهلك عدوه، فعلى الخليفة أن

---

686 سنن الترمذي، ج 11، ص 345.

687 الرعد 14.

688 الرعد 15.

689 الرّعد 13.

يظهر من الخضوع والخشوع ما يليق برضاه للفوز بجناته، واتقاء عذابه، وذلك بالذكر والشكر ليل نهار والتسبيح والتهليل، ويظهر الجدال في كيفية الذكر، فهناك من يقول: إن الشكر والذكر لا يكون إلا بذكر لفظ الجلالة (الله)؛ استنادا إلى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[690]، فلفظ (الله) في هذه الآية يأمرنا بذكر لفظه تعالى وبهذا الاسم فيكون الذكر بترديد لفظ الجلالة: الله الله الله.... ليل نهار، وهذا المعنى الحرفي لهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي أمرت بذكر الله تعالى، وهناك من يرى غير ذلك بأن الذكر لا يكون مقتصرا على تكرار لفظ الجلالة (الله) بل الذكر يكون بالقيام والصيام وترك الموبقات وعمل الصالحات ومتابعة العلوم الدينية وذكر القرآن الكريم، بل بعض النّاس حرم ومنع المسبحة واستخدامها للذكر ورآها بدعة لا وجود لها في الدين ونسوا أنها لا تعبد في ذاتها بل هي وسيلة لتأدية ما أمر به الدين الحنيف من الطاعات، وعلى كل حال فكل من يريد عبادة ربّه فإن الله به عليم، وهو قريب سميع الدعاء، وكل وسيلة تقربّ منه أو بها يُذكر واحدا أحدا هي وسيلة مباركة لا تؤخذ غاية في ذاتها، فليعبد الخليفة ربّه سبحانه بالطريقة التي تناسبه والطريقة التي يقدر بها على تأدية فرضه وسننه ونوافله، فالأمي الذي لا يستطيع قراءة القرآن لا نمنعه من التسبيح، ونبقيه مكتوف الأيدي بحجّة أن المسبحة بدعة، وإن كانت كذلك فهي حسنة ولم تغير في الدين شيئا بل تدعمه بمن هو قادر على عبادة ربّه وبأخف الألفاظ وبأثقل الموازين، ويؤيد هذا قول الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"[691]،

[690] الأحزاب 41-43.

[691] صحيح البخاري، ج 20، ص 21.

وعلى هذا يشترط لمن يريد ذكر ربّه أن يكون طاهرا ظاهرا وباطنا: وذلك بأن يطهر قلبه ونفسه من الأدران التي أساسها الطمع في جمع المال والعيال ونسيان ما خلق من أجله وله سخر ما في الكون ليقوم به التسبيح (ذكر الله في الحركة والسكون)، ومع هذا فالتسبيح لا يشترط المسبحة، بل يستوجب المسبح به وبذكره، وليعلم الخليفة أن كل ما في الكون خلق ليسبح بحمد ربّه فكيف لمن خلق على أكمل وجه وكلفه بما لم يقدر أي مخلوق على حمله أن يقوم بواجبه تجاه من عرف حقّيقته حقّ المعرفة، فالطهارة واجبة على كل من يريد أن يذكر ربّه، وقد مدح الله جلّ جلاله الذين يتطهرون من الذنوب والخطايا بقوله تعالى: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحقّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}692. والطهارة الداخلية تكون بالابتعاد عن كل ما هو جالب للذنوب، فالخليفة يكون مبتعدا عن وهن الدنايا والخطايا فلا يتعمد ارتكاب أو الاقتراب من الذنوب وذلك باجتراح السيئات؛ لأنه تعالى لم يجعل الذين يتقوا فعل السيئات كمن يقوم بفعلها، فقد جاء ذلك في قوله: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}693؛ ولأنّ الطهارة الداخلية هي التي ترتكز عليها الطهارة الخارجية فلذلك يجب على الخليفة أن يطهر نفسه وقلبه من الحسد والحقّد وما ينتج عن ذلك من نميمة وغيبة وذكر النّاس بما تكره أو بما ليس فيهم، فهذه الأشياء تأكل الحسنات كما تأكل النّار الهشيم، وبذلك يجد الإنسان نفسه خارج الدائرة بدلا من كان من

[692] التوبة 108، 109.

[693] الجاثية 20،21.

المقربّين والعياذ بالله، وقد نهى جلّ جلاله عن ذلك نهيا صريحا واضحا وجعله كمن يأكل لحم أخيه، قال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}694، ولما كان الخليفة طاهرا في سريرته حتما يجب أن يكون طاهرا في:

- بدنه.

- نفسه.

- فيما يفكر ويتذكر.

- وطاهرا في ثوبه، وبيته، ومركبه، وفيما يشربّ ويأكل ويتذوق.

- طاهرا في ظاهره وباطنه.

طاهرا سلوكه، فيكون الخليفة مقتديا بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَربّكَ فَكَبِّرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِربّكَ فَاصْبِرْ}695، وفي هذه الآيات وعند قوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) بالتحديد من ينظر إليها يجدها تشتمل على الطهارة الداخلية كما تشتمل على الطهارة الخارجية، ويظهر ذلك بمجيء قوله تعالى: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) بعدها، فترك الرجز من الأشياء التي يعملها القلب وتكون بين العبد وربّه، قال تعالى: (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)، فلا وجود لخليفة إذا لم يكن طاهرا في كل ما ذكر وما يجب أن يكون به طاهرا.

694 الحجرات 12.

695 المدثر 1-7.

وعليه يصفي الخليفة نفسه وقلبه مع ربّه ومع خلقه بإتباع ما أمره الله تعالى والانتهاء عما نهاه عنه بتوجيه النفس والقلب التوجه الصحيح وذلك بإقامة الفروض المنصوص عليها في القرآن والسنة، فعليه:

1 - أن يقيم الشهادتين إقرارا بالقلب ونطقا باللسان وعملا بالجوارح.

2 - أن يقيم الصّلاة في أوقاتها، قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصّلاة فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصّلاة إِنَّ الصّلاة كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}696، وقال تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}697.

3 . أن يؤتي الزكاة في أوقاتها: قال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حقّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}698،

4 . أن يؤدّي فريضة حجه متى استطاع ذلك، وقال تعالى: {فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}699،

5 . أن يصوم رمضان إيمانا واحتسابا، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى

---

696 النساء 103.

697 المعارج 23.

698 المعارج 24-26.

699 آل عمران 97.

مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}700.

6 . إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ولو كره المجرمون والكافرون، قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقّ الحقّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}701.

7 . الابتعاد عن ارتكاب الآثام: قال تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}702

8 . الابتعاد عن الموبقات: فالخليفة مأمور بالبعد عن السلوكيات التي تذهب به إلى جهنم والعياذ بالله، ومن هذه الموبقات:

- الإشراك بالله تعالى.

- قتل النفس البريئة: بغيا وعدوانا، أو خوفا من الفقر.

- ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن: كالزنا والسرقة، والغش وإشعال نار الفتنة.

- أكل مال اليتيم بغير حقّ.

- التطفيف للكيل والميزان.

- ارتكاب المظالم.

---

700 البقرة 186،185.

701 الأنفال 7، 8.

702 النساء، 111، 112.

وعليه لا يوصف الله إلا بما سمى به نفسه، ولا وصف إلا بأحد ثلاثة:

– إما رؤيته، وهذه استحالة. قال تعالى: {وَلما جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبّهُ قَالَ ربّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلما تَجَلَّى رَبّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلما أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[703].

– أو رؤية مثيله، وهذه أيضا استحالة. قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[704].

– أو وصفه ممن يعرفه، وهذه بالإيمان ممكنة، ولأنّ الإيمان بالشيء لا يكون إلا تسليما بالشيء مباشرة أو بآية من آياته العظام، أو برسول مرسل، وفي هذا الأمر الكثير الذي به يتم الإثبات دون ظهور للشبيه أو المثيل، حيث وراء كل مخلوق خالق، ولا يمكن أن يكون المخلوق لو لم يكن الخالق سابق عليه، ولهذا فالخالق الأول مثبت بآياته العظام، وهو مصطفي الرّسُل صلوات الله عليهم مبشرين ومنذرين ومحرضين؛ ولهذا ليس أحد أعلم بالله من الله ثم رسله الذين أوحى إليهم وعلمهم فوجب لزوم طريق الوحي في أسماء الله الحسنى إذ لم نر ربّنا في الدنيا فَنَصِفه وليس له مثيل من خلقه فيوصف بوصفه، تعالى ربّنا وتقدس، ولذلك وجب إتباع قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[705]، وقال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ

---

[703] الأعراف 143.

[704] الشورى 11.

[705] المدثر 1-7.

الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}706.

ولأنّه الله الواحد الأحد يحقّ الحقّ ويزهق الباطل وهو العدل الحقّ قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ربّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْربّوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْربّوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}707، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ ربّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْربّوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْربّوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ

---

706 الحشر 22 . 24.

707 الأنعام 151-153.

ربّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمّا أَوْحَى إِلَيْكَ ربّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}708.

وعلى الخليفة أن يعلم أنه سبحانه أجلُّ من أن يُدرَكَ كُنْهُ ذاته وصفاته، أو يحاطَ بها علمًا، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}709، وليعلم أن الواحد هو الله تعالى، وأن الأسماء مضافة له فقوله: {وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسمائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}710، أي أضافها إليه، كما قال: {فَسَبِّحْ بِاسم ربّكَ الْعَظِيمِ}711. وقوله: (فَادْعُوهُ بِهَا)، أي: فادعوا الله بأسمائه، ولذا فلاسم غير المسمى، قال تعالى: {تَبَارَكَ اسم ربّكَ}712، والمتبارك هو الله، وأن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، و(الله) عَلَمٌ على الرّب تبارك وتعالى، ويقال: إنّه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}713، كما قال: (ولله الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)، وقال تعالى: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماء الْحُسْنَى}714. وعن أبي هريرة: أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:

---

708 الإسراء 29-39.

709 الشورى 11.

710 الأعراف 180.

711 الواقعة 74.

712 الرحمن 78.

713 الحشر 22-24.

714 الإسراء 110.

"إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسما مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجنّة"715.
ونحن نقول الله واحد أحد وأسمائه لا تحصى، وما نقدمه للقراء في هذا الجهد هو محاولة لإظهار ما استطعنا إظهاره ممّا عرفنا من أسمائه الحسنى التي لا تعد ولا تحصى، ومهما تعددت الأسماء فالله واحد أحد سبحانه جلّ جلاله لا شريك له ولا مثيل ولا شبيه، وليس له صاحبة ولا ولد مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}716.

وعليه الله اسم وغيره مسمى، ومن المسمى ما هو مسمى منه جلّ جلاله، ومنه ما هو مسمى بالمتعرف عليه، أو المتعرف به، فالأرض مسمى منه وهكذا الشمس والقمر والليل والنهار والفجر والعصر والزمان، وكذلك مثل آدم عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}717، وكذلك يحيى عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}718، وهكذا الإنس والجن والملائكة أسماء لم تسم إلا منه جلّ جلاله.

إمّا المسمى فهو من يكون الآخر مسميا له، كما يسمي الآباء أبنائهم، أو ما يطلقونه من أسماء على صفات سلوكية أو حركية أو أخلاقية أو بيئية، وهكذا تتعدد الأسماء والصفات والله تعالى واحد أحد لا يتعدد.

ولأنّ الله تعالى هو الاسم الأعظم، فهو الأصل لكل شيء، والمسمى دائما لاحقّ للشيء الذي يسمى.

---

715 صحيح البخاري، ج 9، ص 261.

716 الإخلاص 1 . 4.

717 آل عمران 59.

718 مريم 7.

وعليه قد يتساءل البعض: لماذا الله؟

الله جلّ جلاله خالق لكل شيء، ولذا فهو يسأل ولا يسأل، مصداقا لقوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}[719] ولأن السؤال دائما يلاحقّ الإجابة فالإجابة دائما سابقه على السؤال، أي لا سؤال إن لم تكن الإجابة سابقة عليه، وإلا هل يمكن للمعلمين أن يسألوا التلاميذ أو المتعلمين بشكل عام إذا لم يعلموهم أولا ثم ليسألوهم ثانيا عما تعلموا، ولذلك لا تُجرى الامتحانات والاختبارات إلا بعد تعلم ومعرفة، ولهذا تُبث المعلومات والمعارف وتعلم أولا ليتم الاختبار عليها ثانيا ولله المثل الأعلى، وهكذا الله جلّ جلاله لا يسأل عباده أولا بل بدايةً نزّل الكلم عليهم وبين لهم الحلال من الحرام وبين لهم ما يجب الإقدام عليه وما ينبغي تجنبه والابتعاد عنه، ولهذا أوجب عليهم الإصلاح في الأرض وحرَّم عليهم الإفساد فيها كما حرَّم عليهم سفك الدماء بغير حقّ.

وعليه لا إجابة علمية وموضوعية إلا من مصدر، ومصدر كل المعلومات هو الله الخالق المصور السميع المجيب، ولأنه المجيب فمن حقّنا أن نسأل لأجل أن نعرف، ولأن كل الإجابات منه، فهو المجيب بالمطلق، ولهذا يكون المجيب جلّ جلاله هو الإجابة الشافية على السؤال: لماذا الله؟

إذن لماذا الله؟

لأنّه المجيب. فلوا لم يكن مجيبا ما عرفناه وما عرفنا المعرفة التي تُعرِفُنا به، ولأنّ المعرفة هي التي تحتوي الإجابة وكل المعرفة من الله فلهذا عرفناه واحدا أحدا لا شريك له {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ

[719] الأنبياء 23.

اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}720.

ولأنّ الله هو المعرفة التامّة والكاملة، فكانت له الأسماء الحسنى، التي يدعى بها وهو السميع المجيب، وعليه لا يَسأل (لماذا الله)؟ إلا من يعرفه، فلو لم يعرفه ما كان سائلا عنه، ولكن البعض يعرفونه وينكرونه في الحياة الدنيا، إلا أنهم سيقولونها علنا وبصوت عالٍ في الآخرة يوم أن يطرح سؤاله جلّ جلاله: لمن الملك اليوم؟ فتكون الإجابة بالإجماع (لله الواحد القهار). قال تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}721.

إذن لماذا الله؟ لأنّه الخالق الذي خلق من طرح هذا السؤال (لماذا الله). سبحانه لو لم يخلقه ما كان من المتسائلين.

وهذا السؤال عندما يكون لأجل المعرفة لا عيب فيه، ولكن عندما يكون لأجل الإنكار يكون كل العيب فيه، ومع ذلك حتى الذي يريد الإنكار كيف له أن يسأل عنه لو لم يكن هو الله جلّ جلاله. أي انه سأل عن واجدٍ، فلو لم يكن المخلوق موجودا ما كان الواجد موضوع التساؤل، ولأنه الواحد الحقّ بالمطلق الذي أوجد الوجود فمن حقّ الموجود أن يسأل عن واجده إلى أن يعرف، وعندما يعرف يؤمن ويكون من المستخلفين فيها، وبعدها بطبيعة الحال سيكون السؤال ذاته من الخالق للمخلوق: لماذا الله؟ فتكون الإجابة لأنه الخالق المجيب مالك الملك. ولهذا يطرح السؤال: لمن الملك اليوم؟ فتكون الإجابة لله الواحد القهار.

---

720 الحشر 23، 24.

721 غافر 16.

لماذا الله؟ سؤال يقود إلى الهداية ولا يقود إلى الضلال، فمن سأله في الدار الدنيا ليعرف، يعرف إنّه الله الواحد القهار، ومن سأله فيها ليفسد فإنما يضل عليها، مصداقا لقوله تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحقّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِربّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}722.

إذن لماذا الله؟

لأنه الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى التي يدعى بها فيجيب سبحانه جلّ جلاله، فلو لم يكن واحدا أحدا ومالكا للملك والخالق المطلق ما كُنَّا وما طُرِح هذا السؤال الذي من عرفه أجاب (واحدا أحدا). ولهذا لماذا الله؟ لنسبحه واحدا أحدا لا شريك له.

وعليه لماذا الله؟

ليعم العدل بين من خلق في الدارين، ويكون الملك والعرش له، والبعث بعد الحياة والممّات وليكون الحساب والعقاب والثواب والجنّة والنّار بين العباد بالأعمال.

فلماذا الله؟ لندركه دون غفلة، ولنؤمن به ونقوله هو كما هو في سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}723.

---

722 الإسراء، 15 . 17.

723 الإخلاص 1 . 4.

ولأنّ الإنسان خلق عجولا مصداقا لقوله تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}724 فقد يتساءل البعض: هل خلق الله نفسه؟ أم خلقته الطبيعة؟

الطبيعة مخلوقة والله جلّ جلاله خالق، وشتان بين الخالق العظيم وبين المخلوق العجول، أمّا من يتساءل: هل خلق الله نفسه؟ نجيب: إنّه الأوّل والآخر، وهو ذات، والذات تَخلُق ولا تُخلِق، والخالق سابق بالمطلق على كل سابق، ولهذا فهو الأوّل وغيره لاحقّ، إنه الأول مسبب الأسباب وخالق المخلوقات، وهو الآخر الباقي جلّ جلاله. ولو خلق نفسه لما كان الأوّل تعالى، ولو خلق نفسه لكان من مادة ولكان له المثيل والشبيه، وهو سبحانه جلّ جلاله ليس كمثله شيء قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}725 سبحانه ليس كمثله شيء، ولأنّه كذلك فهو الواحد القهار، والقهار هو الغالب بالقوّة،

---

724 الأنبياء 37.

725 الشورى 11 . 15.

ولأنّه كذلك؛ فلا يوصف بالقدم ولا بالحداثة، إنّه الله خالق الزّمان وجاعله قيدا على من خلق وما خلق، أمّا ذاته العلية فلا تحاط بالزّمان الذي به يتم تحديد القديم من الحديث، إنه تعالى المحيط بالمطلق وغيره محاط بالقوّة والقدرة والهيمنة والجلالة، سبحانه يُحِيط ولا يُحَاط، ويُهيمن ولا يهيمن عليه، إنّه ربّي الواحد الأحد الأول والآخر، ولأنّه عزّ وجلّ ذات، فالذات لا مادة، ولهذا تخلوا الذات العلية من المثيل والشبيه، وبما انه ذات، والذات خالقة لا مخلوقة، إذن الذات الخالقة سابقة على الخلق، ولأنه ذات، فالذات لا يلحقّها الخلق بالمطلق، أي لو لا حقّها الخلق لأحاط بها، ولهذا السؤال: هل خلق الله نفسه؟ لا يطرح إلا على المستوى البشري، (الخلق) أي لا يطرح إلا قصورا في التفكير، ومن يدرك الحقّ يعلم أن الخالق سابق على قواعد الخلق، ولهذا يحيط ولا يحاط. ولأنه يحيط ولا يحاط، يسقط السؤال من طرحه لعدم مقدرته على الإحاطة.

وعليه القاعدة تقول: (الخالق يَخلِق ولا يُخلَق).

ولأنّ الله تعالى ذات، والذات لا مادة، ولا روح، فالذات لا توصف إلا بصفاتها الحسان، ولأنه جلّ جلاله ذات فهو فعّال لما يُريد، ولأنه الفعّال لِما يريد فليس كمثله شيء، وهو على كل شيء قدير، ولأنه القدير بالمطلق فهو يخلق ولم يخلق، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، سبحانه جلّ جلاله سبحان الله العظيم.

ولأنّ الله ذات خلق أول ما خلق التهيؤ، وهو التأهب لكينونة الأشياء، ولهذا فالتهيؤ مجموع المعطيات الصالحة لتنفيذ الأمر (كن) أي قبل أن يخلق الحركة والزمان خلق التأهب للحركة والزمان، ولهذا أمره نافذ ولا مرد له سبحانه جلّ جلاله، فقبل أن يكون القمر والشمس والأرض والسماوات العلا والطير والنبات والأسماك وكل شيء، كان كل شيء بأمره

متأهب لأن يكون متميزا بما هيّأه الله عليه، ولهذا فالتأهب بيئة صالحة لكينونة الشيء على الخاصية والصفة.

وعليه كلما تهيأت ظروف الأشياء لأنّ تكون كانت بالأمر (كن) هي كما هي. ولذا كلما تهيئت ظروف البركان كان، وهكذا كلما تهيئت ظروف الزلزلة أو المطر أو الحياة أو الموت أو أيّ شيء كان هذا الشيء قابل للملاحظة أو المشاهدة أو الاثنين معا، والخليفة لأنه مؤمن يؤمن بأن معطيات البعث متهيئة ممّا يجعله في دائرة الممكن المتوقّع في أي حين، قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحقّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}726، وقال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ وَإِنَّ ربّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ ربّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}727.

وعليه كلما تهيأت ظروف المخلوق كان فعلا ماثلا بالأمر (كن)، ولهذا ظروف كلّ شيء يراد له أن يكون تكون ظروفه متهيئة بالقوّة والقدرة

---

726 الشورى 17، 18.

727 النمل 65. 76.

الإلهية لتكون كما يرادها الله أن تكون عليه، ولذا كل يوم يكتشف العباد الجديد من خلق الخالق، فيروسات جديدة بأمراض جديدة وعلوم متطورة ملاحقّة للعلاج، ومع ذلك فلم يؤت الإنسان من العلم إلا قليلا.

وقوله: {إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}728 أي: آمنوا بكمالهم.

وقد اختلف المفسّرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروي، كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟ على قولين؛ الأظهر من السياق: نعم والله أعلم. كما قال تعالى: (لما آمَنُوا) وقال تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}729، وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي، وقد كانوا لا ينقصون عن المائة ألف (أَوْ يَزِيدُونَ).

وروى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث زهير عمّن سمع أبا العالية: حدثني أبي بن كعب أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن قوله: (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) قال: "يزيدون عشرين ألفًا"730.

واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أم بعده، أو هما أمتان على ثلاثة أقوال: هي مبسوطة في التفسير. والمقصود أنّه عليه السلام لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينة في البحر، فلجت بهم واضطربّت وماجت بهم، وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون، على ما ذكره المفسّرون.

728 يونس 98.

729 الصافات 147، 148.

730 تفسير الطبري، جامع البيان ط هجر، 19، ص 637.

قالوا: فتشاوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتحفظوا منه. فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}731 وذلك أنّه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر، وبعث الله عزّ وجلّ حوتًا عظيمًا من البحر فالتقمه، ولما استقر في جوف الحوت حسب أنّه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حي، فخرّ لله ساجدًا.

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه. فقال مجالد، عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية. وقال قتادة: مكث فيه ثلاثًا. وقال جعفر الصادق: سبعة أيّام. ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت:

وأنت بفضل منك نجيت يونسا.. وقد بات في أضعاف حوت لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن، وأبو مالك: مكث في جوفه أربّعين يومًا، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنّه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأحاجي، فسمع تسبيح الحيتان للرّحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحبّ والنوى، وربّ السماوات السبع والأرضين السبع، وما بينها وما تحت الثرى.

731 الصافات 139 . 148.

فعند ذلك وهنالك قال ما قال: بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزّة والجلال الذي يعلم السرّ والنجوى، ويكشف الضرّ والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقّت، ومجيب الدّعوات وإن عظمت، حيث قال في كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين وربّ العالمين وإله المرسلين:

{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[732] أن نضيق. وقيل معناه: نقدّر من التقدير وهي لغة مشهورة قدَر وقدّر كما قال الشّاعر:

فلا عائدٌ ذاك الزّمانُ الذي مضى..... تباركتَ ما يقدَرْ يكن فلك الأمر.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ) قال ابن مسعود، وابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبير، ومحمّد بن كعب، والحسن، وقتادة، والضحاك: ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

وقال سالم بن أبي الجعد: ابتلع الحوت حوت آخر، فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر.

وقوله تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) قيل معناه: لولا أنّه سبّح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل

[732] الأنبياء 87 . 90.

والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه، والرّجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة. ولبعث من جوف ذلك الحوت.

هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الرّوايتين عنه.

وقيل معناه: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ) من قبل أخذ الحوت له (مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أي: المطيعين المصلّين الذّاكرين الله كثيراً. قاله: الضحاك بن قيس، وابن عباس، وأبو العالية، ووهب بن منبه، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي، وعطاء بن السائب، والحسن البصري، وقتادة، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "يَا غُلَامُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلماتٍ لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِنَّ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، اعْرِفِ اللَّهَ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، فَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ تَعَالَى بِالرِّضَا فِي النَّفْسِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ، فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"733.

عَنْ حَنَشٍ الصَّنْعَانِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَهْدَتْ فَارِسُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يَا غُلَامُ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَلَا تَسْأَلْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَحْلِفْ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، جَفَّتِ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَهْلَ

[733] القدر للفريابي محقّقا، ص 118.

السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِغَيْرِ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ، مَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ لِي بِمِثْلِ هَذَا مِنَ الْيَقِينِ حَتَّى أَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا؟، قَالَ: "تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لم يكن ليصيبك"734.

عَنْ لَيْثِ بْنِ سَعْدٍ الْمِصْرِيِّ، عَنْ قَيْسِ بْنِ الْحَجَّاجِ، أَنَّ حَنَشًا الصَّنْعَانِيَّ أَخْبَرَهُ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَكِبَ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلماتٍ: احْفَظِ اللهَ يحفظْك، احْفَظِ اللَّهَ تجدْه تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عزّ وجلّ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ إِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ"735.

وروى ابن جرير في (تفسيره)، والبزار في (مسنده)، من حديث محمّد بن إسحاق، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قالت: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لما أَرَادَ اللهُ حَبْسَ يُونُسَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، أَوْحَى اللهُ إِلَى الحُوتِ: أَنْ خُذْهُ وَلا تَخْدِشْ لَهُ لَحْما وَلا تَكْسِرْ عَظْما، فَأَخَذهُ، ثُمّ هَوَى بِهِ إلى مسْكَنِهِ مِنَ البَحْرِ، فلما انْتَهَى بِهِ إلى أَسْفَلِ البَحْرِ، سَمِعَ يُونُسُ حِسًّا، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا هَذَا؟ قالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: إِنَّ هَذَا تَسْبِيحُ دَوَابِّ البَحْرِ، قَالَ: فَسَبَّحَ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، فَسَمِعَتِ المِلائِكَةُ تَسْبِيحَهُ، فَقَالُوا: يَا ربَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْتا ضَعِيفا بِأَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟ قَالَ: ذَاكَ عَبْدِي يُونُسُ، عَصَانِي فَحَبَسْتُه فِي بَطْنِ الحُوتِ فِي البَحْرِ، قَالُوا: العَبْد الصَالِحُ الَّذِي كانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قَالَ: نَعم، قَالَ: فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ

734 القدر للفريابي محقّقا، ص 120.

735 القدر للفريابي محقّقا، ص 117.

ذَلكَ، فَأَمَرَ الحُوتَ فَقَذَفَه فِي السَّاحِلِ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إنّ هذا تسبيح دواب البحر.

قال فسبّح وهو في بطن الحوت؛ فسمعت الملائكة تسبيحه.

فقالوا: يا ربّنا إنّا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة.

قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر.

قالوا: العبد الصّالح الذي كان يصعد إليك منه في كلّ يوم وليلة عمل صالح!

قال: نعم.

قال: فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل".[736]

كما قال الله: (وَهُوَ سَقِيْمٌ) هذا لفظ ابن جرير إسنادًا ومتنًا. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي صلّى الله عليه وسلّم إلا بهذا الإسناد كذا قال.

وقد قال ابن أبي حاتم في (تفسيره): حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرّحمن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه، سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أنّ أنسًا يرفع الحديث إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أن يونس النبي عليه السّلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فأقبلت الدّعوة؛ فقالت الملائكة: يا ربّ صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة.

فقال: أما تعرفون ذاك؟

---

[736] تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 18، ص 518.

قالوا: يا ربّ ومن هو؟

قال: عبدي يونس.

قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عملًا متقبلًا، ودعوة مجابة.

قالوا: يا ربّنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرّخاء فتنجيه من البلاء؟

قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء .رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب به.

زاد ابن أبي حاتم قال: أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث، أنّه سمع أبا هريرة يقول: "طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة.

قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟

قال: شجرة الدباء.

قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض، أو قال: هشاش الأرض.

قال فتنفشخ عليه فترويه من لبنها كلّ عشية وبكرة، حتى نبت"737.

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتًا من شعره:

فأنبت يقطينا عليه برحمة..... من الله لولا الله أصبح ضاويا

وهذا غريب أيضًا من هذا الوجه، ويزيد الرقاشي ضعيف ولكن يتقوّى بحديث أبي هريرة المتقدّم، كما يتقوّى ذاك بهذا والله أعلم.

---

[737] تفسير ابن كثير ت سلامة، 7. ص 39.

وقد قال الله تعالى: (فَنَبَذْنَاهُ) أي: ألقيناه (بِالْعَرَاءِ) وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها.

(وَهُوَ سَقِيْمٌ) أي: ضعيف البدن.

(وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ) قال ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يساف، وعبد الله بن طاوس، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء في إنبات القرع عليه حكم جمة؛ منها: أنّ ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربّه ذباب، ويؤكل ثمره من أوّل طلوعه إلى آخره، نيًا ومطبوخًا وبقشره وببزره أيضًا. وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ، وغير ذلك.

وتقدّم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها، وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية، وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه؛ وهنا جاء قوله تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ) أي: الكربّ والضّيق الذي كان فيه.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) أي: وهذا صنيعنا بكلّ من دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرّحمن، حدثني بشر بن منصور، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك – وهو ابن أبي وقاص – يقول: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى: دعوة يونس بن متّى.

قال: فقلت يا رسول الله: هي ليونس خاصّة أم لجماعة المسلمين؟

قال: "هي ليونس خاّصة وللمؤمنين عامّة إذا دعوا بها. ألم تسمع قول الله تعالى: (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) فهو شرط من الله لمن دعاه به"[738]

وتعليقا على ما تقدّم: يلاحظ أنّ في الأحاديث ما هو متناقض، ومنها ما هو مؤيّد، منها ما يقبله العقل، ومنها ما يضع علامات الاستفهام عليه؛ فيونس لا شكّ أنّه نبي الله الذي اصطفها لا لصدفة، بل الله عالم الغيب والشهادة لا يصطفي نبيا إلّا ومعطيات النبوّة فيه، وبالتالي أن ينسب لهذا النبي الكريم ما ينسب إليه من خيال فهذا شيء، ولكن ما كان عليه النبي حقّيقة يصعب الوقوف عنده ما لم يكن نصّا قرآنيا.

وفي قصّة يونس عليه السّلام وغضبه لا يمكن لنبي أن يغضب من ربّه تعالى، ولا لربّ مطلق أن يغضب على نبيا اصطفاه مرسلا لمن استهدفهم برسالته، وكذلك فإنّ قصّة التقام الحوت له، لا يمكن أن يكون إلّا من أجل إنقاذه وسلامته، ولهذا أنا لا أرى الحوت الذي أنقد يونس إلّا قاربا من أرفع القوارب وأكثرها أمن وسلامة؛ فيونس بعد أن كان في ذلك القارب أو السّفينة المعرّضة للخطر أصبح بين يدي الله معجزة تحمل معجزة يراد لها أن تنتشر؛ فانتشرت في قومه حتى أمنوا بلا استثناء.

وكذلك أعرف أنّ الأنبياء جميعهم قد تعرّضوا لابتلاءات من آدم إلى الخاتم، ولكنّهم جميعا سلموا في نهاية كلّ ابتلاء، وذلك لأنّ الابتلاءات لا تصمد أمام قوّة الإيمان والالتزام بالأمر الرّباني. ولأنّهم جميعا أنبياء ورسل

---

[738] التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص 157.

كرام عليهم الصّلاة والسّلام؛ فهم عظماء الشخصيات، وعظماء الإنباء والرّسالات.

وختاما أقول في هذا الأمر: لو لم يكن لي نبيا عظيما (محمّد عليه الصّلاة والسّلام) لقلت لكلّ نبيا أنت نبيّ ورسولي أطيع أمرك ورسالتك، ولكن لأنّ رسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام هي جامعة وشاملة لتفاصيل البيّنة؛ فهي لا تترك للاجتهاد إلّا الطاعة والاتباع. ولهذا فأنا بحقّ لا أفرّق بين أحدٍ من رُسله جلّ جلاله.

إيمانُ قوم يونس:

حذّر يونس أهل نينوى من العذاب إن لم يؤمنوا به ويتبعوا الدين الذي أرسل به إليهم، ثمّ خرج مغاضبًا لهم لإصرارهم على كفرهم وعدم اتباعهم دعوته، ولما خرج عليه السّلام وهو يائس منهم تغشاهم صباحًا العذاب وصار قريبًا جدًا منهم، وقيل: ظهرت السُّحُب السّوداء في السّماء وثار الدّخان الكثيف وهبطت السحب بدخانها حتى غشيت مدينتهم واسودت سطوحهم ولما أيقنوا بالهلاك والعذاب أنّه واقع بهم طلبوا يونس عليه السّلام فلم يجدوه، وألهمهم الله التوبة والإنابة فأخلصوا النيّة في ذلك وقصدوا شيخًا وقالوا له: قد نزل بنا ما ترى فماذا نفعل؟ فقال لهم: ءامنوا بالله وتوبوا، عند ذلك ءامنوا بالله وبرسوله يونس عليه السّلام وكانوا خرجوا من القرية ولبسوا المِسوح وهي ثياب من الشعر الغليظ، وحثوا على رءوسهم الرماد، وفرقوا بين كل والدة وولدها من النّاس والأنعام، ثمّ عجوا ورفعوا أصواتهم في الدّعاء إلى الله وتضرعوا فكانت ساعة عظيمة هائلة وعجوا إلى الله بالتوبة الصادقة وردوا المظالم جميعًا حتى إنّه كان أحدهم ليقلع الحجر من بنائه فيرده إلى صاحبه؛ فاستجاب الله منهم وكشف عنهم بقدرته ورحمته العذاب الشديد الذي كان قد دار على رءوسهم وصار قريبًا

منهم كَقِطع الليل المظلم739، ويقال إنّ توبتهم في يوم عاشوراء يوم الجمعة، يقول الله عزّ وجلّ: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لما آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}740.

ولما أصاب نبي الله يونس عليه الصّلاة والسّلام ما أصابه من ابتلاء عرف أنّه لا ابتلاء إلّا من عند الله، ومن ثمّ؛ فليس له إلّا الصّبر على ما ألمّ به من ابتلاء وإن كانت الشدّة عنوانه، ولأنّ الأنبياء على صلة بربّهم تعالى؛ فهم في مرضاته قادرون على تحدّي الصّعاب، وهم واثقون بأنّ النجاة قد كتبت لهم؛ فلا خوف إلّا من أجل التبليغ بما أمروا به نبأ ورسالة.

عاد يونس عليه الصّلاة والسّلام إلى قومه أهل نينوى؛ فوجدهم في انتظاره متأهّبين لإعلان الإيمان، وهم راضون طاعته وما جاء به؛ فهم يأتمروا بأمره ويتبعوه، فمكث عليه الصّلاة والسّلام معهم يعلّمهم ويرشدهم، ومتّع الله تعالى أهل نينوى بالأمن والرّضاء بعد تصالح وتسامح مع النفس والآخر.

وعليه أقول:

لا أحكام مطلقة وإن كان الغضب عنوانا لقصّة البقاء، ذلك لأنّ البشر في عمومهم وإن خُلقوا في أحسن تقويم، ولكنّهم لم يُخلقوا على الكمال؛ فالكمال لله وحده، ولهذا وجب الاستغفار ووجب التصالح والتسامح وكذلك العفو؛ {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ

---

[739] تفسير الطبري، جامع البيان، 12، ص 293.

[740] يونس 98.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}741، ومن ثمّ وجب تصحيح المعلومة الخاطئة بمعلومة صائبة.

تصحيح المعلومة الخاطئة بمعلومة صائبة:

الحياة البشرية مليئة بالأخطاء والخصومات والانحرافات والصدامات، ومع ذلك فالشعوب دائما في حالة تدافع من أجل تصحيح مواقفها وتغييرها إلى الأفضل والأجود، ولو بقيت الشعوب ساكنة على تلك القيم السلبية لفسدت حياتها، وتقطّعت علاقاتها وروابطها الإنسانية والدّنية والأخلاقية والاجتماعية والذوقية.

فالتدافع حركة مستمرّة به تعمر الأمصار وتؤسّس الحضارات وتنهض، وتتقدّم العلوم والمعارف والثقافات الدافعة لعجلة التقدم، ومع ذلك لا يمكن أن تنقطع النزاعات والخصومات والصّدامات التي تشكّل عوائق أمام حركة تدافع الأفراد والجماعات والمجتمعات على ما يمكّنهم من النّهوض والبناء والإعمار.

ولذا، لو لم يكن التسامح ملاحقًا لهذه العلل، لكانت الحياة لا تزيد عن كونها شقاوة، ومن ثمّ، فالتسامح قيمة محفّزة على البقاء الممكّن من استمرار الروابط الإنسانية والاجتماعية، الممكّنة هي الأخرى من البقاء النوعي الذي يتولّد منه العرف المتولّد هو الآخر من الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ممّا يجعل للحياة طعما وذوقا.

ومن ثمّ؛ فالتسامح نتاج الاعتراف بالأخطاء سواء أكانت من المعلومات التي تمّ الحصول عليها أو تلقّيها من قِبل البعض، أو بأسباب ذاتية (كيد ومكر)، وفي كلتا الحالتين؛ فإنّ المعلومات الخاطئة قابلة للتصحيح بمعلومات صائبة وصادقة، وكذلك الأفراد قابلون للتقييم والتقويم

---

[741] البقرة 109.

السلوكي، ولهذا؛ فكلّ شيء قابل لأن يتغيّر، ممّا لا ينبغي أن يكون عليه، إلى ما يجب أن يكون، وبذلك يجد التسامح أرضية يمتدّ فيها بين النّاس، وبهذه المعطيات تتولّد المودة في الصدور، ويصبح التسامح بين النّاس مولودا مدلّلا. وهذا بالتمام ما وجدناه بين قوم نينوى ونبيّهم يونس عليه السّلام، محبّة وطاعة وإيمان.

ومن ثمّ؛ فالخطأ ليس العيب، ذلك لأنَّ العيب سلوك مشين لبني الإنسان، ولا يقدم عليه إلا مخطئ عن عمدٍ، وهنا، يصبح القصد به تقليل شأن الآخرين والاعتداء عليهم بما لا يجب، أمّا الخطأ؛ فالكلّ معرّض لأن يقع في مصيدته التي تنصب في كلّ الطّرقات. ومع ذلك؛ فالتسامح كفيل بالمعالجة وعودة الأمور إلى نصابها، بل هناك من كوّن علاقة جميلة بعد خصام مع الآخرين.

ولأنّ الإنسان خطاء بطبعه؛ فكيف لا يقع في الأخطاء؟ ولكن في المقابل لا يليق به الاستمرار فيما وقع فيه من خطأ، ولأنّ الإنسان خطاء، فلا استغراب، الاستغراب ألا يصحّح أخطاءه. ولأنّ الجميع معرّضون للوقوع في الأخطاء؛ فوجب العفو والصّفح والتصالح والتسامح.

تصحيح المعلومة:

المعلومة هي حاملة الأخبار وكاتمة الأسرار تنقلها الكلمات من مُرسل لمستقبل، وهي في حالة امتداد بين قبول ورفض وإضافة وتعديل، وغموض ووضوح، ولأنّها بين هذه وتلك؛ فهي في حاجة لأن تُصحَّح، حتى لا تزوّر الحقّائق، ويحيد الكلام عن مواضعه، ولذا؛ فإنّ تصحيح المعلومة يتطلّب مصدرا صادقا، وباحثا غير متحيّز وقادر على أن يتبيّن، وأن يميز بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون، وقادرا على أن يستقرئ ويستنبط من القول والنّص دلالة ومفهوما ومعنى.

قواعد تصحيح المعلومة بالمعلومة:

تصحيح المعلومة الخاطئة يستوجب توفّر معلومة صائبة، والمعلومة الصّائبة تتطلّب لسان حقّ لقولها، كما هو حال الصراع بين الحقّ والباطل الذي أرسل بشأنه الرّسُل مبشّرين ومنذرين ومحرّضين على الخير وإعماله، وكذلك فإنّ المعلومة الصّائبة تستوجب مستمعا منصتا لها بكلّ اهتمام، وحكما بها يفصل بين النّاس. ولذلك فالقاعدة المنطقية والعلمية تنصُّ على أنّ:

1 . المعلومة متأرجحة بين صائبة وخاطئة.

2 . المعلومة تصحّح بالمعلومة.

3 . المعلومة السّالبة انحرافية.

4 . المعلومة الموجبة بنائية.

5 . التصحيح وجوبي.

ولأنّ الانحراف نتاج معلومات خاطئة.

إذن، الإصلاح في حاجة لمعلومات صائبة.

ولهذا، وجب العلاج بتصحيح المعلومات التي جعلت من المنحرف منحرفا، ومن الكافر كافرا؛ وإذا لم تُصّحح المعلومات الخاطئة، التي جعلت منه منحرفا أو ضالا وكافرا؛ فيصعب على أصحاب الرّسالات أن يؤدّوا رسالاتهم كما هو حال النبي يونس الذي رفض قومه الاستماع إلى حججه الصّابة، والتي من بعد ما أتحت لها الفرصة وسمعت صحّحت ما كان خاطئا؛ ممّا جعل القبول والإيمان يحلّ محلّ الكفر والرّفض.

وبما أنَّ الانحراف السالب، هو نتاج معلومات خاطئة، والعودة للقيم الحميدة هو نتاج معلومات صائبة.

إذن، الإصلاح السّلوكي في حاجة لمعلومات صائبة، ولذلك، ينبغي أن تحلّ المعلومات الصّائبة محلّ المعلومات الخاطئة، ثم تُدعم المعلومات الصائبة بأخرى أكثر صوابا حتى يتمّ تثبيت القول السّليم، والفعل السّليم، والسّلوك السّليم والحجّة المملوءة قيما أخلاقية.

وعليه:

. تبيّن الخطأ وأدركه قبل فوات الأوان.

. أقدم على تصحيح المعلومة الخاطئة.

. تمعّن بعقل وموضوعية وميِّز.

. جادل بحجّة.

. حاور بمنطق.

. تطلَّع حتى تستوعب.

. قرر ما يجب بدون تحيّز.

. قوّم جهودك بموضوعية.

. صحّح الأخطاء التي استوضحتها بالتقويم.

. ضع الحلّ نصب عينيك وأقدم بلا تردد.

. استغفر لذنبك في كلّ خطأ تعرّفت عليه.

. اعف عمّن طلب منك العفو إن كنت واثقا من نفسك.

. إذا اعترفت أنّك من الخطّائين فعليك بالتسامح مع الخطّائين.

وعليه؛ فإنّ المعلومة الصّائبة بنائية: حيث احتوائها للقيم والفضائل التي يرتضيها المجتمع الإنساني. ولذلك؛ فالذات الإنسانية تُبنى بقيم وفضائل المجتمع التي تترسَّخ في الذهن والنفس، وتتجسّد في السلوك والفعل، وعلى ضوئها تُبنى الشخصية المتطلّعة لِما هو أفضل وأجود وأحسن، حيث الاستيعاب لكلِّ مفيد ونافع.

ولأنّ المعلومة الصائبة تحمل في مضمونها قيما إنسانية؛ فهي التي تُمكِّن الإنسان من بلوغ المستوى القيمي الموضوعي، الذي ببلوغه تصبح شخصية الأفراد خالية من قيم التعصُّب والانحياز للباطل والظلم، حيث التمسّك بالحقّ والعدل مع فائق التقدير والاعتبار.

وفي مقابل ما سبق تأتي المعلومة الخاطئة، التي تنشئ شخصية انسحابية، حيث تشرُّبها لقيم لا يرتضيها المجتمع، فهذه الشخصية ذات مستوى قيمي هدمي وليس بنائي، مثلها مثل حال الشخصية التي تشرَّبت قيم وفضائل اجتماعية وإنسانية. فالشخصية الانسحابية هي التي تتخلّى عن بعض من القيم التي يريد لها المجتمع أن تسود بين أفراده وجماعاته في الفعل والسلوك، ولهذا، كلّما استمرت الشخصية الانسحابية في الانسحاب من قيم المجتمع وفضائله التي يرتضيها، وصلت إلى مستوى الأنانية، الذي فيه لا يفكّر الفرد إلا في نفسه، حيث تخلِّيه عن القيم التي تربطه بالآخرين، حتى يوصف بأنّه شخصانيا (أنانيا).

وعليه؛ فالفرق كبير بين من تشرَّب معلومات صائبة، وبين من تشرَّب معلومات خاطئة، ولأنّ المعلومة الصائبة ذات حجّة (مصادق)؛ فهي الأقوى، ولأنّ المعلومة الخاطئة تفتقد للحجّة؛ فهي الأضعف، ولذا؛ فهي لا تصمد أثناء المواجهة مع المعلومة الأصوب (الأقوى)، ولأنّ المعلومة

الصائبة علاجية؛ فهي التي تصمد بقوّة حجّتها حتى تهزم المعلومة الخاطئة وتحلَّ محلّها.

وعليه؛ فالقاعدة العلمية تقول:

. الانحراف عن الانحراف السّالب يُعدّ عودة إلى القاعدة، ولذا؛ فهو الموجب.

– الانحراف عن الانحراف الموجب يُعدُّ خروجا عن القاعدة، ولذا؛ فهو السّالب.

. الانحراف السالب يُعد موجبا بالنسبة للمنحرفين (الخارجين عن قيم المجتمع وفضائله).

. الانحراف السّالب يُعد سالبا بالنسبة للمتمسّكين بقيم المجتمع وفضائله الخيّرة.

المعلومة تؤثّر في المعتقد والفعل:

ولأنّ المعلومة تؤثّر في المعتقد والفعل، إذن، التأثير السّالب نتاج المعلومات الخاطئة، والتأثير الموجب نتاج المعلومات الصائبة.

فنحن بني الإنسان نتعلّم بالمعلومة التي تقع في حالة تعامل بين مُرسل ومستقبل، بين منتج لها وبين مستخدم أو مستهلك، وبها يبلغ المختلفون التسامح والاتفاق، وبها يتمّ الاختلاف أيضا. إنّها العابرة للعقول والعابرة للحدود؛ فهي لا تسجن، وإن سُجن أصحابها المصدِّرين أو الموردين لها.

ولهذا تُعد المعلومة بنائية في دائرة الموجب، وهدمية في دائرة السّالب.

ولأنّ المعلومات هي التي تشكّل آراءنا وقناعاتنا بما تحمله من حُجج وبراهين؛ فهي التي تشكّل معتقداتنا أيضا. وستضل المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع سواء أكانت سالبة أم موجبة.

وعليه:

. فكّر بمعلومة.

. فكّر في معلومة.

. استمع جيدا إليها.

. ميّز بها.

. خطّط بها.

. حاجج بها.

. صحّح بها خطأ.

. قيّم بها سلوكا.

. أصلح بها حالة.

. تطلَّع بها مستقبلا.

. أحدث بها نُقلة.

. تسامح بها، وبها اصفح واعف وتصالح. وبها أنتج فعلا، وأقبل على عمل موجب ولا تتردّد؛ فالصّواب تملؤه الإيجابيات، والخطأ تملؤه السّلبيات؛ فعليك أن تتسامح وتختار حسنات تتضاعف إيجابا، أو سيئات تتضاعف سلبا.

وعليه، لا داعي لتأخير أو تأجيل أو تعطيل قيمة التسامح؛ فالتسامح قيمة مرضية لله تعالى، وبها عمل الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهي قيمة مرضية للمؤمنين والمصلحين وبني الإنسان الخيّرين؛ فتأخيرها أو تعطيلها يؤدّيان إلى نتائج أكثر سلبية (انحرافات مركّبة).

ولذا؛ فإنَّ الإقدام بكلّ قوّة وسرعة على الأخذ بالتسامح يخفف عمليات التوتّر وييسر عملية العلاج والإصلاح ويمكّن من البناء والإعمار.

ولأنَّ كلّ شيء ممكن ولا استغراب ولا يأس.

إذن، وجب على النّاس التبيّن قبل إصدار الأحكام، وعليهم بعدم المكابرة عن التسامح إن اكتشفوا أنّهم كانوا من المخطئين، أو أنّ خصمهم كان من المخطئين وقد تبيّن. وعليهم دائماً بالمعرفة الواعية حتى لا تجرّهم العاطفة وينقادوا وراءها إلى حيث ما لا يجب. وعليهم أن يميّزوا بين المعلومات الصائبة والمعلومة الخاطئة وذلك لأن:

1- المعلومة الصّائبة في دائرة المتوقّع، تُظهر القوّة البنائية والأخلاقية والإنسانية والإصلاحية والوقائية والعلاجية والاستثمارية، وتُقدّم الحقّائق هي كما هي، ويترتّب عليها الفعل المرضي الممكّن من التسامح.

2 . المعلومة الخاطئة في دائرة المتوقّع، تُظهر القوّة الهدامة، والمؤذية، والمؤلمة، ولا تُقدّم الحقّائق هي كما هي عليه، فيترتّب عليها فعل الندم. ولهذا، ينبغي على الإنسان:

1- أن يُميِّز بين ما هو ظاهر، وما هو كامن.

2- ألاَّ يغفل عن كلّ كبيرة ولا صغيرة في دائرة الممكن.

3- أن يربط العلاقة بين الظاهر والكامن.

4- ألا يستغرب الأقوال والأفعال والسلوكيات حيث كلّ شيء ممكن.

5- أن يُظهر قوّة الحجّة، والكلمة، والجملة، والقول، والفعل والسلوك.

6- أن يُدحض الحجّة بالحجّة.

7- أن يحافظ على اتزانه وتوازنه أمام المعلومة الخاطئة وأمام الأفراد.

8 . ألا يستعجل بأيّة تصريحات في حالتي الفرح والألم؛ ففي حالة الفرحة قد يلتزم بأشياء وهو لا يستطيع الوفاء بها، وفي حالة الألم قد يصرح بما لا يجب؛ ممّا يرتّب على تصريحه ألم لاحقّ، ومن هنا، وجب التسامح.

وعليه، ينبغي أن يكون العلاج للفكر المعوج الذي تشرّبه من تشرّبه من النّاس وأثّر في سلوكه، فإذا تمت معالجة المعلومات والأفكار الخاطئة أو المنحرفة بمعلومات وأفكار سوية صائبة، يتغيّر أصحاب الاتجاهات السلبية إلى الاتجاهات الموجبة التي يرتضيها المجتمع، ومع أنَّ أساس المعلومة الصواب، لكن النّاس هم الذين حادوا بها عن مقاصدها ومراميها، ومن ثمّ، أصبحت المعلومة المشوهة من بعدهم هي السبب في المظالم والمكائد بين النّاس، ممّا يجعل المعلومات الخاطئة التي تشرّبوها هي المسبب في ذلك، فلو تعلمنا فكرا معوجا ونحن لم نتبيّن نقاط اعوجاجه؛ فإنّنا سنسلك سلوكا معوجا، وإذا تعلمنا معلومات صائبة بقوّة الحجّة التي تحملها، تصبح معارفنا وسلوكياتنا صائبة. ولذا؛ فمن أراد الإصلاح بين النّاس؛ فعليه بإصلاح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة.

ولنا في النبي يونس خير مثال في العفو والصّفح والتسامح، وهو خير مثال عند النبي محمّد وفقا لما تمّ روايته وهو: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ: "لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى"742، وَأَنَّ بَعْضَ الشُّيُوخِ قَالَ: لَا يُفَسِّرُ لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى يُعْطَى مَالًا جَزِيلًا، فَلما أَعْطَوْهُ فَسَّرَهُ بِأَنَّ قُرْبَ يُونُسَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ كَقُرْبِي مِنَ اللَّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَعَدُّوا هَذَا تَفْسِيرًا عَظِيمًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ وَبِكَلَامِ رَسُولِهِ لَفْظًا وَمَعْنًى، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بِهَذَا اللَّفْظِ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اللَّفْظُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: "لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى". وَفِي رِوَايَةٍ: "مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ". وَهَذَا اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى"743.

والحمد لله ربّ العالمين

742 شرح الطحاوية، الأرناؤوط، 1، ص 161.

743 المصدر السابق، ص 161.